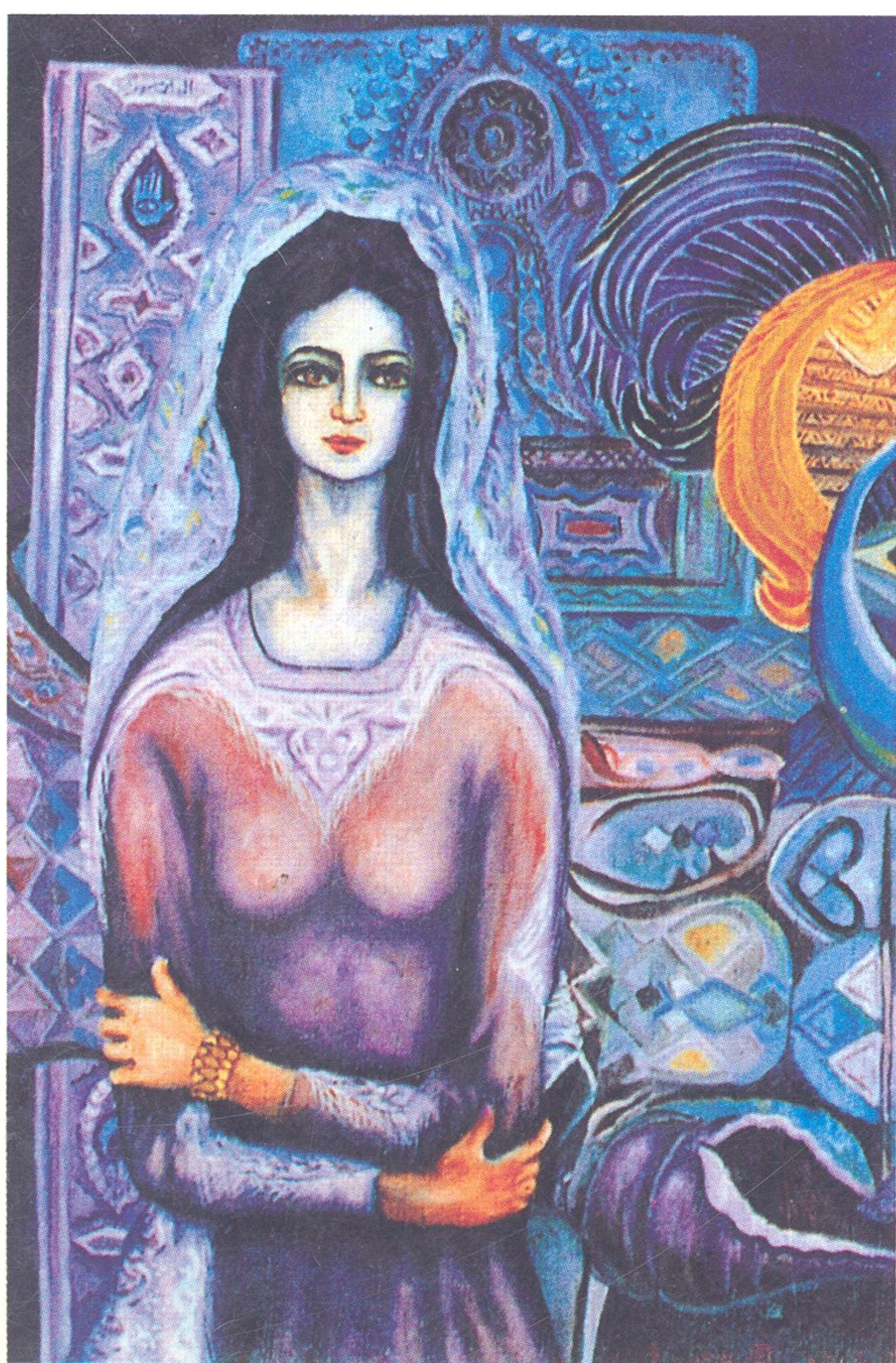
خوشوانت سينج

قطار إلى باكستان

رواية



ترجمة:
راتب جبر

قطار إلى باكستان

● ـ دار الحصاد للنشر والتوزيع
● ـ سورية ـ دمشق ـ برامكة
● ـ ص.ب: 4490 ها،فا: 2126326

● ـ الطبعة الأولى 1998

● ـ الإخراج وتصميم الغلاف:
القسم الفني في دار الحصاد

● ـ لوحة الغلاف للفنان:
زكريّا شريقي

العنوان الأصلي للرواية

Train To Pakistan
A novel by Khushwant singh

تأليف: خوشوانـت سينـج

قطار إلى باكستان

(رواية)

ترجمة: راتب جبر

إلى ابنـتي مالا

«خوشوانت سينج»

من بين أكثر الكتاب والصحفيين الهنديين انتشاراً. محط إعجاب بقدر ما هو محط لوم بسبب آرائه الخلافية والمشاكسة. حتى أعنف نقاده يوافقون، على أي حال، أنه كاتب مقروء على نطاق واسع.

ولد عام ١٩١٥ . حقق سمعته الأدبية بروايته الأولى «قطار إلى باكستان». أصدر بعدها عدداً من المجموعات القصصية والكتب التي تتناول قضايا معاصرة.

ابتدأ مهنته كصحفي من الطراز الأول عام ١٩٦٩ بصفته محرر «ذي إليوستريتدويكلي أوف إنديا» تلا ذلك اضطلاعه بمهام تحرير في مجلة «نيودلهي» و«ذا هيندوستان تايمز». الآن، وقد بات يبيع مساهماته وتنشرها له شتى الصحف والمجلات، ازداد عدد قرّائه أكثر من ذي قبل.

جريمة سَلْب

لم يكن صيف عام ١٩٤٧ شبيهاً بأي صيف هندي آخر. حتى الطقس كان له تلك السنة، إحساس مغاير في الهند. كان أكثر حرارة وجفافاً وغباراً. وكان الصيف أطول، لم يستطع أحد أن يتذكر متى تأخر المونسون (الأمطار الموسمية) إلى هذا الحد. لأسابيع لم تكن الغيوم تلقي سوى الظلال. لم يكن ثمة مطر البتة. وابتدأ الناس يقولون أن الإله يعاقبهم على ما اقترفت أيديهم من آثام.

حقٌ لبعضهم أن يشعروا أنهم أثموا. ففي الصيف الماضي كانت قد اندلعت أعمال العنف الطائفية في كالكوتا، أثارتها أخبار الانقسام المزمع للبلاد إلى هند هندوستانية وباكستان مسلمة. وخلال أشهر قليلة وصل عدد القتلى إلى بضعة آلاف. يقول المسلمون أن الهندوس قد خططوا وابتدؤوا القتل ويقول الهندوس أن اللوم يقع على المسلمين. الحقيقة أن كلا الطرفين مارس القتل، كلاهما أطلق النار وطعن بالسكاكين والرماح وضرب بالهراوات. كلاهما استخدم التعذيب. كلاهما اغتصب. ومن كالكوتا انتشرت أعمال العنف إلى الشمال والشرق والغرب. إلى /نواخالي/ في البنغال الشرقية حيث ارتكب المسلمون مجازر بحق الهندوس، إلى /بيهار/ حيث ارتكب الهندوس مجازر بحق المسلمين. طاف أئمة المساجد البنجاب والاقليم الحدودي ومعهم صناديق تحوي جماجم بشرية قائلين أنها جماجم مسلمين قتلوا في بيهار. مئات الآلاف من الهندوس والسيخ الذين عاشوا

على الحدود الشمالية الغربية قروناً طويلة، هجروا منازلهم وهربوا إلى ملاذٍ آمن لهم في التجمعات التي يسودها الهندوس والسيخ في الشرق. هاجروا مشياً على الأقدام أو في عربات تجرها الثيران أو حشروا أنفسهم في شاحنات أو تعلقوا على جوانب القطارات وأسطحتها. وعلى طول الطريق ـ على المعابر المائية أو تقاطعات الطرق أو في محطات القطارات ـ اصطدموا مع أسراب المسلمين الهلعين الهاربين إلى ملاذٍ لهم في الغرب. واستعرت أعمال الشغب وتحولت إلى هيجان.

في صيف ١٩٤٧ ولدى الإعلان رسمياً عن تشكيل دولة الباكستان كان هناك عشرة ملايين (بين مسلم وهندوسي وسيخي) هاربين. وفي ذلك الوقت انهمرت الأمطار الموسمية فمات ما يقارب المليون منهم، وكان مجمل القسم الشمالي من الهند يحمل السلاح، ويعيش في حالة رعب أو في المخابئ. واحةُ السلام الوحيدة الباقية كانت مجموعة قرى صغيرة مبعثرة ضائعة في أقاصي الحدود وكانت /مانوماجرا/ إحدى هذه القرى.

/مانوماجرا/ مكان صغير. فيها ثلاثة أبنية قرميدية فقط، هي بيت المرابي /لالا رام لال/ والمعبد السيخي والمسجد. تحيط هذه الأبنية الثلاثة بأرضٍ مشاع مثلثية تحوي في وسطها شجرة ضخمة من تين المعابد(*). أما بقية القرية فعنقود من المساكن الطينية ذات سطوح منبسطة، تحيطها فناءات منخفضة الجدران مفتوحة على دروب ضيقة تنبعث كالأشعة من المراكز وسرعان ماتتضاءل إلى مِدقات تضيع في الحقول المحيطة. وعند النهاية الغربية من القرية توجد بحيرة صغيرة تحيطها أشجار الكيكار كالخاتم.

يوجد قرابة سبعين عائلة فقط في /مانوماجرا/. والعائلة الهندوسية الوحيدة في القرية هي عائلة (لالا رام لال)، أما باقي العائلات فمسلمة أو

(*) شجرة مقدسة عند البوذيين على اعتبار أن بوذا كان جالساً تحتها حين وصل الإشراق. (م)

سيخية بالتساوي تقريباً. السيخ يملكون كل الأراضي المحيطة بالقرية. أما المسلمون فيستأجرون الأرض ويتقاسمون الحراثة مع الملاك. هناك بضع عائلات من الكنّاسين الذين لايُعرف دينهم. المسلمون يزعمون أنهم مسلمون، مع أنه حين يزور المبشّرون الأمريكان (قرية /مانوماجرا/ يرتدي هؤلاء الكناسون القلنسوة الهندية الخاكيه (التوبيه) ويشاركون نساءهم في غناء التراتيل بمصاحبة آلة أرغن. وأحياناً يزورون المعبد السيخي أيضاً، لكن هناك شيء واحد يبجّله جميع المانوماجريين (وحتى لالا رام لال). إنه لوح من الحجر الرملي بارتفاع ثلاثة أقدام، ينتصب تماماً تحت شجرة كيكار بجانب البحيرة. إنه الإله المحليّ الذي يذهب إليه كل القرويين سراً أنّى كانوا في حاجة خاصة للمباركة.

يقال أن /مانوماجرا/ تقع على ضفاف نهر /سوتليج/ ولكنها في الواقع تبتعد عنه نصف ميل. لايمكن للقرى تحمُّل أن تكون قريبة من ضفاف الأنهار. فالأنهار تغيّر مزاجها مع الفصول وتحول مجاريها دون سابق إنذار. نهر /سوتليج/ هو أكبر أنهار البنجاب. ترتفع مياهه بعد المونسون (الأمطار الموسمية) وتمتد عبر سريره الرملي الواسع لاعقةً أعالي الحواجز الطينية على الجانبين. يغدو متوسعاً في اضطراب عكر بعرض أكثر من ميل. وحين يخمد الطوفان ينتهي النهر إلى ألف جدول ضحل تتلوى متراخية بين جزر مستنقعية صغيرة. وعلى بعد ميل شمال /مانوماجرا/ ينتصب جسر سكة حديد فوق نهر سوتليج. إنه جسر رائع، تتهادى قببه الثماني عشرة كالأمواج من دعامة إلى أخرى ولدى كل نهاية ثمة حاجز حجري ليعزّز خط سكة الحديد. وعلى النهاية الشرقية يمتد الحاجز على طول السكة إلى محطة القطار في القرية.

دائماً عُرفت /مانوماجرا/ بمحطتها. وبما أن الجسر يحتوي على سكة واحدة فقد احتوت المحطة خطوطاً جانبية يمكن للقطارات الأقل أهمية أن تنتظر عليها كي تفسح في المجال للقطارات الأهم.

نمتْ حول المحطة مستعمرة من الباعة الجوالين وأصحاب الحوانيت لتزويد المسافرين بالطعام وأوراق التنبول والسجائر والشاي والبسكويت والحلوى مما يعطي المحطة مظهر حركة ونشاط دائمين ويعطي طاقمها إحساساً بالأهمية زائداً عن الحقيقة. في الواقع، مدير المحطة نفسه يبيع البطاقات من خلال كوى في مكتبه ويجمعها عند المخرج بجوار الباب ويرسلها ويستلم الرسائل من التلغراف الكاتب الذي على طاولته. وحين يوجد من يلاحظه فإنه يخرج إلى الرصيف ويلوح براية خضراء لقطارات لاتتوقف. يقوم مساعده الوحيد بمعالجة العتلات من القمرة الزجاجية على الرصيف التي تتحكم بالشارات على كلا الجانبين ويساعد القاطرات المحوَّلة بأن يغير ذراع التحويل على السكة لكي تعبر القاطرات إلى الخطوط الجانبية. وفي المساءات يضيء الخط الطويل من المصابيح على الرصيف. يأخذ مصابيح ثقيلة من الألمنيوم إلى الشارة ويثبتها في الملازم خلف الزجاج الأحمر والأخضر، وفي الصباحات يعيدها ويطفئ الأضواء على الرصيف.

ليست كثيرة القطارات التي تتوقف في /مانوماجرا/. قطارات الاكسبرس لاتتوقف إطلاقاً. ومن بين قطارات الركاب البطيئة يتوقف قطاران فقط لبضع دقائق. الأول من دلهي إلى لاهور في الصباحات والثاني من لاهور إلى دلهي في المساءات. أما بقية القطارات فتتوقف حين يعاق سيرها فقط، وحدها قطارات البضائع زبائن منتظمة. رغم أنه من النادر أن يكون لمانوماجرا أية بضائع ترسلها أو تستلمها، فإن صفوفاً طويلة من العربات تشغل عادةً الخطوط الجانبية من محطتها. كل قطار بضائع عابر يقضي ساعات يترك عربات ويلتقط أخرى. بعد حلول الظلام، حين ينغمس الريف في الصمت، يمكن سماع صفير القاطرات ولهاثها واصطدام الصادّات وقرقعة تحويل السكك طوال الليل.

كل هذا جعل للقطارات حضوراً كثيفاً في وعي /مانوماجرا/. فقبل أن ينبلج النهار يندفع قطار البريد في طريقه إلى لاهور وحين يقترب من

الجسر يطلق السائق صفرتين طويلتين على نحوٍ لاتغيُّر فيه. وماهي إلا لحظة واحدة حتى ترى مانوماجرا وقد استيقظت بمجملها. تبدأ الغربان بالنعيب في أشجار الكيكار، وتعود الخفافيش طائرة في سباقات طويلة صامتة وتبدأ العراك من أجل مجاثم لها في شجرة التين. ويعرف الملّا في المسجد أن صلاة الصباح قد حانت. يغتسل بسرعة ويتّجه إلى الغرب مستقبلاً مكه ويضع أصابعه في أذنيه ويصرخ بصوت عال ممطوط (الله أكبر). وفي المعبد السيخي يستلقي الكاهن في السرير إلى أن ينتهي الملّا، عندئذٍ ينهض هو بدوره، يسحب دلواً من الماء من البئر الكائنة في فناء المعبد، يصبّه على نفسه ويرتّل صلاته بنغمٍ رتيب على صوت تساقط الماء.

مع حلول الساعة العاشرة والنصف صباحاً يصل قطار المسافرين من دلهي حيث تكون الحياة في /مانوماجرا/ قد استقرّت على روتينها اليومي البليد. الرجال في الحقول والنساء منهمكات في أعمالهن اليومية والأولاد يرعون القطيع بجوار النهر. والنواعير تئنُّ مع دوران الثيران المخصيّة التي تحثّها الشتائم ووخزات المهاميز في أكشاحها. السنونوات تحوم فوق الأسطحة والقش يتدلّى من مناقيرها. الكلاب المقروحة تسعى إلى ظلّ الجدران الطينية الطويلة. تسوّي الخفافيش منازعاتها وتطوي أجنحتها وتدلي نفسها للنوم.

مع مرور اكسبرس منتصف النهار تتوقف مانوماجرا كي تستريح. يعود الرجال والأولاد إلى منازلهم من أجل الغداء وساعة القيلولة. بعد تناول الغداء يتجمع الرجال في ظل شجرة التين ويجلسون على المصاطب الخشبية يتحدثون ويتركون أنفسهم للنعاس، في حين يمتطي الأولاد جواميسهم عبر البحيرة ويقفزون عن ظهورها ويتساقطون في المياه الموحلة. البنات يلعبن تحت الشجرات والنساء يفركْن شعور بعضهن البعض بزبدةٍ مصفاة، ويفلّين رؤوس أطفالهن ويتحادثن حول المواليد والزيجات والوفيّات.

حين يصل قطار المسافرين المسائي من لاهور ينهض الجميع إلى العمل من جديد، يجمعون القطيع ويعيدونه إلى المنازل من أجل الحلب ثم الحجز في الليل، النساء يطبخن وجبة المساء ثم تجتمع العائلات على أسطحة المنازل حيث ينام معظمهم في الصيف، يأكلون وهم جالسون على أسرّتهم عشاءهم من الخضراوات والشاباتي، ويحتسون الحليب الساخن من كؤوس نحاسية كبيرة ويزجون الوقت إلى أن تحين شارة النوم. عندما يصل قطار البضائع يقول كل منهم للآخر: (وصل قطار البضائع) وذلك بمثابة القول (تصبح على خير). مرّة أخرى يدعو الملّا المؤمنون إلى الصلاة صائحاً بأعلى صوته «الله أكبر»، ومن على سطوحهم يقول المؤمنون (آمين). والقس السيخي يهمهم الصلاة المسائية على نصف دائرة من عجائز نعسانين. ومن أشجار الكيكار تنعب الغربان بصوت خفيض. في الغسق ترفرف الخفافيش الصغيرة في حين تحوم الكبيرة منها في انسياب رشيق بطيء. يمضي قطار البضائع وقتاً طويلاً في المحطة حيث تتحرك القاطرة جيئةً وذهاباً على الخطوط الجانبية في عملية تبديل للعربات. وحين يغادر يكون الأطفال نياماً ويكون الكبار بانتظار طقطقته على الجسر كي تهدهدهم. ثم تسكن الحياة في مانوماجرا ما خلا نباح الكلاب على القطارات التي تعبر في الليل.

دائماً كانت الأمور على هذا النحو إلى أن حلّ صيف ١٩٤٧ .

* * *

ذات ليل من ليالي آب من تلك السنة، انبثق خمسة رجال من أيكه كيكار على مقربة من /مانوماجرا/ واتجهوا نحو النهر بصمت. لقد كانوا لصوصاً أو سرّاقين محترفين. وكانوا مسلحين جميعاً باستثناء واحد منهم. اثنان مسلحان بالرماح واثنان بالبنادق والخامس يحمل بيلاً كهربائياً مصفحاً بالكروم. حين بلغوا الحاجز أضاء هذا البيل ثم أصدر صوت شخير من أنفه وأطفأه.

ـ (سننتظر هنا) قال.

ألقى نفسه على الرمل وقرفص حوله الباقون مستندين إلى أسلحتهم. نظر الرجل الذي يحمل البيل إلى أحد حاملي الرماح:

ـ هل معك الخلاخل من أجل جوغا؟

ـ نعم. دزينة من الزجاج الأزرق والأحمر. خلاخل تسرّ أية بنت قروية.

ـ (لكنها لن تسرّ جوغا) قال أحد حاملي البنادق.

ضحك القائد. رمى البيل في الهواء وأمسكه. ثم ضحك من جديد ورفع البيل إلى فمه وأضاءه. شعّت وجنتاه بلون وردي من الضوء الذي في الداخل.

ـ (باستطاعة جوغا أن يعطي الخلاخل لصاحبته ابنة الحائك) قال حامل الرمح الآخر (ستبدو الخلاخل جميلة مع عيني الغزال الكبيرتين تينك ومع النهدين الصغيرين كحبات المنجا. ترى ما اسمها؟)

أطفأ القائد البيل وأخرجه من فمه.

ـ (نوران)، قال.

ـ (أهّوو) قال حامل الرمح (نوران. ألم تشاهدها في معرض الربيع؟ ألم ترَ ذاك الثوب المشدود الذي يبرز نهديها وتلك الأجراس التي ترنّ في ضفائر شعرها والحرير المهفهف؟ يا اه!)

ـ (يا اه!) قال حامل الرمح الذي معه الخلاخل (يا اه! ياه!).

ـ (لابد أنها تمنح جوغا وقتاً طيباً) قال حامل البندقية الذي لم يكن قد تكلم بعد (خلال النهار تبدو بريئة جداً حتى أنك تعتقد أنها لم تطرح أسنانها اللبنية بعد) تنهّد (ولكن في الليل، تضع الاثمد في عينيها).

ـ (الاثمد جيد للعيون) قال أحدهم (إنه يبرّد).

ـ (إنه أيضاً جيد لعيون الآخرين ويبرّد عواطفهم أيضاً) قال حامل البندقية.

ـ (جوغا؟) قال القائد.

ضحك الآخرون. وفجأة تجلّس أحدهم.

ـ (اسمعوا!) قال (إنه قطار البضائع).

توقف الآخرون عن الضحك وأصغوا في الصمت إلى اقتراب القطار الذي توقف مصدراً طقطقة. أنّت العربات وصرّت. بعد حين سمع صوت القاطرة تتحرك جيئةً وذهاباً تحرّر العربات. كان ثمة انفجارات قوية لدى اصطدام العربات المحررة مع تلك التي على الخطوط الجانبية. عادت القاطرة إلى القطار.

ـ (إنه الوقت المناسب لزيارة /رام لال/) قال القائد وهبَّ واقفاً.

نهض رفاقه ونفضوا الرمل عن ملابسهم. شكلوا صفاً وأيديهم مضمومة للصلاة. تقدمهم أحد حاملي البنادق وابتدأ يهمهم. وحين انتهى سجد الجميع ومسحوا جباههم على الأرض. بعدئذٍ نهضوا وتلثّموا بالنهاية الحرّة من عمائمهم فلم يبدُ منهم سوى العيون. أطلقت القاطرة صفرتين طويلتين وتحرك القطار صوب الجسر.

ـ (الآن) قال القائد.

تبعه الآخرون إلى أعلى الحاجز ثم عبر الحقول. مع وصول القطار الجسر كان الرجال قد التفّوا حول البحيرة واستلموا الدرب المؤدي إلى مركز القرية. وصلوا منزل /لالا رام لال/. أشار القائد إلى أحد حاملي البنادق برأسه فتقدم هذا وراح يضرب الباب بأخمص بندقيته:

ـ (وي! لالا!) صاح.

لم يتلقوا أي جواب. تجمعت كلاب القرية حول الزوّار وراحت

تنبح. أحد الرجال ضرب كلباً بالجانب المسطح من رمحه وآخر أطلق رصاصةً في الهواء. هربت الكلاب وهي تزقو، وصلت إلى مكان آمن وأخذت تنبح بصوت أعلى.

ابتدأ الرجال يطرقون الباب بأسلحتهم.

أحدهم ضرب الباب برمحه فاخترقه صائحاً:

ـ افتح يا ابن الزنا وإلا سنقتلكم جميعاً.

ـ (من يريدنا في هذه الساعة؟ لالاجي ذهب إلى المدينة) أجاب صوت امرأة.

ـ (افتحي وسنقول لك من نحن أو أننا سنحطّم الباب) قال القائد.

ـ أقول لكم أن لالاجي ليس هنا. وقد أخذ المفاتيح معه. وليس عندنا أي شيء في البيت.

وضع الرجال أكتافهم على الباب وضغطوا، تراجعوا ثم اندفعوا إليه معاً كالمِدَكِّ. طقطق المزلاج الخشبي على الجانب الآخر وانفتح الباب دفعةً واحدة. انتظر أحد الرجال ببندقيته على الباب، ودخل الأربعة الآخرون. كان ثمة امرأتان مقرفصتان في إحدى زوايا الغرفة وطفل في السابعة من عمره بعينين سوداوين كبيرتين يتمسك بالمرأة الأكبر سناً.

ـ (لأجل اسم الإله، خذوا كل ما لدينا، كل جواهرنا، كل شيء) توسّلت المرأة الأكبر سناً ومدت يدها بحفنة من الأساور والخلاخيل والأقراط الذهبية والفضية.

انتزع أحد الرجال هذه الحلي من يدها.

ـ أين لالا؟

ـ أقسم لكم بالغورو(*) أنه في الخارج. لقد أخذتم كل ما لدينا وليس

(*) الغورو: معلم أو مرشد عقلي في المسائل الأساسية. وهو لقب البطارقة العشرة الأوائل عند السيخ. (م)

لدى لالاجي أكثر من هذا كي يعطيكم.

ثمة أربعة أسرّة موضوعة على نسق في الفناء.

انتزع أحد الرجال الطفل من حضن جدته وصوّب فوهة البندقية إلى وجهه فرمت المرأة نفسها على قدميه متوسلة.

ـ لاتقتل يا أخي. لأجل اسم الغورو لاتقتل.

رفسها الرجل بعيداً.

ـ أين أبوك؟

تمتم الطفل وقد صعقه الخوف (فوق)

دفعه الرجل بعنف إلى حضن المرأة ثم خرج الرجال إلى الفناء وصعدوا السلم. يوجد على السطح غرفة واحدة فقط. دونما إبطاء وضعوا أكتافهم على الباب ودفعوا معاً، فانخلع من مفاصله. كانت الغرفة مزدحمة بصناديق فولاذية مكوّمة فوق بعضها البعض وفيها سريران عليهما عدة لُحُف مطوية. بحث الشعاع الأبيض للبيل في أرجاء الغرفة وأمسك بالمرابي مقعياً تحت أحد الأسرة.

ـ (لأجل الغورو، لالاجي في الخارج) قال أحد الرجال مقلّداً صوت المرأة وجرّ /رام لال/ من ساقيه.

صفع القائد المرابي بظاهر يده (أبهذه الطريقة تعامل ضيوفك؟ نأتي فنراك مختبئاً تحت السرير).

غطّى /رام لال/ وجهه بذراعيه وشرع يزقو.

ـ أين مفاتيح الخزنة؟ سأل القائد رافساً إياه على مؤخرته.

ـ (خذ كل المجوهرات والنقود ودفاتر الحساب. لاتقتل أحداً) توسّل المرابي ممسكاً قدمي القائد بيديه.

ـ أين مفاتيح الخزنة؟ كرر القائد ورفس المرابي الذي كان يدبّ على الأرض.

جلس رام لال يهزه الخوف.

أخرج لفّة أوراق مالية من جيبه (خذوا هذه) قال موزعاً المال على الرجال الخمسة (إنها كل ما في البيت. كله لكم).

ـ أين مفاتيح الخزنة؟

ـ (ليس في الخزنة سوى دفاتر الحساب. لقد أعطيتكم كل ما أملك. كل ما أملك. لأجل اسم الغورو، دعوني أحيا) وأطبق على ساقي القائد فوق الركبتين وأخذ ينشج (لأجل اسم الغورو! لأجل اسم الغورو!).

انتزع أحد الرجال المرابي بعيداً عن القائد وضربه بعقب بندقيته على صفحة وجهه.

ـ (ياي!) صرخ رام لال بأعلى صوته وبصق دماً.

سمعت المرأتان الصرخة وابتدأتا تزعقان)(داكو! داكو!) وفي كل مكان كانت الكلاب تنبح ولكن لم يتحرك قروي واحد من منزله.

تلقى المرابي على سطح منزله الضرب بأعقاب البنادق ومقابض الرماح والرفس والنخس. جلس على كفليه يبكي ويبصق دماً. تحطمت اثنتان من أسنانه ولكنه لم يرضَ أن يسلّم مفاتيح الخزنة. وبمحض الغضب اندفع أحد الرجال حاملاً رمحه على الشخص المقرفص. أطلق رام لال صرخة مدوية وانهار على الأرض والدم يتدفق من كرشه. خرج الرجال. أحدهم أطلق رصاصتين في الهواء. كفت المرأتان عن العويل والكلاب عن النباح. كانت القرية صامتة.

قفز اللصوص عن السطح إلى الدرب وصرخوا بتحديهم إلى العالم وهم ماضون باتجاه النهر:

ـ هيا! اخرجوا إذا كانت لديكم الشجاعة! اخرجوا إذا أراد أحدكم أن تُغتصب أمه أو أخته! اخرجوا أيها الشجعان!

لم يجبهم أحد، لم يكن ثمة صوت في مانوماجرا. مضى الرجال في طريقهم صارخين ضاحكين إلى أن وصلوا مسكناً صغيراً على حافة القرية. توقف القائد وأشار إلى صاحب الرمح.

ـ هذا هو بيت جوغا العظيم، لاتنس هديتنا. أعطه خلاخله.

أخرج صاحب الرمح صرة من ملابسه وألقاها من فوق الحائط. كان ثمة صوت تحطم زجاج مكتوم في الفناء.

ـ (جوغيا!) صاح بصوتٍ عالٍ (جوغيا!) وغمز إلى أصحابه (البس هذه الخلاخل يا جوغيا. البس هذه الخلاخل وضع الحنّة على راحتيك).

ـ أو قدّم هذه الخلاخل هدية إلى ابنة الحائك. صرخ أحد حاملي البنادق.

ـ (هاي) صرخ الآخرون وراحوا يلمّظون محدثين أصوات قبلات شهوانية طويلة (هاي! هاي!).

مضوا على طول الطريق باتجاه النهر وهم لايزالون يضحكون ويصدرون أصوات القُبل. لم يأتهم الرد من جوغو سينج، فهو لم يسمعهم إذ أنه لم يكن في المنزل.

* * *

كان جوغا سينج قد غادر منزله منذ ساعة. غادر قبيل أن يعلن قطار بضائع الليل أن الذهاب بات آمناً. فبالنسبة له، كما للصوص، كان وصول قطار البضائع بمثابة إشارة. سمع جوغا صوت طقطقة من بعيد فانسلّ من سريره، تناول عمامته ولفّها حول رأسه ومشى على رؤوس أصابعه عبر الفناء إلى المتبن واستلّ رمحاً ثم عاد على رؤوس أصابعه إلى السرير، التقط حذاءه وزحف نحو الباب.

– إلى أين تذهب؟

توقف جوغا سينج. إنها أمه.

– (إلى الحقول. الخنازير البرّية أحدثت ضرراً كبيراً الليلة الماضية)، قال.

– (خنازير! لاتحاول أن تكون ذكياً. هل حان لك أن تنسى أنك تحت الاختبار، يعني أنت ممنوع من مغادرة القرية بعد غياب الشمس؟ ومعك رمح! سوف يراك الأعداء ويبلغون عنك ويعيدونك إلى السجن) ارتفع صوتها حتى صار عويلاً: (عندها من سيعتني بالمحاصيل والمواشي؟).

– (لن (أتأخر) قال جوغوت سينج (لاداعي للقلق، كل سكان القرية نيام)

– كلا. قالت أمه وانتحبت من جديد.

– اخرسي! أنت التي ستوقظين الجيران. اهدَئي أنت ولن تكون هناك مشكلة.

– اذهب! اذهب إلى حيث تشاء. إذا أردت أن ترمي نفسك في بئر، ارمها. إذا أردت أن تُشْنَق مثل أبيك، افعل. أنا نصيبي أن أبكي. هذه قسمتي)(*) أضافت وهي تلطم جبهتها (هذا مكتوب هنا على جبيني).

فتح جوغوت سينج الباب ونظر إلى اليمين والشمال. لم يكن ثمة أحد. سار على طول الحائط إلى أن وصل نهاية الطريق قرب البحيرة، رأى الأشكال الرمادية لزوج من اللقالق يخطر جيئةً وذهاباً في الوحل بحثاً عن الضفادع. توقفا عن بحثهما. انتصب جوغوت سينج بلا حراك إزاء الحائط إلى أن اطمأن اللقلقان، عندئذٍ مضى في المدق عبر الحقول صوب النهر. عَبَر السرير الرملي الجاف إلى أن وصل مجرى الماء. غرس رمحه في

(*) هكذا في الأصل.

الأرض، الشفرة إلى الأعلى، وتمدّد على الرمل. كان مستلقياً على ظهره يحدّق إلى النجوم. انطلق شهاب عبر درب التبان مخلّفاً أثراً فضياً في السماء الزرقاء الداكنة. فجأة حطّتْ يدٌ على عينيه.

ـ احزر من؟

مدّ جوغوت سينج يديه فوق رأسه ووراءه متلمساً، تفادتهما الفتاة. ابتدأ جوغوت من اليد التي على عينيه وتحسس طريقه إلى الذراع ثم الكتف ثم الوجه. داعب وجنتيها وعينيها وأنفها. كانت يده تعرف هذه الملامح جيداً. حاول أن يداعب شفتيها ليغريهما بتقبيل أصابعه. فتحت الفتاة فاها وعضّته بقوة. نتَر جوغا سينج يده بعيداً، وبحركة سريعة أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وجلب وجهها قرب وجهه، ثم أنزل ذراعيه إلى ما دون خصرها ورفعها فوقه في الهواء في حين راحت هي ترفس بقدميها ويديها كالسلطعون. أدارها في الهواء حتى آلمته ذراعاه، ثم أنزلها عليه تماماً، طرفاً على طرف.

صفعته الفتاة على وجهه.

ـ تمد يدك إلى جسم امرأة غريبة. أما عندك أم؟ أما عندك أخت في البيت؟ أما عندك حياء؟ لاغرابة أن الشرطة يعتبرونك شخصاً سيئاً. أنا أيضاً سوف أخبر المفتش صاحب أنك بودماش (مجرم).

ـ أنا بودماش معك فقط يا نورو. من المفروض أن يقفلوا علينا معاً في زنزانة واحدة.

ـ لقد تعلمت أن تتكلم كثيراً. علي أن أبحث عن رجل آخر.

لفّ جوغا سينج ذراعيه حولها وسحقها إلى أن عجزت عن الكلام أو التنفس. كلما حاولت أن تتكلم يشدّ ذراعيه حولها فتعلق الكلمات في حنجرتها. استسلمت ووضعت وجهها المجهد على وجهه. وضعها إلى جواره ورأسها يعشش في ثنية ذراعه الأيسر، وبيده اليمنى راح يتحسس شعرها ووجهها.

صفر قطار البضائع صفرتين وشرع يلهث في طريقه صوب الجسر بكثير من الأنين والصرير. طار اللقلقان من البحيرة بصرخات ثاقبة (كراك ـ كراك) واتجّها نحو النهر ومنه طارا عائدين إلى البحيرة صائحين بالتناوب بعد أن مضى القطار عبر الجسر وابتلع الصمت لهاثه بزمن طويل.

باتت مداعبات جوغوت سينج شهوانية. ضلّت يده فنزلت من وجه الفتاة إلى ثدييها ثم إلى خصرها. أمسكت نورو بيده وأعادتها إلى وجهها. صار تنفّسه أبطأ وأكثر حسية. تحولت يده مرة أخرى ومسحت ثدييها كما لو بالخطأ صفعته الفتاة على يده وأبعدتها. مدّ ذراعه الأيسر الذي يستلقي تحت رأسها وأمسك يدها المؤنّبة. كانت ذراعها الأخرى تحته سلفاً. فغدت الفتاة بلا دفاعات.

ـ (لا! لا! لا! اترك يدي! لا! لن أتكلم معك ثانية) أمالت رأسها بعنف من جانب إلى آخر محاولةً أن تتفادى فمه الجائع.

دسّ جوغوت سينج يده داخل ثوبها وشعر بحدود ثدييها اللذين بلا حماية توتّرا. غدت الحلمتان صلبتان ومرنتان. تحركت يداه الخشنتان إلى الأعلى والأسفل بين ثدييها وسرّتها. اقشعرّ جلد بطنها.

واصلت الفتاة تتلوى وتحتج.

ـ لا! لا! رجاءً. لتنزل لعنة الله عليك. اترك يدي. لن أقابلك ثانيةً إذا تصرفت على هذا النحو.

بحثت يد جوغوت وعثرت على إحدى نهايتي تكّة سروالها فسحبها بسرعة.

ـ (لا) صرخت الفتاة بصوت أجش.

رنّت عبر الليل طلقه. هبّ اللقلقان طائرين وصائحين كل للآخر. وفي أشجار الكيكار ابتدأت الغربان بالنعيب. توقف جوغوت سينج ونظر إلى القرية عبر الظلام. خلّصت الفتاة نفسها بهدوء من قبضته وسوّت

ثوبها. استقرّت الغربان ثانيةً على الأشجار وابتعد الطائران عبر النهر، فقط، الكلاب كانت تنبح.

ـ (يبدو أنها رصاصة بندقية) قالت بعصبية محاولةً أن تبعده عن معاودة ممارسة الحب (ألم تصدر الطلقة من القرية؟).

ـ (لا أدري. لماذا تحاولين الهرب؟ كل شيء هادئ الآن) وشدّها إلى جواره.

ـ ليس هذا وقت المزاح. هناك جريمة قتل في القرية. سوف يستيقظ أبي وسيفتقدني وبلا ريب سيسعى إلى معرفة أين ذهبت. يجب أن أعود حالاً.

ـ لا، لن تعودي. لن أسمح لك. يمكنك أن تقولي أنك كنت عند إحدى صديقاتك.

ـ لاتتكلم كفلاح غبي. كيف...

أغلق فمها بفمه وجثم عليها بثقله الهائل، وقبل أن تستطيع تحرير ذراعيها فكّ تكّة سروالها مرة أخرى.

ـ دعني أذهب. دعني...

لم تستطع أن تصارع القوة الحيوانية لجوغوت سينج. وفي الواقع لم تكن تريد فقد ضاق عالمها واقتصر على ايقاع صوت تنفسه والرائحة الدافئة للبشرتين الداكنتين وقد بلغتا حرارة الحمى. جالت شفتاه فوق عينيها ووجنتيها وسعى لسانه داخل أذنها. وبحالة هياج غرزت أظافرها في وجنتيه اللتين يعلوهما زغب ناعم وعضّت أنفه. دخلت النجوم من فوقها في دوامة مجنونة ثم عادت إلى أماكنها كدوامة الخيل التي تتوقف ببطء. وعادت الحياة إلى مستوى لها أكثر برودةً وانحطاطاً. شعرت بالوزن الميت لرجلٍ بلا حياة. شعرت بالرمل يصرّ في شعرها وبالنسمة تنتهك حرمة أطرافها العارية وبالنظرة المؤنِّبة التي تلقيها عليها آلاف النجوم. دفعت جوغوت سينج عنها. فاستلقى إلى جوارها.

ـ (هذا هو كل ما تريد. وقد حصلت عليه. إنك مجرد فلاح. دائماً تريد أن تبذر بذورك. تريد ذلك حتى ولو كان العالم في طريقه إلى النار، حتى عندما يلعلع الرصاص في القرية أليس كذلك؟) تذمّرتْ.

ـ (لا أحد يطلق النار. هذا خيالك فقط) أجاب جوغوت سينج بملل، دون أن ينظر إليها. تناهت إليهما أصوات عويل خافتة من جهة النهر. جلسا يصغيان. دوّت طلقتان متعاقبتان. طارت الغربان من أشجار الكيكار وهي تنعب خائفة. ابتدأت الفتاة تبكي.

ـ شيء ما يجري في القرية. سيستيقظ أبي ويعلم أنني خرجت. سوف يقتلني.

لم يكن جوغا سينج يستمع إليها. لم يدر ماذا عليه أن يفعل. إذا عُلم غيابه عن القرية فسيقع في مشكلة مع الشرطة. لم يقلقه هذا بقدر ما أقلقته المشكلة التي وقعت فيها الفتاة. فقد لاتأتي إليه ثانية. وكانت هي تقول (لن أقابلك مرة أخرى. إذا غفر لي الله هذه المرّة فلن أعيدها ثانية).

ـ هل تسمحين بأن تخرسي قبل أن أصفعك على وجهك؟

ـ ابتدأت الفتاة تنشج. لم تستطع أن تصدّق أن هذا الرجل هو الرجل نفسه الذي كان يمارس معها الحب قبل لحظة.

ـ (اهدئي! أحدٌ ما قادم) همس واضعاً يده الغليظة على فمها.

استلقيا دون حراك وراحا يحدقان في الظلمة. على بعد ياردات قليلة منهما مرّ الرجال الخمسة يحملون بنادق ورماح وقد نزعوا اللُّثم عن وجوههم وراحوا يتحادثون.

ـ داكو! هل تعرفهم؟ سألت الفتاة هامسةً.

ـ (أجل) قال جوغا (الرجل الذي يحمل البيل هو مالي) توتر وجهه (العاشق السفاحي لأخته!) أخبرته ألف مرة أن هذا الوقت غير مناسب للسلب. والآن يأتي مع عصابته إلى قريتي! سأتدبر أمري معه.

مضى اللصوص إلى النهر ثم على طول المجرى باتجاه المعبر على بعد ميلين إلى الجنوب. ثَقَبَ زوجٌ من الزقازيق، الليل الساكن بصرخات مذعورة: تيت تيتو ـ تيتي ـ تي ـ ووت ـ تيي ـ روت ـ تيت ـ ورت.

ـ هل ستبلغ الشرطة عنهم.

ضحك جوغا ضحكةً خافتة (دعينا نعود قبل أن يفتقدوني في القرية).

سارا عائدين إلى /مانوماجرا/، الرجل في المقدمة والفتاة خلفه ببضع خطوات. كان باستطاعتهما سماع صوت العويل ونباح الكلاب. كانت النسوة يصرخن إلى بعضهن البعض عبر الأسطحة. بدا كما لو أن القرية كلها مستيقظة. توقف جوغا قرب البحيرة واستدار كي يكلّم الفتاة.

ـ نورو، هل ستأتين غداً؟ سأل راجياً.

ـ أنت تفكر بالغد وأنا خائفة على حياتي. حتى لو قتلوني لن تكف أنت عن الاستمتاع بوقتك.

ـ (لا أحد يستطيع أن يؤذيك ما دمتُ حياً. لا أحد في مانوماجرا يجرؤ أن يرفع حاجبيه عليك ويفلت مني. أنا بودماش ليس من فراغ). قال بغطرسة: (أخبريني غداً بما يحدث أو بعد غدٍ حين ينتهي كل هذا كائناً ما كان، بعد قطار البضائع).

ـ لا! لا! لا! أجابت الفتاة (ماذا سأقول الآن لأبي؟ من المؤكد أن هذه الضجّة أيقظته.

ـ فقط قولي له أنك خرجت. آلمتك معدتك أو شيء من هذا القبيل. سمعت إطلاق الرصاص فاختبأت إلى أن غادر اللصوص. والآن هل ستأتين بعد غد؟

ـ (لا!) كررت بتصميم أقل هذه المرة، قد يكون العذر ناجعاً. وبخاصة أن أباها شبه أعمى ولن يلاحظ ثوب الحرير الذي ترتديه ولا

الكحل في عينيها. مشت نوران مبتعدةً في الظلمة وهي تقسم أنها لن تأتي ثانية.

مضى جوغا في الدرب إلى منزله. كان الباب مفتوحاً وفي الفناء بضعة قرويين يتكلمون إلى أمه. استدار بهدوء وعاد أدراجه إلى النهر.

لمانوماجرا في الدوائر البيروقراطية أهميةٌ ما نظراً لوجود بيت استجمام للضباط شمال جسر سكة الحديد تماماً. وهو بناء من الآجر الخاكي من طابق واحد بسطحٍ مستوٍ وشرفة تطل على النهر. ينتصب وسط أرض مربعة يسوّرها جدار منخفض. من البوابة إلى الشرفة تمتد طريق يفصلها عن الحديقة صفّ من الآجر على كل جانب، والحديقة عبارة عن فطيرة من الوحل الأملس لاتكسر سطحه أية عشبة، سطح مستوٍ، ولكن ثمة شجيرات ضامرة من الياسمين إلى جوار أعمدة الشرفة وقرب صفّ مساكن الخدم في مؤخرة البناء.

في الأصل تم بناء بيت الاستجمام للمهندس المسؤول عن بناء الجسر وبعد أن انتهى بناء الجسر صار البيت ملكية عامة لكل الضباط ذوي الرتب العالية. وتعود شعبية هذا البيت إلى قربه من النهر. يحيط به من كل الجهات أراضٍ بور يملؤها عشب البمب والدهاك، أو لهيب الغابة. الحجال هنا تنادي أقرانها من طلوع الشمس إلى مغيبها. وحين يتراجع النهر إلى قناته الشتائية ينمو الدّيس في المستنقعات والبِرَك المخلّفة، وتتردد مختلف أنواع الطيور المائية من إوزّ وبط برّي وبط نهري وحَذَف ودجاج الماء إلى هذه الأماكن. وتعجّ البرك بالراهو والمالي والماشير.

خلال شهور الشتاء يرتب الضباط رحلات تتضمّن توقفاً قصيراً في بيت الاستجمام في مانوماجرا. يذهبون بحثاً عن دجاج الماء عند الغروب وعن الحجال في النهار ويصطادون السمك بعد الظهر وفي المساء يذهبون مرّةً أخرى من أجل البط عندما يطير عائداً. في الربيع يأتي الرومانسيون

للتأمل واحتساء الويسكي ورؤية لحاء الدهاك البرتقالي الزاهي والصور الحمراء الغنية لغروب الشمس فوق النهر ولسماع نقيق الضفادع المهدّئ في المستنقعات ونفثات القطارات التي تمر في الجوار ولمراقبة اليراعات تتطاير بين شجيرات القصب لدى بزوغ القمر من تحت قناطر الجسر. أما خلال الاشهر الأولى من الصيف فلايأتي إلى (بيت الاستجمام في مانوماجرا إلا أولئك الذين يبحثون عن العزلة. ولكن ما أن تهطل الأمطار الموسمية حتى يتضاعف الزوار ذلك أن مياه نهر سوتليج لها منظر عظيم ورهيب.

صبيحة اليوم السابق لجريمة السلب في /مانوماجرا/ تم تنظيف بيت الاستجمام لاستقبال ضيف مهم. فالكنّاس غسل الحمامات وكنس الغرف ورش الطريق بالماء. ونَفَض الحمّال(*) وزوجته الغبار عن الأثاث ورتّباه. وفكّ ابن الكنّاس حبل البنكه المعلّقة من السقف ومرّرت عبر ثقب في الجدار بحيث يستطيع أن يسحبه من الشرفة. وكان قد ارتدى مئزراً أحمر جديداً وجلس على الشرفة يربط ويحل العقد في حبل البنكة. من المطبخ جاءت رائحة فروج يُطهى بالكاري.

في الساعة الحادية عشرة قدم على دراجات هوائية مفتش من الشرطة بصحبة شرطيين لمراقبة الترتيبات، ثم وصل عنصران يرتديان بدلات بيضاء وأحزمة حمراء حول الخصر وعمامات بيضاء بعصبة عريضة، ثبت عليها في الأمام الشعار النحاسي لحكومة البنجاب ـ الشمس تشرق فوق خمسة خطوط متموجة تمثل أنهار الاقليم. كان معهما بضعة قرويين يحملون الأمتعة وحقائب الشحن السوداء الرسمية اللامعة.

بعد ساعة وصلت سيارة أميركية رمادية ضخمة. ترجّل عنصر من المقعد الأمامي وفتح الباب الخلفي لسيده. اتخذ المفتش والشرطة هيئة

(*) هكذا يدعون الخادم الذكر في الهند والباكستان (م)

الاستعداد وقدّما التحية. أفسح القرويون مسافة احترام. فتح الحمّال الباب المصنوع من الشاش السلكي المؤدي إلى غرفة الجلوس الرئيسية. جرٌّ هوكوم تشاند، الحاكم والنائب المفوَّض في المقاطعة، جسمه البدين من السيارة. لقد كان في حالة سفر طوال الصباح وكان مرهقاً نوعاً ما ومتيبساً. على شفته السفلى تجثم سيجارة وترسل سيلاً ناعماً من الدخان إلى عينيه. يحمل في يده اليمنى علبة سجائر تنكية وكبريتة. مشى متمهلاً نحو المفتش ومنحه لطمه ودّية على ظهره، في حين ظل الآخر واقفاً في حالة انتباه.

ـ (هيا، مفتش صاحب[*]، ادخل) قال هاكوم تشاند وأخذ اليد اليمنى للمفتش وقاده إلى الغرفة. تبعهما الحمّال والخادم الشخصي للنائب المفوَّض. أما رجال الشرطة فقد ساعدوا السائق في تنزيل الأمتعة من السيارة.

توجه هوكو تشاند مباشرة إلى غرفة الحمام. غسل الغبار عن وجهه وعاد وهو يمسح وجهه بالمنشفة. انتصب المفتش له مرةً أخرى.

ـ اجلس، اجلس، أمره.

رمى المنشفة على سريره وغاص في كرسي بذراعين. ابتدأت البنكة تخفق إلى الأمام والخلف مع صوت احتكاك الحبل وهو يتحرك داخل ثقب في الحائط.

خلع أحد العناصر حذاء الحاكم وجوربيه وراح يدلك له قدميه. فتح هوكو تشاند علبة السجائر التنكيه وقدمها للمفتش الذي أشعل سيجارة الحاكم ثم سيجارته. كشف أسلوب تدخين هوكوم تشاند أصله الذي يعود للفئة الدنيا من أدنى الطبقة الوسطى، إذ راح يمجّ سيجارته بصوت مسموع

(*) Sahib لقب احترام للذكور ذو أصلٍ عربي يستخدم في الهند ويأتي بعد الاسم أو المهنة. فضّلنا استخدامه كما هو بدلاً من اللجوء إلى كلمة «سيد» حفاظاً على شيء من النكهة. (م)

وفمه ملصوق إلى قبضته المطبقة. وكان ينفض رماد السيجارة مفرقعاً أصابعه بحركة متكلِّفة. أما المفتش الذي كان أصغر منه سناً فقد كان لديه أسلوب أكثر تطوراً.

ـ حسناً، مفتش صاحب، كيف الأمور؟

ضمّ المفتش يديه (الحمد للإله. لانصلّي إلا من أجل لطفكم).

ـ ألا يوجد اضطراب طائفي في هذه المنطقة؟

ـ لقد نجونا من ذلك حتى الآن يا سيدي. وصلتنا قطارات من اللاجئين السيخ والهندوس من الباكستان وهاجر بعض المسلمين ولكننا لم نشهد أية حوادث.

ـ (ألم تصل إلى هذا الجانب من الحدود قطارات من السيخ القتلى؟ لقد وصلت قطارات من هذا النوع إلى /أمريستار/ ليس فيها إنسان حي! وحدثت أعمال قتل هناك) رفع هوكو تشاند يديه وتركهما تسقطان ثقيلتين على فخذيه بحركة إذعان. طارت من سيجارته شرارة وحطت على بنطاله فهبَّ المفتش بسرعة خانعة ونفضها إلى أن انطفأت.

ـ (أتعلم) تابع الحاكم (انتقم السيخ بأن هاجموا قطاراً من اللاجئين المسلمين وأرسلوه عبر الحدود وعلى متنه أكثر من ألف جثة؟ ثم كتبوا على القاطرة «هدية إلى الباكستان!».

خفض المفتش رأسه مفكراً وأجاب.

ـ يقولون أن هذه هي الطريقة الوحيدة لايقاف القتل الجاري على الجانب الآخر. رجل مقابل رجل، امرأة مقابل امرأة، طفل مقابل طفل. لكننا نحن الهندوس لسنا كذلك. نحن لانستطيع بالفعل أن نلعب لعبة الطعن هذه. حين يتعلق الأمر بمعركة مفتوحة نحن أهل لها ضد أي شعب كان. أعتقد أن جماعتنا في (R.S.S) يهزمون العصابات المسلمة في كل المدن. السيخ لايقومون بنصيبهم. لقد فقدوا رجولتهم. فقط، كلامهم

كبير. لدينا هنا على الحدود مسلمون يعيشون في قرى سيخية كأن شيئاً لم يحدث. المؤذن يدعو إلى الصلاة صباح مساء في قلب قرية مثل /مانوماجرا/. تسأل السيخ لماذا تسمحون بذلك يجيبونك أن المسلمين اخوتهم. أنا متأكد أنهم يكسبون مالاً من ورائهم).

مرّر هوكوم تشاند أصابع يده عبر جبهته المتراجعة إلى شعره.

ـ هل هناك أحد من المسلمين في هذه المنطقة ميسور الحال؟

ـ قلائل سيدي، معظمهم حائكون وخزّافون.

ـ لكن يقال أن مخفر الشرطة في /تشوندونوغر/ مدهن. هناك الكثير من جرائم القتل ومن صناعة الخمور السرّية، والفلاحون السيخ أغنياء. لقد بنى من سبقك في هذا المنصب بيوتاً لهم في المدن.

ـ سعادتكم تسخر مني.

ـ أنا لا أبالي أن تأخذ ماتأخذ ولكن بحدود العقل طبعاً ـ الجميع يقوم بذلك فقط كن حذراً. الحكومة الجديدة هذه تتكلم بصوت مرتفع عن قمع كل هذا. بعد شهور قليلة ستبرد حماستهم في الحكومة وتعود الأمور إلى سابق عهدها. ليس من السهولة تغيير الأحوال بين عشية وضحاها.

ـ لايحق لهم أن يتكلموا. اسأل أي قادم من دلهي وسوف يخبرك أن حواريي غاندي هؤلاء جميعاً يطبعون العملة. إنهم قدّيسون أتقياء كالغرنوق تماماً. يغمضون أعينهم بورع ويقفون على ساق واحدة كممارس اليوغا الذي يستغفر، وما أن تقترب سمكة منه، حتى هُبْ... يلتقطها).

أمر هوكوم تشاند الخادم الذي يدلك له قدميه أن يحضر لهما البيرة. وحالما أصبحا وحيدين وضع يداً ودودةً على ركبة المفتش:

ـ (أنت تتكلم بطيش مثل ولد. سيسبب لك هذا مشكلة يوماً ما. يجب أن يكون مبدؤك أن ترى كل شيء وتسكت عن كل شيء. العالم

يتغير بسرعة كبيرة بحيث أنه إذا أردتَ أن تصعد فليس بمقدورك أن تلتزم بشخص ما أو وجهة نظر. حتى حين يكون لديك مشاعر قوية تجاه شيء ما، تعلّم أن تصمت).

أدفأ العرفان قلب المفتش الذي أراد أن يحضّ الحاكم على نصائح أبوية أكثر بالمزيد من النقد الطائش. فقد علم أن هوكوم تشاند يشاطره الرأي.

ـ أحياناً، يا سيدي، لايستطيع المرء أن يكبح نفسه، ماذا تعلم قلنسوات غاندي في دلهي عن البنجاب؟ إن ما يجري على الجانب الآخر في الباكستان لايهمهم. فهم لم يفقدوا بيوتهم وممتلكاتهم ولم تغتصب أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ويقتلْن في الشوارع. هل سمعت سيادتكم بالذي فعله الرعاع المسلمون مع اللاجئين الهندوس والسيخ في أسواق / شيخوبورا/ و/غوجرانوالا/؟ ساهم الجيش والشرطة الباكستانية في القتل. لم يتركوا أحداً على قيد الحياة. النساء قتلْن أطفالهن ورَمَيْنَ أنفسهن في الآبار المترعة بالجثث.

ـ (هاري رام، هاري رام) أجاب هوكوم تشاند بتنهيدة عميقة (أعرف كل ذلك. هكذا هن نساؤنا الهندوسيات، طاهرات إلى حد أنهن يفضلْن الانتحار على أن يمسّهن غريب. نحن الهندوس لانرفع يدنا على امرأة، لكن هؤلاء المسلمين لايحترمون الجنس الضعيف. ولكن ماذا علينا أن نفعل بهذا الشأن؟ كم سيطول الأمر قبل أن تندلع هنا؟

قال المفتش مستشعراً:

آمل ألّا تصل قطارات الجثث إلى مانوماجرا. سيكون من غير الممكن منع الانتقام. عندنا مئات القرى المسلمة الصغيرة في المنطقة وهناك بعض العائلات المسلمة في كل قرية سيخية مثل مانوماجرا.

مصّ هوكوم تشاند سيجارته بصوت مسموع وفرقع أصابعه:

ـ (علينا أن نحمي القانون والنظام) أجاب بعد تفكير (إذا أمكن فليرحل المسلمون بسلام. إهراق الدم ليس في صالح أحد. الشخصيات الفاسدة ستنهب كل شيء والحكومة ستلومنا على القتل. لا، مفتش صاحب، مهما تكن وجهات نظرنا ـ الإله وحده يعلم ماذا كنت سأفعل لهؤلاء الباكستانيين لو لم أكن موظفاً حكومياً ـ يجب ألّانسمح بالقتل أو تدمير الممتلكات. فليرحلوا، ولكن احرص ألّا يأخذوا معهم الكثير من ملكياتهم فالهندوس جُرّدوا من ممتلكاتهم قبل أن يسمح لهم بمغادرة الباكستان. صار الحكام الباكستانيون مليونيريين بين عشية وضحاها. ولم يقصّر البعض من جانبنا أيضاً. فقط حين يجري قتل أو إحراق تقوم الحكومة بتعليق وظائفهم أو نقلهم. يجب ألّا يحدث قتل. مجرد إخلاء سلمي.

أحضر الخادم زجاجة بيرة ووضع كوبين أمام المفتش والسيد هوكوم تشاند. أمسك المفتش كوبه ووضع كفّه عليه محتجّاً.

ـ لا يا سيدي. لايمكن أن أكون وقحاً وأشرب في حضرتكم.

رفض الحاكم الاحتجاج على نحو باتّ:

ـ لابد أن تشاركني. هذا أمر. أيها الخادم املأ كوب المفتش صاحب وضع الغداء.

حمل المفتش الكوب كي يملأه الخادم: (إذا كان هذا أمر منك فلا يمكنني العصيان) وابتدأ يسترخي. خلع عمامته ووضعها على الطاولة. لم تكن تشبه العمائم السيخية التي تحتاج إلى إعادة ربط كلما خلعت، كانت عبارة عن ثلاث ياردات من الموسلين الخاكي المنشّى ملفوفاً حول قلنسوة زرقاء يمكن وضعها وخلعها كالقّبعة.

ـ كيف هو الحال في مانوماجرا؟

ـ كل شيء على ما يرام حتى الآن. اللامباردار يزودنا بالتقارير أولاً بأول. لم يصل أي لاجئين إلى القرية بعد. أنا واثق أنه لا أحد في مانوماجرا

يعلم أن البريطانيين قد رحلوا وأن البلاد انقسمت إلى باكستان وهندوستان. بعضهم يعلم شيئاً ما عن غاندي ولكن أشك أن أحداً منهم قد عرف ولو مجرد سماع بمحمد علي جناح.

ـ جيد. يجب ألّا تغفل عينك عن مانوماجرا فهي القرية الحدودية الأهم لأنها قريبة من الجسر. هل يوجد شخصيات فاسدة في مانوماجرا؟

ـ واحد فقط يا سيدي. اسمه جوغا. فرضت سعادتكم عليه إقامة جبرية في القرية. كل يوم يقوم بإبلاغ اللامباردار عن حضوره ويثبت حضوره لدى مخفر الشرطة كل أسبوع.

ـ جوغا؟ أي منهم؟

ـ لابد أنك تذكر جوغا سينج ابن اللصّ ألام سينج الذي شنق قبل سنتين. إنه ذاك الرجل العملاق، أطول رجل في المنطقة، يصل طوله إلى ستة أقدام بلا شك. كما أنه بدين. إنه يشبه فحلاً من الثيران.

ـ أوه أجل أذكر. ما الذي يمنعه هذه الأيام من الأذى؟ لقد اعتدت أن أراه أمامي لسبب أو آخر كل شهر.

ابتسم المفتش ابتسامة عريضة (سيدي، مافشلت شرطة البنجاب أن تفعله فعله سحر عيني فتاة في السادسة عشرة.

ازداد اهتمام هوكوم تشاند.

ـ له علاقة؟ سأل:

ـ مع ابنة حائك مسلم. إنها سوداء ولكن عينيها أشد سواداً. هي التي تشدّ جوغا إلى القرية بلا شك. لا أحد يجرؤ أن يتفوه بكلمة ضد المسلمين. أبوها شبه الأعمى هو ملّا المسجد.

شربا ودخّنا إلى أن أحضر الحمّال الغداء. ظلّا يأكلان ويشربان ويناقشان الوضع في المقاطعة إلى وقت متأخر من بعد الظهر. ملأت البيرة

والطعام الدسم هوكوم تشاند بالنعاس. أُسدلت الستائر على الشرفة لتصدَّ وهج شمس منتصف النهار وراحت البنكه تخفق بلطف جيئةً وذهاباً بصريرٍ حزينٍ تَعِب. الشعور بخدر النعاس طغى على هوكوم تشاند، فأخذ نكّاشة أسنان فضيّة ونكش أسنانه ثم مسح النكاشة على غطاء الطاولة، حتى هذا لم ينفعه في التغلب على نعاسه. لاحظ المفتش أن الحاكم يكبو فنهض لينصرف.

ـ سيدي، هل تسمح لي بالانصراف؟

ـ إذا أردت أن تستريح يمكنك أن تجد سريراً هنا.

ـ أنت لطيف للغاية يا سيدي، لكن هناك أشياء يجب أن أكون حاضراً عليها في المخفر. سوف أترك شرطيين هنا. إذا أرادت سعادتكم حضوري سوف يبلغاني.

ـ (ماشي) قال الحاكم بتردد (هل رتبت شيئاً للمساء؟).

ـ معقول أن أغفل عن ذلك؟ إذا لم تسعدك فلك أن ترفضني من الخدمة. سأبلغ السائق أين يذهب ويأتي بالفرقة.

حيّا المفتش وانصرف. تمدّد الحاكم على السرير من أجل قيلولة بعد الظهر.

أيقظ صوت السيارة وهي تغادر بيت الاستجمام (البَنْغَل) هوكوم تشاند من نومه. الستائر التي من سوق البمب المعلَّقة على الشرفة طويت بشكل لفائف سويسرية ضخمة وربطت بين العواميد. ازداد اللون الأبيض الناصع للشرفة حسناً في لون الكهرمان اللطيف لغروب الشمس. تكوّم ابن الكنّاس على الأرض القرميدية ممسكاً حبل البنكه بيده. كان أبوه يرش الماء حول البنغل. وصلت رائحة التراب المبلول ممزوجة برائحة الياسمين العذبة عبر الباب المصنوع من الشاش السلكي. أمام البيت كان الخدم قد مدّوا حصيرةً كبيرة من ليف جوز الهند ووضعوا عليها سجادة. وعند إحدى

نهايتي السجادة ثمة كرسي خيزران وطاولة عليها زجاجة ويسكي وزوج من الأكواب وصحون مقبّلات. تحت الطاولة انتصبت عدة زجاجات من ماء الصودا على شكل نسق.

صاح هوكوم تشاند لخادمه كي يحضّر له الحمام ويجلب له ماءً ساخناً للحلاقة. أشعل سيجارة واستلقى على السرير محدِّقاً في السقف. فوق رأسه تماماً رأى وَزَغتين تستعدان للعراك. زحفت كل منهما صوب الأخرى مصدرةً ضجةً ذات صريف. توقفتا تفصلهما مسافة نصف إنش وحركتا ذيليهما بعزيمة مهدِّدة بليدة. ثم اصطدمتا رأساً برأس، وقبل أن يتمكن هوكوم تشاند من الابتعاد سقطتا إلى جوار وسادته تماماً بارتطامٍ قوي. شعور دبق بارد سيطر عليه. قفز من السرير وراح يحدق إلى الوزغتين اللتين بادلتاه تحديقاً بتحديق وهما لاتزالان تمسك إحداهما بالأخرى بالأسنان كما لو في حالة تقبيل. كسر وقع خطا الخادم التحديق المغناطيسي الذي كان يربط بين الحاكم والوزغتين اللتين أسرعتا إلى تحت السرير ثم إلى السقف. شعر هوكوم تشاند كما لو أنه لمس السحليتين وأن يديه اتّسختا. مسح يديه بحافة ثوبه. لم يكن ذاك الوسخ من النوع الذي يمكن تنظيفه بالغسل.

أحضر الخادم ابريق الماء الحار ووضع عدّة الحلاقة على طاولة التزيين ووضع ملابسٍ سيده على كرسي: ثوب من الموسلين الناعم وبنطلون فضفاض ذو تكّة حريرية بلون أزرق مخضرّ موشّاة بخيط من الفضة. فَوْرشَ خفّي الحاكم السوداوين حتى صارا يلمعان ووضعهما بجوار الكرسي.

حلق هوكوم تشاند ذقنه واستحمّ بعناية فائقة. بعد الحمام فرك وجهه وذراعيه بمستحضر جلدي ورشّ نفسه بمسحوق الطَلْق المُعطَّر وغمس أصابعه في ماء الكولونيا. البريليانتين جعل شعره ناعماً ونديّاً وأظهر بياض الشعر عند منابته فهو لم يصبغه منذ أسبوعين. شمّع شاربيه وفتلهما حتى انتصبت نهايتاهما يابستين تشيران إلى عينيه. منابت شاربيه أيضاً ظهرت

أرجوانية وبيضاء. ارتدى قميص الموسلين الناعم الذي أظهر بوضوح قماش صدريته. كانت طيّات البنطلون منتظمة ومنشّاة. مرّر على ملابسه ممسحة قطنية مشبعة برائحة ورد المسك. حين بات جاهزاً نظر إلى السقف كانت الوزغتان تحدقان إليه بعيون سوداء لامعة دقيقة كرأس الدبوس.

عادت السيارة الأميركية واستلمت الطريق المؤدي إلى المبنى. سار هوكوم تشاند إلى الباب المصنوع من الشاش السلكي وهو لايزال يشمّع شاربيه. نزل من السيارة رجلان وامرأتان. أحد الرجلين يحمل أرغُن قَدَمياً والآخر زوجاً من الطبول. إحدى المرأتين كانت عجوزاً بشعر أبيض مصبوغ بحنّة برتقالية. الأُخرى صبيّة فمها منفوخ بورق التنبول وعلى أحد جانبي أنفها المنبسط تلمع ماسة. وكانت تحمل صرّة صغيرة خشخشت لدى ترّجلها من السيارة. مشى أعضاء الفرقة إلى السجادة وقرفصوا عليها.

تفحّص هوكوم تشاند نفسه في المرآة. لاحظ اللون الأبيض لجذور شعره فمرّر يده فوقه وضغطه مرّة أخرى. أشعل سيجارة أخرى وبأسلوبه المعهود حمل علبة السجائر التنكية ومعها الكبريته. شق الباب الشاشي وصرخ للخادم أن يحضر الويسكي التي كان يعلم أنها موضوعة سلفاً على الطاولة ولكن ذلك كان لتنبيه الناس في الخارج إلى قدومه. حين ظهر، ترك الباب ينصفق محدثاً ضجة وسار إلى كرسي الخيزران بخطوات بطيئة مدروسة يوقّعها صرير خفّيهِ اللامعين.

وقف أعضاء الفرقة لتحيته. سلّم الموسيقيان وأخفضا رأسيهما. انطلقت العجوز الدرداء بترنيمه مديح رنّانة: (لتزد شهرتك ومكانتك. وليكتب قلمك أرقام الآلاف، آلاف الآلاف) أما الفتاة فقد اكتفت بأن حدّقت إليه بعينين كبيرتين مكحّلتين بالاثمد وسخام المصابيح. أمرهم الحاكم أن يجلسوا بحركةٍ من يده. فانخفض صوت العجوز إلى مايشبه الصأي. وجلسوا أربعتهم على السجادة.

صبّ الخادم الويسكي والصودا لسيده. أخذ هوكوم تشاند رشفة

كبيرة ومسح شاربيه بظاهر يده، وفتل النهايتين المدببتين بعصبية. فتحت الفتاة صرّتها وارتدت الخلاخل في كاحليها. عزف صاحب الأرغن لحناً منفرداً وأخذ مرافقه يقرع الطبول على حوافها بمطرقة صغيرة ويشدّ ويرخي الأربطة الجلدية وهو يطرق حلقه من الكتل الخشبية المحشورة بينها. ضرب الجلد الأبيض المشدود بأصابعه إلى أن توافقت الطبول مع الأرغن. باتت المرافقة جاهزة.

بصقت الفتاة لعاب التنبول ونظفّت حنجرتها بسلسلة من السعلات الصدرية العميقة التي أخرجت بلغماً. قال العجوز (يا راعي الفقراء. بماذا ترغب سيادتكم؟ شيء كلاسيكي ــ بوكا ــ أم أغنية حب؟).

ــ لا، لاشيء بوكا. شيء من الأفلام. أغنية فيلم جميلة بنجابية تماماً.

حيّتْ الفتاة: (كما تأمر).

قارب الموسيقيان رأسيهما وبعد مشاورة قصيرة مع الفتاة ابتدأا العزف. ضربت الطبول قرعاً إيقاعياً استهلالياً ثم خفضت صوتها لينضّم إليها الأرغن. عزفا معاً لبعض الوقت بينما الصبية جالسة صامتة يبدو عليها الملل واللامبالاة. حين أنهيا القطعة الاستهلالية نظّفت أنفها وحنجرتها ثانية. وضعت يدها اليسرى على أذنها ومدّت الأخرى باتجاه الحاكم مخاطبةً إياه بصوت حاد:

يا حبيبي، يا حبيبي الذي غاب
أنا أحيا ولكني أفضّل الموت
أنا لا أرى من غزارة دموعي
أنا لا أتنفّس بل أتنهّد
كالفراشة التي تهوى اللهيب
وبذاك اللهيب تموت
أضرمتْ في داخلي ناراً

تسرق الآن مني أنفاسي
أقضي الليالي أعدّ النجوم
وفي النهارات أحلم بالزمن الآتي
حين تعود خيولك
ومن جديد أرى وجه القمر الجميل

توقفت الفتاة. وابتدأ الموسيقيان يعزفان لها تمهيداً لغناء اللازمة:
أيتها الرسالة، علّمي حبيبي
كيف تحرق نار الهجران.

حين أنهت الصبية أغنيتها رمى هوكوم تشاند ورقة نقدية ذات الخمس روبيات على السجادة. أحنى الموسيقيان والفتاة رؤوسهم والتقطت العجوز الشمطاء الورقة النقدية ووضعتها في جزدانها معلنةً: (ليدم حكمك إلى الأبد، ليكتب قلمك مئات الآلاف. لِـ...).

من جديد استؤنف الغناء. سكب هوكوم تشاند لنفسه ويسكي كثيفة وشربها دفعةً واحدة ثم مسح شاربيه بيده. لم يكن يطيق أن ينظر إلى الفتاة كما ينظر رجل إلى امرأة. لقد كانت تغني أغنية يعرفها جيداً إذ أنه سمع ابنته ذات يوم تدندنها:

خِماري الموسلين الأحمر
يطير مع النسمة
يا سيدي، يا سيدي

أحسّ هوكوم تشاند بالقلق. أخذ كأساً آخر من الويسكي وأبعد ضميره. الحياة قصيرة جداً على أن يكون للإنسان ضمير. ابتدأ يفرقع بأصابعه على إيقاع الأغنية ويلطم فخذيه مع «يا سيدي، يا سيدي».

انزاح الغسق أمام ظلمةِ ليل بلا قمر. نقّت الضفادع في المستنقعات المجاورة وفي شجيرات القصب سقسقت الزيزان. أحضر الخادم قنديل كيروسين يصدر هسهسة وضوءاً لامعاً ضارياً إلى الزرقة. ألقت قاعدة

المصباح ظلاً على هوكوم تشاند الذي رمق الفتاة الجالسة في ملاذٍ من الضوء. كانت مجرد طفلة كما أنها ليست بذاك الجمال، فقط فتيّة وغرّة، يكاد نهداها لايملأان صدريتها. لاشك أن يداً ذكريةً لم تلمسهما بعد. لمعت في ذهنه فكرة أنها، ربّما قد تكون أصغر سناً من ابنته، فأغرق هذه الفكرة سريعاً بكأس آخر من الويسكي. هكذا هي الحياة. خذها كما تأتي مجرّدة من المواضعات والقيم التي ليست جديرة بأكثر من السيادة اللفظية. هي تريد نقوده وهو يريد... لابأس، إنها بعد كل قول وفعل عاهرة وتبدو كذلك. البرّاق الفضي يتلألأ على ساريها الأسود، وفي أنفها تتوهج ماسةٌ كأنها نجمة. تناول هوكوم تشاند جرعة أخرى كي يبدد بقايا شكوكه. هذه المرّة مسح شاربيه بمنديله الحريري وابتدأ يهمهم بصوت أعلى ويفرقع أصابعه بتباهٍ.

تتالت أغاني الأفلام حتى استنفدت كل الأغاني الهندية التي يعرفها هوكوم تشاند على إيقاع التانغو والسامبا.

ـ (غنّوا أي شيء آخر تعرفونه) أمر الحاكم بتلطّف وقور (أي شيء جديد ومرح).

ـ شرعت الصبية بأغنية تحوي بضع كلمات انكليزية.

يمضي الأحد وراء الأحد، يا حياتي.

انفجر هوكوم تشاند مستحسناً (واه، واه). حين أنهت الفتاة أغنيتها لم يرمِ الورقة النقدية ذات الخمس روبيات إليها بل سألها أن تأتي وتأخذها من يده. دفعت العجوز الفتاة إليه:

ـ اذهبي، الحاكم يريدك.

نهضت الفتاة ومضت إلى الطاولة ومدّت يدها لتناول الورقة النقدية غير أن هوكوم تشاند سحب الورقة ووضعها على قلبه وكشّر بشهوانية. نظرت الفتاة إلى زملائها طلباً للمساعدة. وضع هوكوم تشاند الورقة على

الطاولة وقبل أن تصل إليها الفتاة التقطها ووضعها ثانيةً على صدره. أصبحت التكشيرة على وجهه أعرض. عادت الفتاة لتنضمّ إلى فرقتها. للمرة الثالثة رفع هوكوم تشاند الورقة النقدية.

ـ (اذهبي، الحكومة تريدك) رَجَتْها العجوز، استدارت الفتاة طائعةً ومضت إلى الحاكم الذي لفّ خصرها بذراعه.

ـ أنت تغنين جيداً.

فتحت الفتاة عينين واسعتين نحو زملائها.

ـ (الحكومة تتكلم معك. لماذا لاتردّين عليه) وبّختها العجوز (البنت صغيرة وخجولة يا سيادة الحكومة. سوف تتعلم).

وضع هوكوم تشاند كأس ويسكي على شفتي الفتاة (اشربي قليلاً. رشفة واحدة فقط لأجل خاطري) توسّل إليها.

انتصبت الفتاة جامدة الشعور دون أن تفتح فمها. مرة ثانية تكلمت العجوز:

ـ سيادة الحكومة، إنها لاتعرف شيئاً عن الشرب فهي لم تتجاوز السادسة عشرة، بريئة تماماً. إنها لم تقترب من رجل قبلك. لقد ربيتها من أجل متعة سيادتكم.

ـ (إذن سنأكل شيئاً ما حتى لو أنها لاتشرب) قال هوكوم تشاند. فضّل أن يتجاهل بقية كلام المرأة. التقط كرة لحمية من الصحن وحاول وضعها في فم الفتاة. أخذتها منه وأكلتها.

شدّها هوكوم تشاند إلى حضنه وراح يداعب شعرها الذي كان مزيّناً ومموّجاً بدبابيس شعر سيلوليدية مبهرجة. انتزع دبّوسين وحلَّ كعكة الشعر فانسدل على كتفيها. نهض الموسيقيان العجوز.

ـ أتأذن لنا بالانصراف؟

ـ نغم، اذهبوا. سيعيدكم السائق إلى منزلكم.

مرة أخرى أنشدته العجوز (لتزد شهرتك ومكانتك وليكتب قلمك أرقام الآلاف ومئات الآلاف...).

أخرج هوكوم تشاند لفافة نقود ووضعها أمامها على الطاولة. مضت الفرقة إلى السيارة وبقيت الفتاة في حضن هوكوم تشاند. وكان الخادم ينتظر الأوامر.

ـ هل أخدمكم على العشاء، سيدي؟

ـ لا، ضع الطعام على الطاولة، سنخدم أنفسنا، يمكنك الانصراف.

نشر الخادم العشاء على الطاولة وانسحب إلى مسكنه.

مدّ هوكوم تشاند يده وأطفأ قنديل الكيروسين الذي انطفأ بهسيسٍ قوي وتركها في عتمةٍ مطبقة ما خلا ضوءاً أصفر شاحباً يومض من غرفة النوم، قرر هوكوم تشاند أن يبقيا في الخارج.

ترك قطار البضائع عربات /مانوماجرا/ وها هو يغادر المحطة متّجهاً نحو الجسر. كان يصدر ضجيجاً في تقدمه الموسوم بتطاير الجمرات من مدخنة القاطرة فقد كانوا يزودون حجرة الاشتعال بالفحم. عبر دعامات الجسر كان يرحل ضوء أحمر وأصفر لامع، ثم غاب وراء الدغل على الجانب الآخر. تخامدت قعقعة القطار أكثر فأكثر. لقد ترك عبوره إحساساً بالخلوة.

سكب هوكوم تشاند لنفسه كأساً من الويسكي، والفتاة في حضنه باردةً متيّبسة.

ـ هل أنت غاضبة مني؟ ألا تريدين التحدث معي؟ سأل هوكوم تشاند ضاغطاً إياها إليه أكثر. لم تجب الفتاة ولم تلتفت إليه. في الواقع، لم يكن الحاكم مكترثاً بردود أفعالها. لقد دفع الثمن سلفاً. قرّب وجهها من وجهه وابتدأ يقبّل قفا رقبتها وأذنيها. لم يعد يسمع صوت قطار البضائع

الذي ترك الريف في عزلةٍ تامة. كان يمكنه سماع تسارع تنفسه. فكّ رباط صدريتها.

صوتُ رصاصة بعثر سكون الليل. حرّرت الفتاة نفسها وانتصبت.

ـ هل سمعتِ صوت رصاصة؟

أومأت الفتاة برأسها (قد يكون صيّاداً) أجابت متكلمةً معه للمرة الأولى. وأعادت ربط صدريتها.

ـ في ليلٍ مظلمٍ كهذا لايمكن أن يوجد أي صياد.

لبعض الوقت وقفا في صمت. الرجل به قليلٌ من الخوف والفتاة ارتاحت من ملاطفات عاشقٍ تفوح من أنفاسه رائحة الويسكي والدخان والتهاب اللثّة. غير أن عودة الصمت طمأن هوكوم تشاند. أخذ جرعة ويسكي أخرى كي يزيد في تأكيد اطمئنانه. أدركت الفتاة أن ليس ثمة مهرب.

ـ (لابد أنها مفرقعة نارية. أحدٌ ما يتزوج أو شيء ما) قال هوكوم تشاند محتضناً الفتاة. قبّلها على الأنف (دعينا نتزوج نحن أيضاً) أضاف بنظرةٍ دالّة.

لم تجب الفتاة. تركت نفسها تنجرّ حتى الطاولة بين صحون تغطيها كتل اللحم القذرة ورماد السجائر. كَنَسَ هوكوم تشاند الطاولة بيده وواصل ممارسة حبه. تحمّلتْ الفتاة قرصاته دون احتجاج. رفعها عن الطاولة وأضجعها على السجادة بين ركام الأكواب والصحون والزجاجات، غطّت وجهها بالنهاية الحرة من ساريها وأدارته جانباً كي تتقي أنفاسه. ابتدأ هوكوم تشاند يعالج ثوبها.

من مانوماجرا جاءت أصوات صراخ بشر ونباح كلاب مثارة. رفع هكوم تشاند بصره. رنّت رصاصتان فسكت الصراخ والنباح. شتم هوكوم تشاند بصوت مرتفع وترك الفتاة التي نهضت ثم نفضت ثوبها وسوّته. ومن

مسكن الخدم جاء الكنّاس والحمّال معهما قناديل وهما يتكلمان مستثارين. بعد قليل قاد السائق السيارة على الطريق الفرعي فأضاءت أنوارها الأمامية واجهة البنغل.

* * *

صبيحة جريمة السلب كانت محطة القطار أكثر ازدحاماً من المعتاد. عادةً يتواجد بعض المانوماجريين هناك لمراقبة وصول قطار ركّاب العاشرة والنصف البطيء بين لاهور ودلهي. يرغبون برؤية المسافرين القلائل الذين قد ينزلون في مانوماجرا أو يركبون منها، ويستمتعون بمماحكات لاتنتهي حول كم تأخر القطار في يومٍ محدّد ومتى كانت آخر مرّة يصل فيها القطار في موعده. منذ الانفصال كان ثمة اهتمام إضافي. الآن صارت القطارات تتأخر أربع أو خمس ساعات وفي بعض الأحيان عشرين ساعة. وحين تصل تكون مزدحمة باللاجئين السيخ والهندوس من الباكستان أو بالمسلمين من الهند. ترى الناس جاثمين على سطوح القطارات وأرجلهم متدلية أو على هياكل أسرَّة محشورة بين العربات. وبعضهم يجثم متقلقلاً على المصدّات.

لم يتأخر قطار هذا الصباح أكثر من ساعة، كما في الأيام السابقة للحرب تقريباً. وحين وصل أوحت أصوات الباعة الجوالين على الرصيف واندفاع المسافرين ونداءاتهم المتبادلة أن هناك عدداً كبيراً من الركاب ينزلون في المحطة. ولكن حين أطلق الحارس صافرة المغادرة عاد معظم الناس إلى القطار. لم يبق مع الباعة على الرصيف سوى فلاح سيخي وحيد يحمل عكازاً من خيزران تتبعه زوجته وعلى حقوها يرتاح طفل. رفع الرجل فراشهم الملفوف إلى رأسه وسنده بيده وفي اليد الأخرى حمل تنكة زبدة مصفاة. أما عصا الخيزران فقد أمسكها تحت إبطه ونهايتها تجرّ على الأرض. ثمة بطاقتان خضراوتان تبرزان من تحت شاربيه اللذين يتقوّسان من شفته العليا إلى لحيته. لاحظت المرأة صفَّ الوجوه المُستَطْلِعَة عبر درابزين

المحطة فأنزلت الخمار على وجهها. كانت تتبع زوجها ومن شحّاطها الذي يخوض في الأرض المحصبة وزينتها الفضيّة تصدر جلجلة. اقتلع مدير المحطة البطاقتين من فم الفلاح وسمح لهما بالخروج من البوابة حيث ضاعا في خضمّ التحيات والعناقات.

مرة ثانية نفخ الحارس بصفارته ولوّح بالراية الخضراء. عندئذٍ انبثق من المقطورة التي خلف القاطرة مباشرة رجال شرطة مسلحون، اثنا عشر شرطياً ومفتش يحملون البنادق وأحزمتهم (السام براون) مثقلة بالرصاص. اثنان منهم كانا يحملان أصفاداً وسلاسل. ومن النهاية الأخرى من القطار، قرب عربة الحارس نزل شاب يرتدي ثوباً أبيض طويلاً وسترة بنية من القطن الخشن وبيجاما فضفاضة وحقيبة قماشية. ترجّل من القطار بحذر وهو يضغط شعره الأشعث ويتلفّت في كل الجهات. كان نحيلاً ضئيلاً ويبدو مخنّثاً بشكل ما. تشجّع حين رأى رجال الشرطة. رفع حقيبته إلى كتفه الأيسر وسار بمرحٍ نحو المخرج. راقب القرويون الشاب ورجال الشرطة وهم يسيرون من جهتين متعاكستين نحو مدير المحطة الذي انتصب إلى جوار البوابة بعد أن فتحها على مصراعيها كي يمرّ رجال الشرطة. وها هو ينحني بخنوع للمفتش. وصل الشاب إلى البوابة أولاً وتوقف بين رجال الشرطة ومدير المحطة الذي تناول منه البطاقة بسرعة، غير أن الشاب لم يتابع سيره ولم يفسح مجالاً للمفتش.

ـ هل لك أن تخبرني، مدير المحطة صاحب، إذا كان يوجد في القرية مكان أستطيع المكوث فيه؟

اغتاظ مدير المحطة. ولكن اللهجة المدنية للزائر ومظهره ولباسه وحقيبته كل هذا لجَم مزاج المدير.

ـ (لايوجد في مانوماجرا لا فنادق ولا نُزُل) أجاب بتهكّم (لايوجد سوى المعبد السيخي. سوف تجد السارية الصفراء في مركز القرية).

ـ شكراً يا سيد.

تفحّصت جماعة الشرطة وعامل المحطة الشابَ بشيء من الاهتمام. قليل من الناس في هذه المناطق يقولون «شكراً». معظم جماعة الـ «شكراً» متعلمون في الخارج. لقد سمعوا من قبل عن بعض الشباب الموسرين المتعلمين في انكلترا يرتدون زيَّ الفلاحين ويقومون بعمل إنهاض للريف. معلوم أن البعض منهم عملاء شيوعيون والبعض أولاد مليونيريين أو موظفون حكوميون كبار. جميعهم يسعى وراء المشاكل ويستطيع إحداث الكثير من البلبلة. على المرء أن يكون حذراً.

غادر الشاب المحطة متّجهاً نحو القرية. سار بمشيةٍ منتصبة واعية لبضعة ياردات أمام رجال الشرطة، إذ أدرك أنه أثار انتباههم. الحِكَّة على قفا رقبته أخبرته أنهم يراقبونه ويتحدثون عنه. لم يحكّ ولم يلتفت إلى الخلف، فقط تابع سيره مثل جندي. على سارية مكسوة بقماش أصفر رأى راية فوق مجموعة من المساكن الطينية، وعلى الراية يوجد الرمز السيخي بالأسود، حلقة رمي يخترقها خنجر وتحتها سيفان متقاطعان. مشى على طول الدرب المغبر الذي تحفه من الجانبين شجيرات ضامرة من الكمثرى الشوكية تسيِّجه من الحقول. يتجاوز الدرب الضيق متعرجاً البيوت الطينية ليصل إلى فسحةٍ في المركز حيث يوجد منزل المرابي والمعبد والمسجد، يقابل كل منها الآخر. على مصطبة خشبية واطئة تحت شجرة التين المقدسة كان يجلس عدد من القرويين. نهضوا حالما رأوا رجال الشرطة وتبعوهم إلى داخل منزل /رام لال/. لم ينتبه أحد إلى الغريب.

ولج الشاب الباب المفتوح لفناء المعبد. في النهاية المقابلة من المدخل كان ثمة قاعة كبيرة تحوي الكتاب المقدس، الغرانث(*)، ملفوف بحرير مبهرج وموضوع تحت واقية مخملية. ثمة على أحد الجانبين غرفتان، وعلى

(*) الغرانث: الكتابات المقدسة المعترف عليها في السيخية. معظمها كتابات الغوردات الخمس الأوائل وكتابات صوفية إسلامية. وقد أصبح موضوع عبادة لدى السيخ. (م)

طول الحائط يوجد سلّم قرميدي يفضي إلى سطح الغرفتين. في الفناء توجد بئر بخرزة عالية وإلى جوار البئر ينتصب عمود من الآجر بارتفاع أربعة أقدام يسند السارية الطويلة التي يغلّفها قماش أصفر مثل جورب.

لم يرَ الشاب أحداً من حوله. سمع صوت ضرب ثياب رطبة على لوحٍ حجري. سار بشيء من الخوف إلى الجانب الآخر من البئر. نهض عجوز سيخي تقطر الماء من لحيته وسرواله القصير.

ـ سات سري أكال

ـ سات سري أكال.

ـ هل يمكنني المكوث ليومين أو ثلاثة؟

ـ هذه غوردوار(*)، بيت الغورو، يمكن لأي شخص أن يمكث فيها. عليك فقط أن تستر رأسك وألّا تحضر معك سجائر أو تنباك وألّا تدخّن.

ـ (أنا لا أدخن) قال الشاب ووضع حقيبته على الأرض ونشر منديله على رأسه.

ـ لا، بابو صاحب، فقط عندما تقترب من الغرانث صاحب تخلع حذاءك وتستر رأسك. ضع أمتعتك في تلك الغرفة واسترح. هل تريد شيئاً تأكله؟

ـ هذا لطف منك. لكني أحضرت طعامي معي.

قاده العجوز إلى الغرفة ثم عاد إلى البئر. دخل الشاب الغرفة التي يقتصر أثاثها على سرير يقبع في وسطها. وثمة على أحد الجدران تقويم ملوَّن كبير يحمل صورة الغورو وهو على ظهر حصانه والنسر يحط على يده. بجوار التقويم هناك مسامير لتعليق الملابس.

(*) الغوردوارا: مكان عبادة سيخي يضمّ نسخة من الغرانث وتتم فيه حالات التعميد وعقد القران والاجتماعات. أقدسها إطلاقاً هو المعبد الذهبي في أمريستار. (م)

أفرغ الزائر حقيبته. أخرج فراشه الهوائي ونفخه على السرير ووضع عليه بيجاما وعباءة بنيّة اللون، ثم أخرج علبة سردين وعلبة زبدة أوسترالية وباكيت من البسكويت الجاف. خضّ زجاجته فوجدها خالية من الماء.

جاء إليه العجوز السيخي وهو يسرّح لحيته بأصابعه.

ـ ما اسمك؟ سأله وجلس على العتبة.

ـ إقبال. وأنت ما اسمك؟

ـ إقبال سينج؟ سأل العجوز وتابع دون أن ينتظر الجواب (أنا باي المعبد، الباب ميت سينج. ماهو شغلك في مانوماجرا، إقبال سينج جي؟).

سُرَّ الشاب لأن العجوز لم يلاحق سؤاله الأول. لم يكن ينبغي عليه أن يقول أي إقبال كان. قد يكون مسلماً، إقبال محمد. وقد يكون هندوسياً، إقبال تشاند، أو سيخياً إقبال سينج. إنه من الأسماء القليلة الشائعة بين الطوائف الثلاث، في قرية سيخية سيكون إقبال سينج أفضل بكثير دون شك ولو كان بشعر مقصوص ولحية حليقة، أفضل من إقبال محمد أو إقبال تشاند. هو نفسه لم يكن لديه الكثير من المشاعر الدينية.

ـ أنا عامل اجتماعي، باي جي. هناك حاجة للكثير من العمل في قرانا. الآن مع الانفصال هناك دم كثير يهرق يومياً، لابد من عمل شيء ما لإيقافه. لقد أرسلني حزبي إلى هنا على اعتبار أن هذا المكان نقطة حيوية لتحركات اللاجئين. الاضطراب هنا يعني كارثة.

لم يبدُ أن الباي اكترث بمهمة الشاب.

ـ من أين أنت، إقبال سينج؟

علم إقبال أن السؤال يعني من أين أسلافه وليس من أين هو.

ـ أنا من مقاطعة جيلوم ـ الآن في الباكستان ـ لكنني كنت في بلدان أجنبية لوقت طويل. فقط بعد رؤية العالم يشعر الإنسان كم نحن

متخلّفون ويريد أن يعمل شيئاً ما إزاء ذلك. وهكذا فإن مهنتي عامل اجتماعي.

ـ كم يدفعون لك؟

تعلّم إقبال سينج أن لايزدري مثل هذه الأسئلة.

ـ ليس كثيراً، نفقاتي فقط.

ـ هل يدفعون لك نفقات زوجتك وأولادك أيضاً؟

ـ كلا، باي جي، في الحقيقة أنا لست متزوجاً..

ـ كم عمرك؟

ـ سبع وعشرون. قل لي هل يصل إلى هنا عمال اجتماعيون آخرون؟ قرر إقبال أن يوجه الأسئلة كي يوقف استجواب ميت سينج.

ـ أحياناً يأتي القساوسة الأميركان.

ـ هل يرضيك أن يعظوا بالمسيحية في قريتك.؟

ـ كل إنسان مطمئن إلى دينه. إلى جوارنا يوجد مسجد إسلامي. حين أصلي إلى إلهي غورو، يدعو العم الإمام بكش إلى الله. كم دين يوجد في أوروبا.

ـ جميعهم مسيحيون من أنواع مختلفة. هم لايتصارعون حول أديانهم كما نفعل نحن. في الحقيقة هم لايكترثون كثيراً بموضوع الدين.

ـ (هكذا سمعت) قال ميت سينج متفكّراً (ولهذا السبب ليس لديهم أخلاق. الرجال الأجانب يمشون مع غير زوجاتهم وزوجاتهم يذهبن مع غير أزواجهن هذا ليس جيداً. أليس كذلك؟.

ـ لكنهم لايكذبون مثلنا وليسوا فاسدين وفاسقين كالكثير منا. ردّ إقبال.

تناول مفتاح العلب وفتح علبة سردين. نشر السمكات على بسكوتة وتابع الكلام بينما هو يأكل.

ـ الأخلاق قضية نقود، ميت سينج جي. لايقوى الفقراء من الناس على احتمال أن يكون لديهم أخلاق، لذلك لديهم دين. مشكلتنا الأولى هي أن نزوّد الناس بالطعام واللباس والراحة وهذا غير ممكن ما لم نضع حداً لاستغلال الأغنياء ونلغي فئة ملّاك الأراضي. وهذا غير ممكن ما لم نغيِّر الحكومة.

بافتتانٍ مُشمَئِزٍ راقب ميت سينج الشاب يأكل السمكة كاملةً برأسها وعينيها وذيلها. لم يولِ اهتماماً كبيراً للمحاضرة حول المديونية الريفية ومعدل الدخل القومي والاستغلال الرأسمالي التي ألقاها الشاب مع رقائق البسكويت الجاف. حين أنهى طعامه هبّ ميت سينج وأحضر له كوباً من الماء من ابريقه. لم يكفّ إقبال عن الكلام، فقط رفع صوته أكثر حين خرج الباي.

أخرج إقبال لفافة صغيرة من ورق السيلوفان من جيبه، تناول قرصاً أبيض منها ورماه في الكوب. لقد رأى إبهام ميت سينج بالهلال الأسود من الوسخ تحت الظفر تغطس في الماء. وعلى أي حال فالماء مستخرج من البئر التي لايمكن أن تكون ماؤها معقّمة بالكلور.

ـ هل أنت مريض؟ سأل العجوز وهو يرى الشاب ينتظر انحلال القرص في الماء.

ـ لا، إنه يساعدني على هضم طعامي. نحن سكان المدن نحتاج إلى هذا النوع من الأشياء بعد الوجبات.

استأنف إقبال حديثه: (بالمختصر المفيد، عندنا نظام بوليسي يحيا على الفساد والرشوة وبدل أن يحمي المواطن يسيء معاملته، أنت تعلم هذا الشيء بالتأكيد).

هزّ العجوز رأسه بالموافقة وقبل أن يدلي بتعليقه تكلم الشاب من جديد: (جاء على القطار معي مجموعة من رجال الشرطة ومفتش، لاشك أنهم سيأكلون كل دجاجات القرية وسيجني المفتش مبلغاً صغيراً من المال عبر الرشاوي. ومن ثم ينتقلون إلى القرية الأخرى. يخطر للمرء أنه لا عمل لهم سوى نهب الناس).

الإشارة إلى الشرطة أيقظت العجوز من إصغائه الشارد «إذن لقد وصلت الشرطة أخيراً. يجب أن أذهب لأرى ماذا يفعلون. لابد أنهم في منزل المرابي. فقد قتل الليل الفائت قبالة الغوردوارا تماماً. أخذ اللصوص مقداراً كبيراً من المال ويقولون أنهم أخذوا أيضاً ما قيمته أكثر من خمسة آلاف روبية من الحلي الفضية والذهبية من نسائه».

لاحظ ميت سينج الاهتمام الذي خلقه، نهض ببطء مكرراً (يجب أن أذهب لاشك أن كل القرية هناك. سيأخذون الجثة للفحص الطبي. إذا قتل رجل ما فلا يمكن حرقه قبل أن يشهد الدكتور أنه ميت) ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة.

ـ (جريمة قتل! لماذا، لماذا قتلوه؟) تلعثم إقبال وارتبك إلى حدٍّ ما. أدهشه أن ميت سينج لم يذكر له طوال هذا الوقت جريمة القتل التي راح ضحيتها جاره الأقرب: (هل لسببٍ طائفي؟ هل بقائي هنا آمن؟ لا أعتقد أن بإمكاني عمل الكثير في حال هبّتْ القرية جرّاء جريمة قتل).

ـ يا للعجب، بابو صاحب! أنت جئت كي توقف القتل وتزعزعك جريمة قتل واحدة؟ سأل ميت سينج مبتسماً: (ظننت أنك جئت كي توقف مثل هذه الأشياء، بابو صاحب، لكنك آمن تماماً في مانوماجرا) وأضاف: (اللصوص لا يأتون إلى القرية نفسها أكثر من مرّة في السنة. بعد بضعة أيام ستحدث جريمة سلب في قرية أخرى وسينسى الناس هذه. نستطيع أن نجمع الناس هنا ذات ليلة بعد صلاة المساء وبمقدورك أن تخبرهم بما تشاء. من الأفضل لك أن ترتاح، سأعود وأقصّ عليك ما يجري.

عَرَجَ العجوز خارجاً من الفناء. جمع إقبال العلبة الفارغة والسكين والشوكة وذهب إلى البئر ليغسلها.

* * *

عند العصر تمدد إقبال على السرير المصنوع من أسلاك خشنة وحاول أن يأخذ قسطاً من النوم، فقد قضى الليل جالساً على فراشه الملفوف في مقطورة درجة ثالثة مزدحمة. وفي كل حين يأخذه النوم كان القطار يتوقف في محطة جانبية ما وتُفتح الأبواب بصعوبة ويتدفق المزيد من الفلاحين وزوجاتهم والمزيد من الصناديق والفرش. وما أن يبدأ طفلٌ ما بالصراخ في حضن أمه حتى يهدّيء عويله إقحامُ ثدي في فمه. يستمر الصراخ والصخب زمناً طويلاً بعد أن يغادر القطار المحطة. ويتكرر الشيء مرة إثر الأخرى حتى تتسع المقطورة، المخصصة أصلاً لخمسين راكباً، لحوالي مئتي راكب. يجلسون على الأرضية، على المقاعد، على رفوف الأمتعة على الصناديق على الفرش الملفوفة وعلى بعضهم البعض؛ أو يقفون في الزوايا. هناك العشرات يجثمون بشكل محفوف بالخطر على مواطئ العربات متمسكين بقبضات الأبواب. العديد من الناس على سطح القطار. الحرارة والرائحة خانقتان. ثارت الأمزجة وكل بضع دقائق يبدأ نزاع لأن أحداً ما قد تمدّد أكثر من اللزوم أو داسَ على قدم رجل آخر في طريقه إلى المرحاض. ويتدخل في النزاع أصدقاء وأقارب كل طرف ثم يتدخل الآخرون لتسوية الأمر. حاول إقبال أن يقرأ في الضوء الخافت الملطّخ بظلال الفراشات الحائمة حول المصباح. لم يكد يقرأ مقطعاً حتى لاحظ جاره.

ـ أنت تقرأ؟

ـ نعم أقرأ.

ـ ماذا تقرأ؟

ـ كتاب.

لم ينته الأمر. تناول الرجل الكتاب ببساطة وراح يقلب صفحاته.

ـ انكليزي؟

ـ نعم انكليزي.

ـ لابد أنك متعلم.

لم يعلّق إقبال.

دار الكتاب في المقطورة للتفحص. اتجهت كل أنظار المقطورة إليه. لقد كان متعلماً ولذلك فهو ينتمي إلى طبقة مختلفة. إنه بابو.

ـ ما الاسم الكريم الذي تحمله سيادتكم؟

ـ اسمي إقبال.

ـ زادك الله إقبالاً (شهرةً).

واضح أن الرجل اعتبره مسلماً. هذا جيد. إذ يبدو أن كل المسافرين مسلمون في طريقهم إلى الباكستان.

ـ أين هي ثروتك، بابو صاحب؟

ـ (بيتي الفقير يقع في جيلوم) أجاب إقبال دون غيظ. أكّد الجواب أرجحية كونه مسلماً ذلك أن جيلوم تقع في الباكستان.

بعد ذلك انضمّ مسافرون آخرون إلى الاستجواب. كان على إقبال أن يخبرهم ماذا فعل ومن أين مصدر دخله وكم مقداره وأين درس ولماذا لم يتزوج وكل الأمراض التي عانى منها. ناقشوا معه مشاكلهم العائلية وأمراضهم وسألوه النصح. هل يعرف إقبال أي وصفات سرّية أو أعشاب يستعملها الانكليز حين (يضعفون)؟ تخلّى إقبال عن محاولة النوم أو القراءة. لم ينقطعوا عن المحادثة حتى الساعات الأولى من الصباح. كان يمكنه أن يصف الرحلة بأنها لاتطاق لولا أن قدرة احتمال الإنسان في الهند تمتد إلى حدود تجعل من كلمة «لاتطاق» بلا معنى. نزل من القطار في /

مانوماجرا/ مع تنهيدة ارتياح. استطاع أن يتنفس هواءً عذباً وكان يتوق إلى قيلولة طويلة.

لكن النوم لايدنو منه. الغرفة غير مهواة، فيها رائحة ترابية عفنة وفي الزاوية توجد كومة ملابس تنبعث منها رائحة زبدة مصفاة فاسدة وذباب يطنّ في كل مكان. نشر إقبال منديلاً على وجهه. كان بالكاد قادراً على التنفس. وبعد كل هذا، حين نجح في أن يسهو، دخل ميت سينج متعجباً على نحوٍ فلسفي:

ـ من يسرق أحد أبناء قريته كأنه يسرق أمه. إنه الكاليوغ، إقبال سينج جي العصر الأسود. هل سمعت بلصوص ينهبون منازل جيرانهم؟ لم يعد ثمة أخلاق في العالم.

أزاح إقبال المنديل عن وجهه.

ـ ما الذي حدث؟

ـ (ما الذي حدث؟) كرر ميت سينج متصنّعاً الدهشة (اسألني ما الذي لم يحدث! أرسل رجال الشرطة في طلب جوغا، وجوغا هذا هو البودماش رقم عشرة (من سجلّ الشخصيات الفاسدة عند الشرطة) لكن جوغا هرب، اختفى. وقد شاهدوا أيضاً بعض المسروقات (كيس خلاخل) في فناء داره. وهكذا نعلم من الذي قام بالجريمة. هذه ليست أول جريمة قتل يرتكبها. الجريمة تجري في دمه. أبوه كان لصاً وجدّه من قبله وقد أُعدما شنقاً على جرائم قتل لكنهما لم يسلبا أبناء قريتهم أبداً، الحقيقة عندما يكون أحدهما في القرية لم يكن يجرؤ أي لص على الاقتراب من /مانوماجرا/. لقد عاب جوغوت سينج عائلته.

تجلّس إقبال في سريره وراح يفرك جبهته. لطالما حيرته المبادئ الأخلاقية لأهل بلده، هو الذي ينظر إلى الأشياء بطريقة مُؤَنكلَزَه. وحتى أنَّ المبادئ البنجابية أكثر إرباكاً. فبالنسبة لهم الحقيقة والصدق والاستقامة

المالية أشياء «لابأس بها» ولكنها أدنى بكثير من أن يكون المرء مخلصاً لملحه، لأصدقائه وأبناء قريته. يمكنك أن تكذب في المحكمة أو أن تخدع إخلاصاً لأصدقائك ولا أحد يلومك، على العكس، فأنت بذلك تصبح (نار أدمي)، فحلاً تحدى السلطة (الحاكم والشرطة) وتحدى الدين (القسم على الكتاب المقدس) ولكنه أثبت إخلاصاً للصداقة. تلك كانت صورة المجتمع الريفي حيث كل سكان القرية أقرباء وحيث الاخلاص للقرية هو الامتحان الأسمى. ما أغاظ ميت سينج، رجل الدين، لم يكن أن جوغا قد ارتكب جريمة قتل بل أنه لوث يديه بدم أحد أبناء قريته. وإلا فإن ميت سينج كان مستعداً أن يدافع عنه بكل سرور ويقسم على الغرانث المقدس أن جوغا كان يصلّي في الغورداوارا وقت وقوع الجريمة. أُزهِق إقبال من التحدث إلى أناس مثل ميت سينج. إنهم لايفهمون. لقد توصل إلى نتيجة أنه غير مؤهل للاندماج في هذه البيئة.

خاب أمل ميت سينج في أن يثير اهتمام إقبال.

ـ أنت رأيت العالم وقرأت الكثير من الكتب ولكن خذها مني، الأفعى يمكن أن تتخلّى عن جلدها ولكن لايمكن أن تتخلّى عن سمّها. هذا القول يعادل مئة ألف روبيه.

لم يبد إقبال تقديراً للقول القيّم. شرح ميت سينج: (ظل جوغا مستقيماً لبعض الوقت، يفلح أرضه ويرعى ماشيته. لم يغادر القرية أبداً وكل يوم يبلغ عن حضوره لدى اللامباردارا. ولكن إلى متى تستطيع الأفعى أن تبقى مستقيمة؟ الجريمة تجري في دمه).

ـ (الجريمة لاتجري في دم أحد تماماً كما أن الخير لايجري في دم أحد) أجاب إقبال مستيقظاً. كانت هذه إحدى نظرياته الأثيرة: (هل انشغل أحد في البحث عن السبب الذي يدفع الناس للسرقة والنهب والقتل؟ كلا! يضعونهم في السجن أو يشنقونهم. هذا أسهل. لو أن الخوف من المشانق أو الزنازين يوقف الناس عن القتل والسرقة لما بقي قتل ولا سرقة.

لكنه لايوقفهم. إنهم يشنقون رجلاً كل يوم في هذا الاقليم ومع ذلك يُقتل عشرة رجال كل أربع وعشرين ساعة. كلا، باي جي، المجرمون ليسوا مجرمين بالفطرة. إنهم يصبحون كذلك تحت تأثير الجوع والعوز والظلم.

شعر إقبال بشيء من السخف لإعلانه هذه التفاهات. يجب أن يتخلّص من عادة تحويل المحادثة إلى موعظة. عاد إلى الموضوع:

ـ افترض أنهم سوف يقبضون على جوغا بسهولة إذا كان شخصاً شهيراً إلى هذا الحد.

ـ لايمكن لجوغا أن يبتعد كثيراً. يمكن تمييزه بين ألف رجل فهو أطول من أي رجل بمقدار ذراع. لقد أرسل النائب صاحب أوامر لكل المخافر للبحث عنه.

ـ من هو النائب صاحب؟ سأل إقبال.

ـ (ألا تعرف النائب؟) دهش ميت سينج (إنه هوكوم تشاند، يقيم في بيت الاستجمام شمال الجسر. وهو الآن (نار أدمي). ابتدأ شرطياً في المشاة وانظر أين وصل الآن! إنه دائماً يرضي الأسياد وهم يمنحونه ترفيعاً إثر الآخر السيد الأخير أعطاه منصبه وجعله نائباً. أجل، إقبال سينج جي، هوكوم تشاند (نار أدمي) وذكي. إنه مخلص لأصدقائه ودائماً يدبّر لهم أمورهم، العشرات من أقاربه يشغلون وظائف جيدة. إنه واحد من مئة. لاتكذّب شيئاً عن هوكوم تشاند.

ـ هل هو أحد أصدقائك؟

ـ (أحد أصدقائي؟ لا، لا) احتجّ ميت سينج (أنا باي بسيط للغوردوارا وهو امبراطور. هو الحكومة ونحن رعاياه. إذا جاء إلى / مانوماجرا/ تراه.

كان ثمة توقف في المحادثة. لبس إقبال صندله ونهض.

ـ يجب أن أمشي. أي طريق تقترح علي؟

ـ اذهب في الاتجاه الذي تحب. حيثما ذهبت ريف مفتوح. اذهب إلى النهر سترى القطارات تأتي وتروح. وإذا عبرت سكة الحديد سترى بيت الاستجمام. لاتتأخر، هذه أوقات سيئة ومن الأفضل أن تكون داخل مسكنك قبل حلول الظلام. إضافة إلى أنني أخبرت اللامباردار والعم الإمام بكش ـ ملّا المسجد ـ أنك هنا. قد يأتيان للتحدث إليك.

ـ كلا لن أتأخر.

خرج إقبال من الغوردوارا. لا وجود لأية علامة نشاط الآن. يبدو أن الشرطة قد أنهت تحقيقاتها. نصف دزينة من الشرطة مبطوحون على الأسّرة تحت شجرة التين. كان باب منزل رام لال مفتوحاً. وعلى أرضية الفناء يجلس بعض القرويين، وثمة امرأة تندب بصوت رتيب ينتهي بتشنجات بكائية تشارك فيها النساء الأخريات. كان الطقس حاراً وراكداً. الشمس تطلي الجدران الطينية.

سار إقبال في ظل جدار الغوردوارا الذي تغوط الأولاد على طوله والذي كان يستخدمه الرجال كمِبْوَلة. ثمة كلبة جرباء تستلقي على جانبها وحولها بطنٌ من ثمانية جراء هزيله تصيء وتناضل مع ضروعها المترهلة.

فجأة انتهت الدرب عند بحيرة القرية. بقعة صغيرة من ماء موحل مليئة بالجواميس البارزة رؤوسها.

يحيط بالبحيرة ممرٌ ويمضي على طول ساقية جافة عبر حقول القمح باتجاه النهر. مشى إقبال على طول الساقية مراقباً خطواته بحذر. وصل النهر تماماً في اللحظة التي وصل فيها الاكسبرس القادم من لاهور الجسر. راقب تقدمه عبر شبكة الفولاذ، لقد كان مكتظاً مثل كل القطارات. من على السطح تتدلى الأرجل من الجانبين على النوافذ والأبواب. النوافذ والأبواب مكتظّة بالأيدي والرؤوس. هناك بَشَر على المصدّات بين العربات. الرجلان اللذان على المصدّات في نهاية القطار كانا يرفسان بأرجلهما بمرح ويلوحان

بأيديهما. زادت سرعة القطار بعد أن عبر الجسر. ابتدأت القاطرة تصفر وظلّت تصفر إلى أن تجاوزت محطة مانوماجرا. كان ذلك تعبيراً عن الارتياح من أنهم خرجوا من الباكستان وصاروا في الهند.

سار إقبال باتجاه الجسر إلى ضفة النهر. كان يخطط أن يمضي تحت الجسر نحو البَنْغل حين رأى جندياً سيخياً يراقبه من كشك الحراسة في نهاية الجسر. غيّر إقبال فكرته ومشى بثبات إلى حاجز سكة الحديد وانعطف جهة محطة مانوماجرا الشيء الذي هدّأ من شكّ الحارس. سار إقبال مئة ياردة ثم جلس عَرَضاً على خط سكة الحديد.

كان الاكسبرس قد أيقظ مانوماجرا من قيلولتها المتأخرة. كان ثمة أولاد يرمون الحجارة على الجواميس التي في البحيرة ويقودونها إلى البيت. تخرج جماعة من النساء إلى الحقول وتتبعثر خلف الأدغال. عربة ثيران تحمل جثة رام لال تترك القرية وتمضي باتجاه المحطة محروسة برجال الشرطة. سار معهم بعض القرويين لبعض المسافة ثم عادوا مع الأقارب.

نهض إقبال ونظر حوله. من محطة سكة الحديد إلى سطح البنغل الظاهر من فوق ريشات البَمْب، ومن الجسر إلى القرية ثم إلى المحطة، كان المكان مكسوّاً بالرجال والنساء والأولاد والماشية والكلاب. وهناك طائرات ورقية تدور عالياً في السماء. أسراب طويلة من الغربان طائرة من مكان ما إلى مكان ما، الملايين من عصافير الدوري تزقزق حول الأشجار. أين يمكن للمرء أن يرى مكاناً في الهند لايعجّ بالحياة؟ فكّر إقبال بردّة فعله الأولى لدى وصوله بومباي. حشود مكتظة ـ ملايين ـ على رصيف الميناء وفي الشوارع وعلى أرصفة سكك الحديد. حتى في الليل تكون الأرصفة مزدحمة بالناس. البلدة كلها تبدو مثل غرفةٍ مزدحمة. ماذا تتوقع حين يزداد عدد السكان ست نسمات كل دقيقة ـ خمسة ملايين نسمة كل سنة! ـ إن من شأن هذا أن يحيل أي تخطيط صناعي أو زراعي إلى مسخرة. لماذا

لاينفق المقدار نفسه من الجهد لكبح زيادة السكان؟ ولكن أنّى لك ذلك في أرض حكمه كاما(*)، في بلد عبادة القضيب وعبادة الابن؟

أفاق إقبال من حلم يقظته الساخط، على صوت وامض على طول الأسلاك الفولاذية الممتدة بموازاة سكة الحديد. نزلت الشارة من على كشك الحراسة قرب الجسر. انتصب إقبال ونفض ملابسه. كانت الشمس قد غابت وراء النهر. السماء الخمرية أمست رمادية مع انتشار ظلال الغسق عبر السهل. إلى جوار نجمة المساء ظهر هلال يشبه قلامة ظفر مقصوصة بعناية. ارتفع أذان المؤذن فوق طقطقة القطار القادم.

لم يجد إقبال صعوبة في معرفة طريق العودة. فكل الطرق تلتقي في مثلث المعبد ـ المسجد ـ منزل رام لال حيث في المركز منه شجرة التين. لاتزال أصوات العويل تصدر من بيت المرابي. في المسجد وقف اثنا عشر رجلاً في صفين يؤدون ركوعهم بصمت. ميت سينج كان جالساً في الغوردوارا إلى جوار الكتاب الملفوف بالموسلين على سرير صغير يتلو صلاة المساء، وهناك خمسة أو ستة رجال ونساء يجلسون على شكل نصف دائرة حول فانوس يصغون إليه.

مضى إقبال إلى غرفته مباشرة واستلقى على سريره في الظلام. لم يكد يغمض عينيه حتى بدأ المتعبّدون بالانشاد. توقف النشيد دقيقتين ليبدأ من جديد. انتهت الشعيرة بصيحات (سات سري أكال) مع القرع على طبل. خرج الرجال والنساء وأمسك ميت سينج بالفانوس كي يعينهم في العثور على أحذيتهم ابتدؤوا يتكلمون بصوت مرتفع لم يستطع إقبال أن يميّز في الجلَبه سوى كلمة (بابو). أحد الذين رأوا إقبال يدخل غرفته أخبر الآخرين. كان هناك همس وجرجرة أقدام ثم صمت.

أغمض إقبال عينيه مرة أخرى. بعد دقيقة وقف ميت سينج على العتبة ممسكاً بالفانوس.

(*) كاما هو إله الحب في الميثولوجيا الهندية. (م)

ـ إقبال سينج جي، هل ذهبت إلى سريرك دون طعام؟ هل ترغب بعض السبانخ؟ لدي أيضاً لبن خاثر وشنينه.

ـ لا شكراً باي جي. لدي حاجتي من الطعام.

ـ طعامنا الفقير... ابتدأ ميت سينج.

ـ لا، لا، ليس ذلك. قاطع إقبال وجلس في سريره.

كل ما في الأمر أنني أحضرت طعامي معي وسيفسد ما لم أستهلكه. أنا متعب قليلاً وأريد أن أنام.

ـ إذن لابد أن تشرب قليلاً من الحليب. بانتا سينج، اللامباردار، سيحضر لك بعض الحليب. سأخبره أن يسرع إذا كنت تريد أن تنام باكراً. عندي سرير آخر لك على السطح إذا رأيت الجو حاراً هنا.

ترك ميت سينج الفانوس في الغرفة واختفى في الظلام.

لم تحرّكه فكرة أن يدخل في حديث مع اللامباردار. أخرج البطحة الفضيّة من تحت الوسادة وأخذ جرعة طويلة من الويسكي. تناول عدداً من قطع البسكويت الجاف من الباكيت الورقية ثم أخذ فراشه ووسادته إلى السطح حيث يوجد سرير له. يبدو أن ميت سينج ينام في الفناء لحراسة الغوردوارا.

استلقى إقبال على سريره وراقب السماء التي تمور بالحركة إلى أن سمع عدة أصوات تدخل الغوردوارا وتصعد السلم، عندئذ نهض ليحيّي الزوار.

ـ سات سري أكال. بابو صاحب.

ـ السلام عليكم. بابو صاحب.

تصافحوا. لم يكلّف ميت سينج نفسه التعريف بهما. دفع إقبال فراش النفخ جانباً كي يفسح مجالاً للزوار على السرير، أما هو فجلس على الأرض.

ـ أنا خجلان أنني لم أحضر قبل الآن. قال السيخي. أرجو أن تغفر لي. أحضرت لك بعض الحليب.

ـ أجل، صاحب. نحن نشعر بالخجل من أنفسنا. أنت ضيفنا ولم نقدم لك أية خدمة. اشرب الحليب قبل أن يبرد. أضاف الزائر الآخر وكان رجلاً طويلاً نحيلاً بلحيةٍ مشذبة.

ـ هذا لطف بالغ منكم... أعلم أنكم كنتم مشغولون مع الشرطة. أنا لا أشرب الحليب. فعلاً لا أشربه. نحن سكان المدن...

تجاهل اللامباردار الاعتراضات المهذبة لإقبال. سحب منديله القذر عن كوبٍ نحاسي كبير وراح يحرك الحليب بسبابته. إنه عذب. فقد حلبت الجاموسة منذ ساعات فقط وجعلت زوجتي تغليه. أعرف أنكم أنتم المتعلمون لاتشربون الحليب دون غلي. فيه الكثير من السكر يرسو في القعر.

أضاف مع التحريكة الأخيرة. ولكي يؤكد على نوعية الحليب التقط قطعة زبدة متجمعة وتركها تنزلق على سبابته ثانية في الحليب.

ـ هاك. بابوجي، اشربه قبل أن يبرد.

ـ لا! لا! لا، شكراً، لا! اعترض إقبال. لم يعلم كيف يتخلص من هذه الورطة دون أن يسيء لزواره.

(ـ أنا لا أشرب الحليب إطلاقاً. لكن إذا كنتم مصرّين سأشربه فيما بعد. أحبه بارداً).

ـ أجل اشربه كما تحب بابوجي. قال المسلم منجداً إياه.

(ـ بانتا سينج اترك الكوب هنا، في الصباح يعيده الباي).

غطى اللامباردار الكوب بمنديله ووضعه تحت سرير إقبال. ساد

صمت طويل كان إقبال يتصور خلاله بسرور كيف سيسكب الحليب بكل زبدته المتجمعة في البالوعة.

ـ (إه، بابوجي) بدأ المسلم، (أخبرنا شيئاً ما، ماذا يجري في العالم؟ ما كل هذا الذي نسمعه عن الباكستان والهندستان؟)

ـ نحن نعيش في هذه القرية الصغيرة ولانعرف شيئاً. تدخل البلامباردار: أخبرنا بابوجي لماذا غادر الانكليز؟

لم يعرف إقبال كيف يجيب على أسئلة بسيطة كهذه. الاستقلال لم يكن يعني الكثير أو لم يعنِ شيئاً لهؤلاء الناس، إنهم لم يدركوا حتى أن الاستقلال خطوةٌ إلى الأمام وأن كل ما يحتاجونه هو أن يقوموا بالخطوة التالية لتحويل الحرية السياسية الزائفة إلى حرية اقتصادية حقيقية.

ـ لقد غادروا لأنهم أجبروا على ذلك. كان لدينا مئات الآلاف من الشباب المدربين للقتال في الحرب وكان بحوزتهم السلاح هذه المرة. ألم تسمعوا بتمرد البحارة الهنود؟ الجنود أيضاً كانوا سيقومون بالشيء نفسه. خاف الانكليز. إنهم لم يطلقوا النار على أي هندي ممن انضموا إلى الجيش القومي الهندي الذي أنشأه اليابانيون لأنهم اعتقدوا أن ذلك سيجعل البلاد كلها ضدهم.

أطروحة إقبال لم تُجدِ كثيراً.

ـ بابوجي، قد يكون ما تقوله صحيحاً، قال اللامباردا ـ بتردد، لكن أنا كنت في الحرب الأخيرة وقاتلت في ما بين النهرين وفي غاليبولي(*). كنا نحبّ الضباط الانكليز. لقد كانوا أفضل من الضباط الهنود.

ـ أجل، أضاف ميت سينج، يقول أخي، وهو هافيلدار، أن كل

(*) ميناء بحري في القسم الأوروبي من تركيا على الشاطئ الشمالي الشرقي من الدردنيل. (م)

السّباهيه كانوا أكثر سعادة مع الضباط الانكليز منهم مع الضباط الهنود. زوجة العقيد الذي كان أخي يخدم عنده لاتزال ترسل إلى ابنة أخي أشياء من لندن. تصور أنها أرسلت لها نقوداً في حفلة زفافها. مَنْ من زوجات الضباط الهنود يمكن أن تفعل ذلك؟

حاول إقبال أن يأخذ الهجوم.

ـ عجيب، يا جماعة ألا تريدون أن تكونوا أحراراً.؟ هل تريدون أن تبقوا عبيداً طوال حياتكم؟

بعد صمت طويل أجاب المختار:

ـ لابد أن الحرية شيء جيد ولكن ماذا نستفيد منها؟ المتعلمون أمثالك بابو صاحب، سيأخذون الوظائف التي كان يشغلها الانكليز. هل سنحصل على أراضٍ أو جواميس أكثر.

ـ لا، قال المسلم. الحرية للمتعلمين الذين ناضلوا من أجلها، نحن كنا عبيداً للانكليز والآن سنكون عبيداً للمتعلمين من الهنود أو الباكستانيين.

هذا التحليل أجفل إقبال.

ـ ما تقولونه صحيح مئة بالمئة، وافق بحرارة. إذا أردتم أن تعني لكم الحرية شيئاً ما ـ للعمال والفلاحين ـ عليكم أن تتحدوا وتناضلوا. أسقطوا حكومة المؤتمر البانياني. تخلصوا من الأمراء وملّاك الأراضي عندئذٍ سوف تعني لكم الحرية ما تعتقدون أنها يجب أن تعنى. المزيد من الأرض والمزيد من الجواميس وإنهاء الديون.

ـ هذا ما قاله لنا ذاك الصاحب. قاطع ميت سينج. ذاك الصاحب.. يالامباردار، ماذا كان اسمه؟ الرفيق فلان أو لا أدري، هل أنت رفيق، بابو صاحب؟

ـ لا.

ـ هذا يسعدني. ذاك الرفيق لم يكن يؤمن بإله. قال عندما يصل حزبه إلى السلطة فسوف ينزحون البحيرة المقدسة التي حول المعبد في تورون تارون ويزرعون فيها الأرز. قال أن ذلك سيكون أكثر نفعاً.

ـ هذا كلام طائش. احتج إقبال. تمنى لو أن ميت سينج يتذكر اسم الرفيق. فمن المفترض التبليغ عنه إلى القيادة وتوبيخه.

ـ إذا لم يكن لدينا إيمان بالإله، عندئذ نكون مثل الحيوانات. قال المسلم بوقار. كل العالم يحترم الرجل المتدين. خذ غاندي مثلاً، أسمع أنه يقرأ القرآن الشريف(*) والانجيل، إضافة إلى الفيدا والشاسترا. الناس يمتدحونه في أربعة أركان الأرض. لقد رأيت صورة في إحدى الصحف لاجتماع صلاة بروتستانتي من أجل غاندي. يظهر في الصورة الكثير من الرجال والنساء البيض يجلسون متربعين. إحدى الفتيات البيض تغمض عينيها، قالوا إنها ابنة السيد الكبير. أترى يا ميت سينج حتى الانكليز يحترمون رجل الدين.

ـ طبعاً تشاتشا، كل ما تقوله صحيح ست عشرة آنه في الروبية(**). وافق ميت سينج وهو يفرك بطنه.

أحسَّ إقبال أن مزاجه يرتفع، فقال بحماس: إنهم عرق من جماعة الأربعمئة والعشرين (الفقرة ٤٢٠ في قانون العقوبات الهندي تعني جريمة الغش). لاتصدقوا ما يقولون.

مرة ثانية شعر أن سهمه أخطأ الهدف. ولكن ابنة السيد الكبير التي تجلس متربّعة بعينين مغمضتين من أجل الصور الصحفية والسيد الكبير نفسه الوسيم الذي يتكلم الهندوستانية ابن عم الملك الذي يحب الهند مثل المبشرين ـ كانا دائماً مشكلة بالنسبة لإقبال.

(*) هكذا في الأصل.

(**) الروبية تعادل ١٦ آنه. (م)

ـ عشت في بلادهم سنوات عديدة. إنهم لطيفون كبشر، ولكن من الناحية السياسة فإنهم من كبار جماعة الأربعمئة والعشرين في العالم. ما كان يمكنهم أن ينشروا سيطرتهم على العالم لو كانوا شرفاء. ليس ذلك موضوعنا على كل حال، أضاف إقبال. فقد حان الوقت لتغيير الموضوع (المهم ما الذي سيحدث الآن؟).

ـ (نحن نعلم ما الذي يحدث الآن). أجاب اللامباردار بشيء من الحرارة (رياح التدمير تهب على الأرض، كل ما نسمعه هو اقتل، اقتل. الوحيدون الذين يتمتعون بالحرية هم اللصوص والحرامية والسفاحون) ثم أضاف بهدوء (كنا أفضل حالاً بكثير تحت سيطرة الانكليز. على الأقل كنا نعيش بأمان).

ساد صمت قلق. ثمة قاطرة تنتقل من خط إلى آخر تعيد ترتيب شحنتها من عربات البضائع. غيَّر المسلم الموضوع:

ـ إنها قطارات البضائع. لابد أن الوقت متأخّر. بابو صاحب، هل أنت متعب؟ يجب أن ندعك ترتاح. عندما تحتاجنا سنكون دائماً في خدمتك؟

نهض الجميع. صافح إقبال زوَّاره دون أن يبدو عليه أيّ أثرٍ للغيظ قاد ميت سينج المسلم واللامباردار إلى الفناء ثم أوى إلى سريره هناك.

مرة أخرى استلقى إقبال وراح يحدّق إلى النجوم. أشعره عويل القاطرة في السهل الواسع الساكن بالعزلة والانقباض. ماذا بمقدوره ــ رجل واحد صغير ــ أن يفعل وسط هذا القتل الفظيع؟ من الواضح أن لاشيء. الجميع ــ الهندوس والمسلمون والسيخ وجماعة المؤتمر وجماعة الرابطة وجماعة أكالي والشيوعيون ــ منخرطون فيه. من الطفولة الافتراض أن الثورة البورجوازية يمكن أن تتحول إلى ثورة بروليتارية. لم تنضجْ المرحلة بعد. لم تكن البروليتاريا مكترثة بالحرية السياسية في الهندوستان أو الباكستان إلا حين تعطى معنى اقتصادياً كالاستيلاء على الأرض عَبر قتل

مالِكٌ من طائفة دينية مختلفة. كل ماكان يمكن عمله هو تحويل غريزة (اقتل واستولِ) من القنوات الطائفية وصبّها ضد طبقة الملاك. تلك ثورة البروليتاريا بأسهل السبل. لن يرى زعماء حزبه ذلك.

تمنى لو أنهم أرسلوا أحداً آخر إلى مانوماجرا. أما هو فسوف يكون أكثر فائدة في توجيه السياسة وتنظيف عقول زعماء الحزب من شباك العناكب. هو، لم يصُمْ. ولم يدخل السجن أبداً. ولم يقم بأيّ من (التضحيات) الضرورية، لذلك، طبيعي، لن يصغي إليه أحد. كان يجب أن يبدأ حياته السياسية بإيجاد ذريعة لعقوبة سجن قضائية. ولكن لايزال هناك متسع من الوقت. سوف يقوم بذلك حالما يعود إلى دلهي، عندئذٍ تكون المجازر قد انتهت ويكون الأمر مضموناً تماماً.

غادر قطار البضائع المحطة وكان يطقطق فوق الجسر. غرق إقبال في النوم حالماً بحياة هانئة في السجن.

* * *

في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي اعتُقل إقبال.

كان ميت سينج قد خرج إلى الحقول يحمل إبريقاً نحاسياً من الماء ويمضغ غصناً من الكيكار كان يستخدمه كفرشاة أسنان. كان إقبال مستغرقاً في النوم لم توقظه طقطقة مرور القطارات ولانداء المؤذن ولا أنواع الضجيج الأُخرى في القرية. دخل شرطيان إلى الغواردارا، نظرا في غرفته، تفحّصا ما له من أكواب سيلولودية وصحون ومعالق ألمنيوم لامعة وشوك وسكاكين. تفحّصا ترمسه ثم صعدا إلى السطح. هزّا إقبال بخشونة. تجلّس في سريره وهو يفرك عينيه مرتبكاً بعض الارتباك. وقبل أن يستطيع تخمين الوضع وصياغة الردود المقتضبة التي يود إعطاءها، أخبرهما اسمه ومهنته. ملأ أحدهما مساحات فارغة على قطعة صفراء من ورق مطبوع وأمسكها أمام عيني إقبال الواجفتين.

ـ هذا تفويض باعتقالك. انهض!

انتزع الشرطي الآخر زوجاً من الأصفاد من حزامه وفك الحلقتين كي يضعهما في معصمي إقبال. مشهد الأصفاد أوصل إقبال إلى اليقظة التامة. فزّ من السرير وواجه الشرطيين.

ـ (لاحق لكما باعتقالي هكذا) صرخ أنتما كتبتما التفويض أمامي. لن ينتهي الأمر هنا. أيام حكم البوليس انتهت. إذا تجرأتما أن تضعا أيديكما علي فسوف يسمع كل العالم بذلك. وسأعلم كيف أجعل الصحافة تخبر الشعب كيف تنفذون واجبكم أيها الفتيان.

أجفل الشرطيان. لهجة الشاب ووسائده وفراشه المطاطي وكل الأشياء الأخرى التي شاهداها في الغرفة، وفوق كل شيء موقفه الهجومي، جعلهما قلقين. شعرا أنهما ربما ارتكبا خطأً ما.

ـ بابو صاحب، نحن نقوم بواجبنا. أنت سوِّ الأمر مع الحاكم. قال أحدهما بتهذيب. بينما الآخر كان يعبث بالأصفاد قلقاً.

ـ (سأسوّي الأمر معكم جميعاً، شرطة وحاكماً. تعالوا أزعجوا الناس من نومهم! لسوف تندمان على هذا الخطأ!) انتظر إقبال من الشرطيين أن يقولا شيئاً ما كي يتمكن من مواصلة خطبته ضد القانون والنظام. لكنهما هَمَدا.

ـ (عليكما أن تنتظرا. سأغتسل واغير ملابسي وأترك أشيائي في عهدة أحدٍ ما) قال إقبال بعدائية مانحاً إياهما فرصة أخرى ليقولا شيئاً.

ـ لابأس، بابو صاحب. خذ الوقت الذي تشاء.

الموقف الحضاري للشرطيين نفّس غضب إقبال. جَمَع أشياءه ونزل السلّم إلى غرفته، مضى إلى البئر وسحب دلواً من الماء وأخذ يغتسل. لم يكن على عجلة من أمره.

عاد الباي ميت سينج وهو يفرشي أسنانه بهمّة بنهاية غصن كيكار

كان قد مضغه حتى جعله مثل فرشاة ليفية. لم يفاجئه وجود الشرطيين في الغوردوارا فحيثما يأتون إلى القرية ولايجدون وسائل الراحة في بيت اللامباردار يجيئون إلى المعبد. لقد كان ينتظر مجيئهم بعد جريمة قتل المرابي.

ـ سات سري أكال. قال رامياً فرشاة أسنان الكيكار.

سات سري أكال. ردّ الشرطيان.

ـ هل ترغبان ببعض الشاي أو شيء ما؟ شنينه؟

ـ نحن ننتظر البابو صاحب، قال الشرطيان. إذا كان بإمكانك أن تقدم لنا شيئاً بينما هو يستعد فسيكون هذا لطفاً منك.

حافظ ميت سينج على لامبالاة عادية. ليس من شأنه أن يجادل الشرطة أو يحشر نفسه في عملهم، من المرجح أن إقبال (رفيق). إن كلامه يوحي بذلك بالتأكيد.

ـ (سأعد بعض الشاي له أيضاً) أجاب ميت سينج ونظر إلى إقبال وقال (أم أنك تريد الشاي من الزجاجة الكبيرة؟).

ـ شكراً جزيلاً. أجاب إقبال من خلال معجون الأسنان الذي في فمه ثم بصقه (لابد أن الشاي الذي في الزجاجة بارد الآن. سأكون شاكراً لك على كوب من الشاي الساخن. هل تمانع أن تهتم بأشيائي حتى أعود؟ إنهم يعتقلونني لشيء ما. هما نفسهما لايعرفان لماذا.

تظاهر ميت سينج أنه لم يسمع. بدا الارتباك على الشرطيين.

ـ نحن لاذنب لنا، بابو صاحب، لماذا أنت غاضب منا؟ اغضب من الحاكم. قال أحدهما.

راح إقبال يفرشي أسنانه متجاهلاً الاحتجاج. غسل وجهه وعاد إلى الغرفة وهو يمسح وجهه بمنشفة. نفّس الفراش والوسادة ولفّهما. ثم أفرغ

الحقيبة من محتوياتها: كتب، ملابس، بيل، بطحة فضية. كَتَبَ قائمة بأشيائه وأعادها، وحين أحضر ميت سينج الشاي ناوله إقبال الحقيبة.

ـ باي جي، وضعت كل أشيائي في الحقيبة. آمل أن لايضايقك أن تكون في عهدتك فأنا أثق بك أكثر مما أثق بشرطة بلدنا الحر هذا.

حوّل الشرطيان وجهيهما وشعر ميت سينج بالإحراج.

ـ (أكيد، بابو صاحب). قال بصبر (أنا خادمك كما أنا خادم الشرطة. كل إنسان على الرحب والسعة هنا. هل تحب أن تشرب الشاي بكوبك الخاص؟).

أخرج إقبال ملعقته وكوبه السيلولودي. تناول الشرطيان أكواباً نحاسية من ميت سينج. لفّا النهاية الحرّة من عمامتيهما حول الكوبين ليقيا أيديهما من النحاس الحار. ولكي يطمئنا نفسيهما ارتشفا الشاي بصوت مسموع. غير أن إقبال كان يسيطر تماماً على الوضع. كان يجلس على السرير الشريطي في حين جلس الشرطيان على العتبة وميت سينج على الأرض في الخارج. لم يجرؤ الشرطيان على التكلم معه مخافة خشونته. قام الشرطي الذي يحمل الأصفاد بوضعها في جيبه. أنهيا شايهما ورفعا نظريهما بقلق. كان إقبال يجلس متجهماً يحدّق من فوق رأسيهما بحدّة مشحونة بالأهمية. راح يحملق في الفضاء بنظرة فارغة وهو يرتشف شايه بين فينة وفينة على طريقة العوانس. وحين انتهى هبّ واقفاً.

ـ أنا جاهز. أعلن ومدّ يديه على نحو مسرحي. ضعا الأصفاد.

ـ لاداعي للأصفاد بابوجي، أجاب أحد الشرطيين. من الأفضل أن تغطي وجهك وإلا سوف يتعرفون عليك في استعراض التعرف.

ـ انقضّ إقبال على الفرصة (أعلى هذا النحو تؤدون واجبكم؟ إذا كان القانون يقضي بضرورة تقييدي إذن يجب أن أُقيَّد. أنا لست خائفاً من أن يتعرفوا علي فأنا لست مجرماً أو سارقاً. أنا عامل سياسي. سآمر عبر

القرية على حالتي هذه كي يتسنى للناس أن يروا ماذا يفعل رجال الشرطة بمن لايروق لهم.

كان هذا الانفجار أقوى من أن يحتمله أحد الشرطيين فردَّ عليه بحدّة:

ـ (بابوجي، طوال الوقت نحن لطفاء معك. طوال الوقت نقول لك (جي، جي). ولكنك تريد أن تجلس على رؤوسنا. قلنا لك مئة مرّة أننا نقوم بواجبنا لكنك مُصرّ على الاعتقاد أن هناك ضغينة شخصية) واستدار إلى زميله (ضع الأصفاد في يدي الرجل. ويمكنه أن يفعل بوجهه مايشاء. لو كان لي وجه كهذا لرغبت في إخفائه. سوف نبلغ أنه رفض أن يغطي وجهه).

لم يكن لدى إقبال رداً جاهزاً على هذه السخرية. كان لديه وعي سامي بأنفه المعقوف، فمسحه عفواً بظاهر يده. دائماً تنفّره الإشارة إلى مظهره الجسدي. أطبقت الأصفاد على رسغيه وبقيت مربوطة بسلسلة إلى حزام الشرطي.

ـ سات سري أكال، باي جي. لن أتأخر.

ـ سات سري أكال إقبال سينج جي. ليحمل الغورو. سات سري أكال أيها الخفيران.

ـ سات سري أكال.

خرج الثلاثة من فناء المعبد تاركين ميت سينج واقفاً وبيده إبريق الشاي.

* * *

حين كان الشرطيان قد ذهبا لاعتقال إقبال كانت مجموعة أخرى من عشرة عناصر قد أُرسلت لاعتقال جوغوت سينج. أحاط رجال الشرطة بمنزله من كل الجهات. على سطوح الجيران وأمام ووراء بيته تمركزت

عناصر مسلحة بالبنادق، ثم اندفع إلى الفناء ستة آخرون مسلحون بالمسدسات. كان جوغوت سينج مستلقياً على سريره مغطى من رأسه إلى قدميه بشرشف أبيض قذر وهو يشخر بقوة. فقد قضى يوماً وليلتين في الغاب دون طعام أو مأوى وجاء إلى القرية في ساعات الصباح الأولى، واعتقد أن أبناء القرية نيام جميعاً. لكن الجيران كانوا يقظين وأبلغوا الشرطة على الفور، وهؤلاء انتظروا إلى أن ملأ نفسه بالطعام وغرق في النوم. وكانت أمه قد خرجت وأرتجتْ الباب من الخارج.

وضع رجال الشرطة القيود في قدمي جوغوت سينج والأصفاد في رسغه الأيمن بينما هو نائم. أعادت الشرطة مسدساتها إلى قِرابها ثم انضم إليهم في الفناء شرطة البنادق وراحوا ينخسون جوغوت بأعقاب بنادقهم.

ـ انهض يا جوغا، صارت الدنيا بعد الظهر.

ـ أرأيتم كيف ينام مثل خنزير لاهم له في العالم.

جلس جوغا في سريره مرفرفاً جفنيه. حدّق في القيود والأصفاد بحيادية فلسفية. ثم فتح ذراعيه على اتساعهما وتثاءب بصوت عالٍ. عاوده النوم فابتدأ يكبو من جديد.

دخلت أم جوغا فرأت فناء بيتها مكتظاً برجال الشرطة المسلحين، وابنها يجلس على سريره ورأسه يرتاح بين يديه المغلولتين، وعيناه مغمضتان. هرعت إليه واحتضنت ركبتيه ووضعت رأسها في حضنه وأخذت تبكي. أفاق جوغا من استغراقه ودفع أمه عنه بخشونة.

ـ (لماذا تبكين؟) قال (أنت تعلمين أن لاعلاقة لي بجريمة السلب).

ابتدأت الأم تعوّل (لاعلاقة له. لم يفعل شيئاً من أجل اسم الإله. أقسم أنه لم يفعل شيئاً).

ـ إذن أين كان ليلة وقوع الجريمة؟ قال المساعد

ـ كان في حقوله. لم يكن مع اللصوص. أقسم أنه لم يكن معهم.

ـ (إنه بودماش ممنوع من مغادرة القرية بعد غياب الشمس. علينا أن نعتقله بسبب ذلك على أي حال) وأشار إلى رجاله (فتشوا الغرفة وحظيرة الماشية). كان المساعد يشكّ في أن يشترك جوغا في جريمة سلب في قريته. لم يكن ذلك مألوفاً.

انشغل أربعة من رجال الشرطة في التفتيش. أفرغوا الصناديق الفولاذية والعلب التنكية. نبشوا المتبن وتبعثر التبن في الفناء. ودون صعوبة عثروا على الرمح.

ـ أفترض أن خالك هو الذي وضع هذا هنا، قال المساعد بفظاظة مخاطباً الأم (لفّ النصل بقطعة قماش فقد يكون عليه آثار دم).

ـ ليس عليه آثار شيء، صرخت الأم. لاشيء. إنه يحتفظ به لقتل الخنازير البرّية التي تتلف المحصول. أقسم أنه بريء.

ـ سوف نرى. أبعد المساعد الأم. من الأفضل لك أن تقدمي دليل براءته للحاكم.

كفّت العجوز عن العويل فقد كان لديها الدليل حقّاً ـ كيس الخلاخل المحطّمة. لم تخبر جوغا بأمرها مخافة أن تثور ثائرته من هذه الإهانة ويستخدم العنف ضد شخص ما. الآن وقد بات مغلول اليدين والقدمين لم يعد يقوى على أكثر من الغضب.

ـ انتظر يا أخي الشرطي، لدي الدليل.

راقب الشرطي المرأة تذهب وتحضر رزمة من قعر صندوقها الفولاذي. نزعت الغلاف الورقي البنّي عنه. كانت ثمة قطع مكسورة من خلاخل حمراء وزرقاء عليها بقع ذهبية، اثنتان منها سليمتان. تناولها المساعد.

ـ أية براهين هذه؟

ـ رماها اللصوص في الفناء بعد الجريمة. أرادوا أن يهينوا جوغا لأنه

لم يذهب معهم. أرأيت؟ مدت يديها. أنا أصبحت عجوزاً على لبس الخلاخل الزجاجية كما أنها صغيرة جداً على رسغي.

ـ إذن لابد أن جوغا يعرف هؤلاء اللصوص. ماذا قالوا حين رموها؟ سأل المساعد.

ـ لاشيء. لم يقولوا شيئاً. شتموا جوغا..

ـ ألا تستطيعين إغلاق فمك؟ قاطعها جوغا بغيظ. أنا لا أعرف من هم اللصوص. الذي أعرفه فقط هو أنني لم أكن معهم.

ـ من الذي ترك لك الخلاخل؟ سأل المساعد الذي أمسك القطع الزجاجية بيديه مبتسماً.

طار صواب جوغا. رفع يديه المغلولتين وأنزلهما بقوة على راحتي المساعد.

ـ أيُّ مغوٍ لأمه يستطيع رمي الخلاخل علي؟ أيٌّ...

تحلّق الشرطة حوله وراحوا يصفعونه ويركلونه بأبواطهم الخشنة. جلس جوغا على مؤخرته مغطياً رأسه بذراعيه وابتدأت أمه تلطم جبهتها وتصرخ من جديد. كسرت حلقة الشرطة ورمت نفسها عليه.

ـ لاتضربوه، ليلعنكم الغورو جميعاً، إنه بريء. إنها غلطتي. اضربوني أنا إذا شئتم.

توقف الضرب. انتزع المساعد نثرات من راحته وضغط الدم منها ومسحها بمنديله.

ـ أنت احتفظي بدليل براءة ابنك. قال بلؤم، ونحن سننتزع القصة من ابن العاهرة هذا بطريقتنا الخاصة. سوف يتكلم بعد أن ينال بضعة سياط على قفاه.

اقتيد جوغوت سينج من البيت موثق اليدين والقدمين. غادر دون أن

يظهر أثراً من عاطفة تجاه أمه التي لم تنفك تعول وتضرب جبهتها وصدرها. كانت كلمات فراقه:

ـ سأعود قريباً. لايمكنهم أن يعطوني أكثر من بضعة أشهر لحيازتي رمحاً وخروجي من القرية. سات سري أكال.

استعاد جوغوت صوابه بالسرعة التي فقده بها. نسي حادثة الخلاخل والضرب حالما تخطّى العتبة. لم يكن يكنُّ حقداً أو نية سيئة تجاه عناصر الشرطة: فهم ليسوا بشراً كبقية الكائنات البشرية. ليس لديهم مشاعر حب أو إخلاص أو عداوة. مجرد رجال بزيّ رسمي تحاول أن تتجنبهم.

تغطية وجه جوغا أمرٌ شبه نافل فكل القرية تعرفه. مرَّ بالقرويين وهو يبتسم رافعاً يديه المقيدتين محيياً الجميع. أجبرته القيود التي في قدميه أن يمشي ببطء مباعداً ما بين ساقيه. كان في خطواته مرحٌ طائش وقد أظهر عدم اكتراثه عبر فتل شاربيه الأصهبين وإطلاق النكات الفاحشة مع عناصر الشرطة.

انضمت الدورية التي اعتقلت إقبال إلى تلك التي اعتقلت جوغا عند النهر. ساروا معاً بمحاذاة المجرى تجاه الجسر. المساعد في المقدمة والعناصر المسلحة على الجانبين وخلف السجينين. ضاع إقبال في اللون الخاكي والأحمر لبزّاتهم أما رأس جوغا وكتفاه فقد برزت فوق عمائم عناصر الشرطة. كان ذلك أشبه بقافلة من الجياد يتوسطها فيل أطول وأعرض وأبطأ وتصِلُّ سلاسله كزينة الخيول الاحتفالية.

بدا أن لارغبة لأحد في الكلام. عناصر الشرطة قلقون. يعلمون أنهم ارتكبوا خطأً وربما خطأين. كان اعتقال العامل الاجتماعي خطأً فادحاً ومصدراً للمتاعب ربما. إن موقفه المقاتل يؤكد براءته. يجب فبركة قضية ما له. كان ذلك نوع من الخداع يمارسونه باستمرار مع المثقفين. أما جوغوت سينج فمن الواضح تماماً أنه ضحية وليس الفاعل الحقيقي. صحيح أنه خرق القانون بمغادرته القرية ليلاً لكن من غير المرجح أن يكون قد شارك

اللصوص في السطو على قريته، وكان يمكن التعرف عليه بسهولة نظراً لحجمه الهائل. كما أن من الواضح تماماً أن هذين الشخصين لم يسبق لهما أن تقابلا قبل الآن.

جُرِحَت كبرياء إقبال، فحتى وقت لقائه مع جوغوت سينج كان لديه الانطباع بأنه معتقل بسبب نشاطه السياسي، لذلك أصرَّ أن يكبل بالأصفاد لكي يرى القرويون مدى كرامة سلوكه، فلا بد أن يغتاظوا من انتهاك الحريات المدنية على هذا النحو. غير أن رجال القرية فغروا أفواههم بغباء وراحت النسوة يسترقن النظر من تحت خمرهن، كل منهن تسأل الأخرى (من هذا؟). حين انضمّ إقبال إلى المجموعة المرافقة لجوغوت سينج فهم معنى نصيحة الشرطيين له (استرْ وجهك وإلّا قد يتعرفون عليك في استعراض التعرف) فقد اعتقل لسبب ما يتعلق بجريمة قتل رام لال. لم يستطع تصديق الأمر، إنه غباء بالغ، فالجميع يعلم أنه جاء إلى مانوماجرا بعد الجريمة وفي الواقع أنه جاء على نفس القطار مع عناصر الشرطة. يمكن أن يكونوا شهوداً على وجوده خارج مكان الجريمة لحظة وقوعها. كان الوضع أسخف من أن تصفه الكلمات، لكن شرطة البنجاب ليسوا من النوع الذي يعترف بارتكاب الأخطاء. سوف يلفقون له تهمة ما: التشرد، إعاقة الموظفين عن أداء واجبهم، أو شيء من هذا القبيل. لسوف يقاتلهم بيديه وأسنانه.

الوحيد في المجموعة الذي بدا لامبالياً كان جوغوت سينج. فقد سبق له أن اعتقل وقد قضى في السجن زمناً يعادل الزمن الذي قضاه في بيته. علاقته مع الشرطة وراثية فالسجل رقم عشرة في مخفر الشرطة الذي يحوي نشاطات الشخصيات الفاسدة في المنطقة كان يحمل اسم أبيه ألام سينج حين كان حياً. أدين ألام سينج بجريمة سلب وقتل وأعدم شنقاً، واضطرت أم جوغوت أن ترهن كل الأرض كي تدفع للمحامين. وكان على جوغوت سينج أن يؤمن النقود لكي يحرر الأرض وقد فعل ذلك في غضون سنة. لم يستطع أحد إثبات كيف جمع هذه النقود ولكن في نهاية

السنة اعتقلته الشرطة ودخل اسمه في السجل رقم عشرة وأعلن رسمياً كرجل ذي شخصية فاسدة. من وراء ظهره الجميع يشيرون إليه بـ (رقم عشرة).

نظر جوغوت سينج إلى السجين الذي بجواره عدة مرات. رغب أن يبدأ معه حديثاً. كانت عينا إقبال مثبتتين أمامه وهو يمشي على طريقة ممثل يعرف أن الكاميرا تصوره وهو يواجه العدسات. نفد صبر جوغوت سينج:

ـ اسمع، من أي قرية أنت؟ سأل وابتسم كاشفاً عن مجموعة أسنان متساوية مرصّعة بنقاط ذهبية في مراكزها.

رفع إقبال ناظريه ولكنه لم يرد على الابتسامة بابتسامة.

ـ أنا لست قروياً. أنا قادم من دلهي. أُرسلتُ كي أنظّم الفلاحين، لكن الحكومة لاتحب تنظيم الناس.

صار جوغوت سينج مهذباً وتخلّى عن نبرة رفع الكلفة.

ـ سمعت أن لنا الآن حكمنا الخاص. حكومة المهاتما غاندي في دلهي، أليس كذلك؟ هكذا يقولون في قريتنا.

ـ أجل. لقد رحل الانكليز، لكن الأغنياء الهنود حلّوا محلّهم. ماذا نلت أنت أو أبناء قريتك من الاستقلال؟ زادت زبدتكم أو ملابسكم؟ لازلتم تحت الأصفاد والأغلال التي قيدكم بها الانكليز. علينا أن نتوحد وننتفض. ليس لنا ما نخسره سوى قيودنا. أكد إقبال على الجملة الأخيرة بأن رفع يديه أمام وجهه ونترهما كما لو أن الحركة سوف تحطم الأغلال.

تبادل رجال الشرطة النظر فيما بينهم.

نظر جوغوت سينج إلى الأسفل، إلى القيود حول كاحليه وقضبان الحديد التي تربط قيود القدمين إلى أصفاد اليدين.

ـ أنا (بودماش). كل الحكومات تضعني في السجن.

ـ ولكن، قاطعه إقبال غاضباً، ما الذي جعلك بودماش؟ الحكومة! الحكومة هي التي تضع القوانين وتفرضها من خلال السجلات وعناصر الشرطة والسجانين. لديها قانون يحيل أي شخص لايعجبها إلى شخصية فاسدة أو مجرم. ما الذي...

ـ لا، بابو صاحب، اندلع جوغوت سينج بمزاج مرح، إنه قدرنا مكتوب على جبيننا وعلى خطوط أكفنا. دائماً أتمنى أن أعمل شيئاً ما عندما يكون لدي حراثة أو حصاد تجدني مشغولاً، وعندما لايكون لدي ما أعمله تحكّني يداي كي أعمل شيئاً، ولذلك أعمل شيئاً ما ويكون دائماً شيئاً خاطئاً.

عبروا تحت الجسر واقتربوا من بيت الاستجمام. نفر إقبال من الرضا الذاتي لجوغوت سينج. لم يكن راغباً في أن يضيع جهده في مجادلة مع شخصية فاسدة ريفية، أراد أن يوفر كلماته لمواجهة الحاكم. سيكلمه بالانكليزية ـ اللهجة ستجعله يرتبك.

حين وصلت الشرطة مع السجينين أمر المفتش بأخذهما إلى مساكن الخدم. كان الحاكم يرتدي ملابسه في غرفته. ترك المساعد السجينين مع عناصره وعاد إلى بيت الاستجمام.

ـ من هو هذا الشاب الضئيل الذي أحضرتموه؟ سأل المفتش بادياً عليه شيء من القلق.

ـ اعتقلته بناء على أوامر منك. إنه الغريب الذي يقيم في المعبد السيخي.

اغتاظ المفتش من الجواب:

ـ لم أفترض أنك لاتحمل دماغاً في رأسك! أترك لك شيئاً من المسؤولية وإذا بك تجعل من نفسك أحمقاً. كان يجب أن تراه قبل أن تعتقله. أليس هو الشخص نفسه الذي جاء معنا في القطار البارحة؟

ـ القطار؟ استفسر المساعد متصنعاً الجهل. لم أره في القطار، يا

راعي الفقراء. القضية وما فيها أنني نفذت أوامرك واعتقلت الغريب الذي يتسكع في القرية في ظل ظروف مشبوهة.

طار صواب المفتش.

ـ حمار!

تفادى رئيس الدورية نظرة معلمه.

ـ أنت حمار من مكان ما. كرر المفتش بعنف أشد، أليس لديك دماغ على الإطلاق؟

ـ يا راعي الفقراء، ما الخطأ الذي....

ـ سكّر بوزك!

راح المساعد يحدق إلى قدميه. ترك المفتش مزاجه يهدأ ـ إذ كان عليه مقابلة هوكوم تشاند الذي كان يعتمد عليه ولايتوقع الخذلان. بعد شيء من التفكير استرق المفتش النظر عبر باب الشاش السلكي.

ـ هل تسمح لي بالدخول؟

ـ ادخل، ادخل، مفتش صاحب. أجابه هوكوم تشاند. لاتلتزم بالرسميات دخل المفتش وحيّا.

ـ إه، ماذا فعلتم؟ سأل الحاكم وهو يفرك مرهماً على ذقنه المحلوقة حديثاً. كان على طاولة الزينة كأسٌ في قعرها قرصٌ أبيض مسطح مرسلاً سيلاً من الفقاعات.

ـ سيدي، لقد اعتقلنا شخصين هذا الصباح. أحدهما هو البودماش جوغوت. كان خارج منزله ليلة وقوع الجريمة. لابد أن نحصل منه على بعض المعلومات. الآخر هو الغريب الذي أبلغنا عن حضوره اللامباردار وأمرتَ باعتقاله.

توقف هوكوم تشاند عن فرك ذقنه، فقد استبان محاولة لزق الاعتقال الثاني به.

ـ من هو هذا؟

ـ صاح المفتش للمساعد الواقف في الخارج

ـ ما اسم الرجل الذي اعتقلته من المعبد السيخي؟

ـ إقبال

ـ إقبال ماذا؟ سأل الحاكم بصوت عال

ـ سأعرف لك حالاً سيدي. ركض المساعد باتجاه مساكن الخدم قبل أن يثور عليه الحاكم. أحس هوكوم تشاند أن مزاجه ابتدأ يثور. أخذ رشفة من كأسه. جرجر المفتش قدميه بقلق. بعد دقائق قليلة عاد المساعد وسعل معلناً عن عودته.

ـ سيدي، سعل ثانية، سيدي إنه يقرأ ويكتب. إنه متعلم.

استدار الحاكم إلى الباب غاضباً.

ـ هل له أم وأب ودين أم لا؟ متعلم!

ـ سيدي، تلعثم المساعد، يرفض أن يخبرنا اسم أبيه ويقول أن لادين له. يقول أنه سيتكلم معكم.

ـ اذهب واعرف. زأر الحاكم. اجلده بالسوط على قفاه إلى أن يتكلم.

اذهب... لا، انتظر، المفتش صاحب سيقوم بذلكِ.

كان هوكوم تشاند مهتاجاً. جرع الماء الفوار من الكأس ومسح رأسه بمنشفة الحلاقة. تجشأ فخفف ذلك من حنقه المتصاعد.

ـ يا لكم من رجال فهيمين، أنت وعناصرك! تعتقلون الناس دون أن تعرفوا أسماءهم أو دينهم أو أهلهم. تجعلونني أوقع لكم على تفويضات بيضاء. يوماً ما سوف تعتقلون المحافظ وتقولون أن هوكوم تشاند أمركم بذلك. سوف تتسببون بطردي من وظيفتي.

ـ يا راعي الفقراء، سأذهب وأتفحص الأمر. هذا الرجل وصل

مانوماجرا البارحة. سوف أعرف نسبه وعمله.

ـ حسناً، إذن اذهب ولاتكتفِ بالوقوف والتحديق. نبح هوكوم تشاند.

لم يكن من عادته أن يفقد اتزانه أو أن يكون فظّاً. بعد أن غادر المفتش فحص لسانه في المرآة ووضع قرص سيلتزر آخر في الكأس.

خرج المفتش وتوقف على الشرفة ليأخذ بضعة أنفاس عميقة. لقد حسم غضب الحاكم موقفه فقد قرر اتباع خط متشدد ووضع حد للتردد. مضى إلى مساكن الخدم. كان إقبال يقف مع مرافقيه بعيداً عن جوغوت سينج والحشد المحيط به. كان الشعور بالكبرياء المجروحة ظاهراً على الشاب. رأى المفتش أن من الأفضل ألا يتحدث إليه.

ـ فتشوا ملابس هذا الرجل. أدخلوه أحد المساكن وعرّوه. أنا نفسي سأفتشه.

بقي الخطاب الذي كان قد أعده إقبال حبيساً في ذهنه. سحبه الشرطي سحباً بواسطة الأصفاد إلى الغرفة. تلاشت مقاومته. خلع قميصه وأعطاه للشرطي. دخل المفتش ودون أن يكلف نفسه تفتيش القميص أمَرَ: اخلع سروالك. شعر إقبال بالإهانة. لم يبق فيه قدرة مهما تكن على المواجهة.

ـ لايوجد جيوب في السروال. لايمكن إخفاء أي شيء فيه.

ـ اخلع سروالك ولاتجادل. ضرب المفتش بنطاله الخاكي بِمخصرته تأكيداً للأمر.

فك إقبال تكة السروال فسقط متكوماً حول كاحليه. كان عارياً سوى من الأصفاد حول رسغيه. خلع قدميه من السروال كي يسمح للشرطي بتفتيشه.

ـ لا، لاداعي لذلك. أعلن المفتش. لقد رأيت كل ما أريد رؤيته.

يمكنك ارتداء ملابسك. تقول إنك عامل اجتماعي. ماذا كانت مهمتك في مانوماجرا؟

ـ أرسلني الحزب. أجاب إقبال وهو يعيد ربط تكّة سرواله.

ـ أي حزب؟

ـ حزب الشعب في الهند.

نظر المفتش إلى إقبال بابتسامة لئيمة.

ـ حزب الشعب في الهند؟ كرر ببطء لافظاً كل كلمة على حدة. أنت متأكد أنه ليس الرابطة الإسلامية؟

لم يلتقط إقبال فحوى السؤال

ـ لا، لماذا أكون عضواً في الرابطة الإسلامية؟ أنا...

خرج المفتش من الغرفة قبل أن يتمكن إقبال من إتمام جملته، وأمر الشرطة بأخذ السجينين إلى المخفر. عاد إلى (البنغل) كي ينقل اكتشافه إلى الحاكم. كان على وجهه ابتسامة خنوع.

ـ يا راعي الفقراء، الأمور على ما يرام. يقول أن حزب الشعب أرسله ولكني واثق أنه من الرابطة الإسلامية. فهما متقاربان جداً. كان يفترض بنا أن نعتقله على أية حال. إذا كان يعدّ لإثارة المشاكل قرب الحدود نستطيع تدبير تهمة له لاحقاً.

ـ من أين لك أن تعرف أنه من الرابطة الإسلامية؟

ابتسم المفتش بثقة:

ـ جعلتهم يعرّونه أمامي.

هزّ هوكوم تشاند الكأس ليحرك حثالة الطبشور التي في القاع وشرب على مهل القسم الباقي من السيلتزر. نظر بتأمل إلى الكأس الفارغة وأضاف:

ـ املأ تفويض الاعتقال على نحو صحيح. الاسم: محمد إقبال ابن

محمد كذا كذا أو فقط الأب غير معروف. الدين: مسلم الوظيفة: عامل لدى الرابطة الإسلامية.

حيّا المفتش على نحو مسرحي.

ـ انتظر، انتظر. إذا عملتَ عملاً أتممه. أَدْخِلْ في مفكرة المخفر كلمات تفيد بأنه لم يتم العثور بعد على قاتلي رام لال ولكن من المتوقع التوصل إلى معلومات عنهم قريباً. ألم تقل أن جوغا قد يفيدنا في ذلك؟

ـ نعم سيدي. رمى اللصوص في فناء منزله خلاخل زجاجية قبل مغادرتهم. من الواضح أنه رفض الانضمام إليهم في مغامرتهم.

ـ حسناً. خذ الأسماء منه بسرعة. اضربه إذا اقتضى الأمر.

ابتسم المفتش.

ـ سأحصل على الأسماء منه في غضون أربع وعشرين ساعة ودون ضرب.

ـ أجلَ أجل. احصل عليها بالطريقة التي تشاء. أجابه هوكوم تشاند بنفاذ صبر وأضاف:

ـ (أيضاً سجل حادثي اعتقال اليوم على صفحتين منفصلتين من مفكرة المخفر بحيث يكون بينهما مواد أخرى. لا أريد خروقات مرة ثانية).

مرة أخرى حيا المفتش.

ـ سأهتم بهذا الأمر جيداً يا سيدي.

* * *

نُقل إقبال وجوغا إلى مخفر تشوندونغر (Chundungger) في عربة خيل. أعطي إقبال مكان الشرف وسط المقعد الأمامي. وجثم السائق على العمود بجانب خاصرة الحصان تاركاً مقعده فارغاً في حين جلس جوغا على المقعد الخلفي بين شرطيين. كانت رحلة طويلة ومغبرة على طريق غير معبدة توازي سكة القطار. كان جوغا الشخص الوحيد المطمئن بينهم. فهو

يعرف رجال الشرطة وهم يعرفونه، كما لم يكن الوضع غريباً عليه.

ـ لابد أن لديكم العديد من السجناء في المخفر هذه الأيام. قال.

ـ (لا، ولا سجين) أجاب شرطي (نحن لانعتقل المشاغبين إنما نفرّقهم فقط. وليس لدينا الوقت للتعامل مع جرائم أخرى. اعتقالكما هو الاعتقال الوحيد الذي نقوم به منذ أسبوع. الزنزانتان فارغتان. كل منكما يستطيع الانفراد بزنزانة.

ـ بابوجي سيرتاح لذلك. قال جوغا. أليس كذلك بابوجي؟

لم يردّ إقبال. شعر جوغا أنه مُزدرى قليلاً فحاول تغيير الموضوع سريعاً.

ـ لاشك أن عندكم الكثير من العمل بسبب حكاية هندوستان وباكستان الجارية الآن. لاحظ جوغا متوجهاً إلى الشرطي.

ـ أجل. عندنا كل هذا القتل وقوة الشرطة صارت أقل من النصف.

ـ لماذا؟ هل انضموا إلى الباكستان.

ـ لاندري ما إذا انضموا إلى الجانب الآخر. كانوا يقولون دائماً أنهم لايريدون الذهاب بتاتاً. يوم الاستقلال نزع المدير صاحب السلاح من الشرطة المسلمين، ففرّوا. كانت نواياهم شريرة. هكذا هم المسلمون. لايمكنك الوثوق بهم.

ـ (أجل) أضاف شرطي آخر (إن إنحياز الشرطة المسلمين هو الذي غيّر الأمر في أحداث الشغب. الشباب الهندوس في لاهور كانوا قادرين أن يذيقوا المسلمين الجحيم لولا شرطتهم. لقد مارسوا الكثير من الظلم(*). جيشهم فعل الشيء نفسه أيضاً. كان الجنود البالوشيون يطلقون النار حيثما كانوا متأكدين أنه ليس هناك فرصة للاصطدام بوحدات من السيخ أو الفورخا.

ـ أين سيهربون من الإله، لا أحد يستطيع الهرب منه. قال جوغا

سينج بقوة.

بدت الدهشة على الجميع. حتى إقبال التفت ليتأكد أن الصوت هو صوت جوغا.

ـ صحيح أم لا، بابوجي؟ أنت رجل ذكي، قلْ لي، هل يستطيع الإنسان أن يهرب من غضب الله.

لم يقل إقبال شيئاً.

ـ كلا، بالطبع لا. أجاب جوغا نفسه. أقول لك شيئاً أخبرنيه ميت سينج إنه يستحق الاستماع، بابوجي. إنه يعادل ست عشرة آنه في الروبيه.

كل روبية يعادل ست عشرة آنه. قال إقبال في نفسه ورفض أن يكترث. تابع جوغا:

ـ أخبرني الباي عن شاحنة مليئة بالجنود البالوشيين في طريقها من أمريستار إلى لاهور. حين اقتربوا من الحدود الباكستانية راحوا يطعنون السيخ السائرين على الطريق بحرباتهم. يخفف السائق من سرعته بجوار سائق دراجة هوائية أو أحد المشاة فيقوم الجنود الواقفين على مدوسة العربة بطعنه في الظهر عندئذٍ ينطلق السائق مسرعاً. قتلوا الكثير من الناس على هذا النحو وكانوا يشعرون بالمزيد من السعادة مع اقترابهم من الحدود الباكستانية. كانوا على بعد ميل واحد من الحدود وكانوا منطلقين بسرعة هائلة. ماذا تظنّ حدث لهم.

ـ ماذا؟ سأل شرطي مهذب. كان الجميع منغمسين في الإصغاء ما عدا إقبال. حتى الحوذي كفّ عن سوط الحصان وراح ينظر إلى الخلف.

ـ اسمع بابوجي. هذا يستحق الاستماع. ركض كلب شارد عبر الطريق فقام السائق، السائق نفسه المسؤول عن قتل العديد من الناس،

(*) هكذا في الأصل.

بالانحراف إلى اليمين بحدّة ليتفادى الكلب، كلب شارد أجرب، فاصطدم بشجرة. قتل السائق واثنان من الجنود وجرح البقية جروحاً بالغة. ماذا تقولون عن ذلك؟

همهم رجال الشرطة مستحسنين الحادثة. شعر إقبال بالانزعاج.

ـ من الذي تسبب في الاصطدام الكلب أم الإله؟ سأل على نحو ساخر.

ـ الإله بالطبع. أجاب شرطي. ما الذي يجعل الرجل الذي يستمتع بقتل البشر يكترث بسحق كلب شارد تحت عجلاته؟

ـ (قل لي أنت) قال إقبال ببرود. لقد أخمد الجميع باستثناء جوغا الذي لم يكن قابلاً للسيطرة عليه. استدار جوغا إلى الحوذي الذي ابتدأ يسوط حصانه من جديد.

ـ بولا، ألا تخاف الإله؟ كيف تضرب حيوانك هكذا بلا رحمة؟

توقف بولا عن ضرب الحصان والامتعاض بادٍ عليه ـ لقد كان حصانه ويستطيع بالتالي أن يفعل به ما يشاء.

ـ بولا. كيف الشغل هذه الأيام؟ سأل جوغا محاولاً تصليح الأمر.

ـ (الإله رحيم) أجاب الحوذي مشيراً إلى السماء بسوطه. ثم أضاف بسرعة (والمفتش صاحب رحيم أيضاً. إننا أحياء ونتدبر أمر إملاء كروشنا).

ـ ألا تجني أموالاً كثيرة من هؤلاء المهاجرين الذين يريدون الذهاب إلى باكستان؟

ـ وأخسر حياتي من أجل المال؟ سأل بولا بغضب (لا، شكراً يا أخي. احتفظ بنصيحتك لنفسك. عندما يهجم قطيع البشر فإنه لاينتظر كي يعرف من أنت، هندوسي أم مسلم، فقط يقتل. ذات يوم مرّ أربعة جنود سيخ يركبون سيارة جيب في طابور طويل من اللاجئين المسلمين

على الطريق، وفتحوا النار عليهم من بنادقهم الرشاشة دون تحذير. أربعة رشاشات ستن! الإله وحده يعلم كم قتلوا من الناس. ماذا يحصل إذا استولى قطيع من البشر على عربتي وهي مليئة بالمسلمين؟ سوف يقتلونني أولاً وبعد ذلك يسألون.

ـ لماذا لم يأت كلبٌ ما تحت عجلات الجيب ويقلبها؟ سأل إقبال متهكّماً.

ساد صمت حرج. لم يعرف أحد ماذا يجيب هذا البابو العكر المزاج. سأل جوغا بسذاجة:

ـ بابوجي، ألا تعتقد أن من يزرع الشر يحصد الشر؟ إنه قانون الكارما. هكذا يقول الباي دائماً. والغورو قال الشيء ذاته في الكتاب.

ـ أجل، بالتأكيد. ست عشرة آنه في الروبيه. سخر إقبال.

ـ أتشاجي، افهمها على طريقتك. أنت لن توافق أبداً الناس العاديين. والتفت ثانية إلى الحوذي:

ـ بوليا، سمعت أنه يجري اختطاف النساء وبيعهنّ بأسعار زهيدة بإمكانك أن تجد لك زوجة.

ـ لماذا، ساردار، إذا كنت أنت عثرت على مسلمة دون أن تدفع شيئاً فهل أنا مخصي كي أضطر لشراء امرأة مخطوفة؟ أجاب بولا.

صُدَّ جوغا وابتدأ يفقد أعصابه. توجهت أنظار عناصر الشرطة الذين راحوا يكتمون ضحكاتهم إلى جوغا سينج. ندم بولا على غلطته.

ـ (مابك يا جوغيا) قال مغيراً نبرته (أنت تسخر من الآخرين ولكنك تغضب إذا صدّك أحد ما).

ـ لولا هذه القيود على يدي وقدمي لكسرت كل عظمة في جسمك. قال جوغا بعنف (أنت محظوظ، نجوت اليوم ولكن إذا سمعتك

تكرر ذلك مرة ثانية فسأنتزع لسانك من فمك) بصق جوغا بصوت مسموع.

كان بولا مرعوباً (لاتفقد أعصابك ـ أنا لم...).

ـ ابن زنا!

كانـت تلك نهاية الحديث. لم يكسر الصمت القلق في العربة سوى شتائم الحوذي لحصانه. ضاع جوغا في أفكار غاضبة. دهشه أن لقاءاته السرّية كانـت معروفة من الجميع. من المرجّح أن أحداً ما قد رآه يتحدث مع نوران وهذا ما أثار النميمة. فإذا كان سائق العربة من تشوندونغر يعرف، إذن كل أبناء مانوماجرا يتكلمون بهذا الأمر منذ بعض الوقت. آخر من يسمع بالنميمة أصحاب الشأن. قد يكون الإمام بكش وابنته نوران الوحيدين في القرية اللذين لايعرفان شيئاً عما يقال.

وصلت المجموعة إلى /تشوندونغر/ بعد الظهر. توقفت العربة أمام مخفر الشرطة التي تبعد عن البلدة حوال نصف كيلومتر. اقتيد السجينان عبر بوابة مقنطرة مكتوب عليها بحروف كبيرة (على الرحب والسعة). أُخِذا أولاً إلى غرفة التبليغ فتح المساعد سجلاً ضخماً ودوّن مواد أحداث اليوم على صفحات منفصلة. كان ثمة فوق الطاولة صورة قديمة (مبروظة) للملك جورج السادس مع تصريح يقول باللغة الأوردية (الرشوة جريمة). وهناك على حائط آخر صورة لغاندي مأخوذة من روزنامه ومكتوب تحتها باللغة الانكليزية شعار (النزاهة هي السياسة الفضلى) وكان في الغرفة صور أخرى للفارّين والشخصيات الفاسدة والبودماشات والأشخاص المفقودين.

بعد تدوين المواد اليومية في المفكرة، اقتيد السجينان عبر الفناء إلى الزنازين. ثمة زنزانتان فقط في المخفر تقابلان ثكنة الشرطة على الجانب الآخر من الفناء. حائط النهاية البعيدة من الساحة مغطى بنبات علّيق سكة الحديد.

وصول جوغا موضوع مرحٍ صاخب دائماً.

ـ أوه، ها أنت تعود من جديد. أتظنّ أن هذا بيت حميك؟ صرخ شرطي من مهجعه.

ـ إنه كذلك نظراً لعدد بنات الشرطة اللواتي أغويتهن. أجاب جوغا بأعلى صوته وقد نسي انزعاجه في العربة.

ـ أوه، بودماش. هل ستبقى بودماش. انتظر حتى يأتي سيادة المفتش ويسمع ما قلت وسوف يضع الفلفل الحار في مؤخرتك.

ـ لايمكنكم أن تفعلوا ذلك مع صهركم.

الأمر كان مختلفاً مع إقبال، رفعوا عنه الأصفاد واعتذروا له. ووضعوا في زنزانته كرسياً وطاولة وسرير. وجمع المساعد كل الصحف اليومية والمجلات بالانكليزية أو الأدوية التي عثر عليها ووضعها في الزنزانة. قدّموا له الطعام على طبق نحاسي ووضعوا إبريقاً صغيراً وكأساً زجاجية على الطاولة بجوار سريره. لم يكن في زنزانة جوغا أي أثاث. أما الطعام فقد ألقوه عليه، بالمعنى الحرفي.. أكل طعامه بيديه وصبّ له شرطي الماء عبر القضبان في حفنتيه المجموعتين. أما سرير جوغا فكان الأرضية الاسمنتية الصلبة.

اختلاف المعاملة لم يثر دهشة إقبال ففي بلدٍ أقرّ بالتمييزات الطائفة منذ قرون عديدة، أصبحت اللامساواة مفهوماً ذهنياً فطرياً. وإذا ألغى التشريع الطائفية فإنها تظهر مجدداً بأشكال من التمييز الطبقي ففي الدوائر المغرّبة كلياً مثل الموظفين المدنيين في السكرتاريا الحكومية في دلهي، يتم تصنيف أماكن توقيف السيارات حسب علوّ الوظيفة، وهناك مداخل معينة إلى المكاتب محجوزة للموظفين الكبار. المراحيض مصنّفة وفقاً لمستوى الوظيفة ومعلّمة: موظفون كبار. موظفون أدنى. كتّاب وناسخون ومراتب أخرى. بوجود بنية ذهنية مبوَّبة فئوياً إلى هذا الحد، فإن تصنيف أناس متهمين أو مدانين بجريمة واحدة، تصنيفهم حسب مكانتهم الاجتماعية. أمرٌ لايبدو متناقضاً. إقبال من الطبقة (أ) وجوغا من الحضيض (ج).

بعد وجبة الظهر استلقى إقبال على السرير. سمع شخيراً من زنزانة جوغا. أما هو فكان القلق يمنعه من النوم. كان ذهنه مثل النابض الدقيق للساعة الذي يهتزّ لساعات عديدة لمجرد أن تلمسه. جلس على سريره وراح يتصفّح كومة الصحف التي تركها له المساعد. كلها متشابهة: الأخبار نفسها المقالات نفسها. الافتتاحيات باستثناء صياغة الترويسات من الممكن أن تكون جميعها مكتوبة بيدٍ واحدة. حتى الصور كانت واحدة. تحول بَرِماً إلى إعلانات الزواج. يكون ثمة بعض التسلية. ولكن شباب البنجاب كانوا متشابهين تشابه الأخبار. الصفات التي يريدونها في الزوجة كانت متطابقة. كلهم يريدونها عذراء. قلّةٌ منهم، أوسع أفقاً من البقية، مستعدون للتفكير بالأرامل ولكن شرط أن يكنَّ غير مفضوضات البكارة. كلهم يريدون من المرأة أن تكون ماهرة في (ش. ت.م) أي شؤون التدبير المنزلي. بالنسبة للمتحضّرين والأقل تزمتاً فإن الطاء والميم (الطائفة والمهر) ليسا مشكلة. عدد قليل منهم طلب صوراً فوتوغرافية للزوجة المقبلة. الجمال مسألة سطحية لاتتعدى الجلد، هكذا تبيّنَّ لهم معظمهم أراد «التوافق في الأبراج» فالانسجام الفلكي هو الضمان الوحيد للسعادة. رمى إقبال الصحف بعيداً وراح يتصفّح المجلات. إن لم تكن كالجرائد فقد كانت أسوأ. هناك المقالة التي لامفرّ منها عن اللوحات الجصّية لكهف /أجانتا/(*) هناك المقالة عن الباليه الهندي، وهناك مقالة عن /طاغور/ ومقالة عن قصص /بريح تشاند/ ومقالات عن الحيوات الخاصة لنجوم الأفلام. استسلم إقبال واستلقى ثانية. شعر بالانقباض من كل شيء. خطر في ذهنه أنه قلّما غفلت عيناه منذ ثلاثة أيام وتساءل ما إذا كان ذلك يعتبر «تضحية». ربما. يجب أن يجد طريقة ما لتوصيل كلمة إلى الحزب، عندئذٍ ربما... أخذه النوم على رؤى ترويسات تملأ الصفحات الأولى تعلن عن اعتقاله والإفراج عنه وانبثاقه المظفّر بوصفه قائداً.

* * *

(*) قرية في غرب الهند مشهورة بكهوفها البوذية المنحوتة في الجروف الغرانيتية. يعود تاريخها من القرن الأول إلى السابع الميلادي فيها أديرة ومعابد يضمّ بعضها لوحات رائعة تصور الحياة في عصرها. (م)

في المساء جاء أحد عناصر الشرطة إلى زنزانة إقبال حاملاً كرسياً آخر.

ـ هل سيشاركني الزنزانة سجين آخر؟ سأل إقبال بشيء من الخشية.

ـ لا، بابوجي. فقط المفتش صاحب يرغب في التحدث إليك قليلاً. إنه قادم الآن.

لم يجب إقبال. درس الشرطي موقع الكرسي لحظة ثم انسحب. كان ثمة رنين أصوات في الممر، ثم ظهر المفتش.

ـ هل تأذن لي بالدخول؟

ـ أومأ إقبال برأسه (ما الذي تريده مني مفتش صاحب؟).

ـ نحن خدّام لديك يا سيد إقبال. أنت تأمر ونحن نطيع. أجاب المفتش بابتسامة. كان فخوراً بقدرته على تغيير نبرته وأسلوبه كما تقتضي الظروف هذه هي الدبلوماسية.

ـ لم أكن أعلم أنكم لطفاء إلى هذا الحد مع أناسٍ اعتقلتموهم بتهمة جريمة قتل، لقد أحضرتني إلى هنا بتهمة جريمة قتل، أم أنني مخطئ؟ لا أظن أن عناصرك قد أخبروك أنني جئت إلى مانوماجرا البارحة على القطار نفسه الذي جاؤوا عليه.

ـ نحن لم نوجه لك أية تهمة. هذا من اختصاص المحكمة. نحن نعتقلك على الشبهة وحسب. إننا لانستطيع قبول محرّضين سياسيين في المناطق الحدودية. واصل المفتش بابتسامة (لماذا لاتذهب وتنشر دعايتك في الباكستان إلى حيث تنتمي؟).

أحسّ إقبال بلسعةٍ أثارت أعصابه لكنه حاول أن يكتم أي علامة غضب.

ـ ماذا تعني بالضبط بقولك (الباكستان إلى حيث تنتمي) مفتش صاحب؟

ـ أنـت مسلم. اذهب إلى الباكستان.

ـ هذا كذب قذر، انفجر إقبال. والأكثر من ذلك هو أنك تعرف أنه كذب قذر. تريد فقط أن تغطي على غبائك بتلفيق تهمة زائفة.

ردّ عليه المفتش بعصبية.

ـ عليك أن تحفظ لسانك يا سيد إقبال. أنا لا أتقاضى راتباً من والدك كي أتحمل ألفاظك. اسمك إقبال وأنـت مختون. أنا فحصتك بنفسي. إضافة إلى أنك لاتستطيع تقديم أي تفسير لوجودك في مانوماجرا هذا يكفي.

ـ هذا لن يكفي عندما تصل الأمور إلى المحكمة والصحافة. أنا لست مسلماً. وليس هذا هو ما يهم. وسبب مجيئي إلى مانوماجرا شيء لايخصُّك بتاتاً. وإذا لم تطلق سراحي في غضون ٢٤ ساعة سأحرّك قضية حول شرعية اعتقالي وأخبر المحكمة طريقتكم في أداء واجباتكم.

ـ قضية حول شرعية اعتقالك. زأر المفتش ضاحكاً. يبدو أنك عشت في البلدان الأجنبية وقتاً طويلاً للغاية يا سيد إقبال. وحتى الآن لاتزال تعيش في جنة الحمقى. سوف تعيش وتتعلم.

غادر المفتش الزنزانة على نحو سريع وأقفل البوابة المقضّبة بالفولاذ. ثم فتح البوابة الأخرى حيث كان جوغا محتجزاً.

ـ سات سري أكال. مفتش صاحب.

لم يعترف المفتش على التحية.

ـ ألن تكفّ عن كونك بودماش أبداً؟

ـ يا ملك اللؤلؤ، يمكنك أن تقول ما تشاء ولكني بريء هذه المرّة أقسم بالغورو أنني بريء.

ظل جوغا جالساً على الأرضية وكان المفتش واقفاً متكئاً على

الحائط.

ـ أين كنت ليلة الجريمة؟

ـ لاعلاقة لي بالجريمة. أجاب جوغا مراوغاً.

ـ أين كنت ليلة الجريمة؟ كرر المفتش.

أطرق جوغا برأسه (ذهبت إلى حقولي. كان دوري في السقاية).

عرف المفتش أنه يكذب (أستطيع أن أتأكد من مواعيد السقاية عند عامل القناة. هل أخبرت اللامباردار أنك ستغادر القرية؟).

اكتفى جوغا بأن جرَّ قدميه وظل مطرقاً برأسه.

ـ قالت أمك أنك خرجت كي تطرد الخنازير البرية.

واصل جوغا جرّ قدميه. وبعد صمت طويل قال مرة أخرى.

ـ لاعلاقة لي بالجريمة. أنا بريء.

ـ من هم اللصوص؟

ـ يا ملك اللؤلؤ. من أين لي أن أعرفهم؟ كنت خارج القرية وقت الجريمة وإلا هل تعتقد أنه كان يجرؤ إنسان أن يسرق ويقتل في مانوماجرا؟

ـ من هم اللصوص؟ كرر المفتش مهدداً (أعرف أنك تعرفهم، هم يعرفونك بالتأكيد، فهم تركوا لك هدية من الخلاخل الزجاجية).

لم يردّ جوغا.

ـ هل تريد أن تجلد على قفاك أو أن يوضع الفلفل الحار في مستقيمك قبل أن تتكلم؟

جفل جوغا. فهو يعرف ما الذي عناه المفتش. لقد جرّبه مرةً. يضعون اليدين والقدمين تحت قوائم الأسرّة ويجلس عليها دزينة من عناصر الشرطة. يلوون الخصيتين ويعصرونهما إلى أن يفقد المرء الإحساس بالألم. ويدفعون

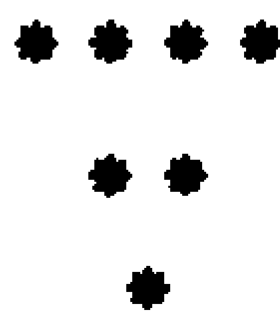
مسحوقاً من الفلفل الأحمر في المستقيم بأيدٍ خشنة. وتبقى بضعة أيام تشعر أن مؤخرتك على نار. كل هذا ويمنعون عنك الطعام والماء ويضعون طعاماً ساخناً مبهّراً وابريقاً من الماء الصافي البارد خارج الزنزانة بعيداً عن متناولك. هزّته الذكرى.

ـ (لا!) قال جوغا (لأجل الإله، لا) ورمى نفسه على الأرض واحتضن حذاء المفتش بكلتا يديه (أرجوك، يا ملك اللؤلؤ) وشعر بالخجل من نفسه، لكنه كان يعلم أنه لن يستطيع إطلاقاً تحمّل تعذيبٍ كهذا مرةً أخرى. (أنا بريء. لأجل اسم الغورو، لاعلاقة لي بالجريمة).

حين رأى المفتش كل هذا الطول يتذلل عند قدميه شعر بالبهجة. لم يعرف شخصاً واحداً يصمد أمام الألم الجسدي، شخصاً واحداً. يتعيّن اختيار طريقة التعذيب بعناية. البعض يخضع للجوع والبعض من أمثال إقبال يخضع لمشقّة أن تجبره على التغوّط أمام رجال الشرطة. والبعض الآخر للذباب الذي يأكل وجوههم المطلية بالدبس وأيديهم مقيدة إلى الخلف. والبعض لنقص النوم. في النهاية يخضع الجميع.

ـ سأمهلك يومين لتخبرني أسماء اللصوص وإلا سوف أجلد قفاك حتى يغدو مثل ليّة الكبش.

حرّر المفتش قدميه من يدي جوغا وخرج. كانت زيارتاه غير موفقتين. سوف يضطر إلى تغيير تكتيكه. لقد كان من المحبط التعامل مع شخصين مختلفين تماماً هكذا.



الكاليوغ

في وقت مبكّر من شهر أيلول (سبتمبر) ابتدأ جدول الزمن في مانوماجرا يضطرب. صارت القطارات أقل دقة في مواعيدها وابتدأ بعضها يعبر القرية ليلاً. في بعض الأيام كان يبدو كما لو أن المنبه رُبط على الساعة الخطأ، وفي أيام أخرى كما لو أن أحداً لم يتذكر أن يربطه. الإمام بكش كان ينتظر ميت سينج كي يبدأ، وهذا كان ينتظر نداء الملّا للصلاة قبل أن ينهض من فراشه. الناس يمكثون في أسرّتهم دون أن يعلموا أن المواعيد تغيّرت وأن قطار البريد قد لايأتي البتّة. لم يعد الأولاد يعرفون متى يجوعون، راحوا يطالبون بالطعام طوال الوقت. في المساءات يدخل الجميع منازلهم قبل غروب الشمس وينامون قبل مرور قطار الاكسبرس، هذا إذا مرّ. أما قطارات البضائع فقد كفّت عن المرور جملةً، ولذلك لم يبق ثمة تهويدة ينامون عليها. بدلاً من ذلك كانت تعبر قطارات الأشباح في ساعات غريبة بين منتصف الليل والفجر معكّرةً صفو أحلام مانوماجرا.

ليس هذا فقط ما غيّر حياة القرية. فقد وصل جنود سيخ ونصبوا الخيم قرب محطة القطار. بنوا مربعاً بارتفاع ستة أقدام من أكياس الرمل حول قاعدة الإشارة قرب الجسر. ووضعوا رشاشاً على كل وجه. وابتدأ حرّاس مسلّحون يقومون بأعمال الدورية على الرصيف ولم يُسمح للقرويين بالاقتراب من الدرابزين. كل القطارات القادمة من دلهي كانت تتوقف وتغيّر سائقيها وحرّاسها قبل أن تتابع طريقها إلى الباكستان. والقطارات القادمة من الباكستان كانت تعبر القرية وهي تزعق ارتياحاً وفَرَجاً.

ذات صباح توقف في محطة مانوماجرا قطار قادم من الباكستان. لم

يكن على سطحه أحد، ولم يكن أحد متعلقاً على مواطئ العربات أو بين العربات. لقد كان مختلفاً على نحوٍ ما. ثمة شيء غير مريح حوله. كانت له صفة شبحية. حالما توقف عند الرصيف انبثق الحارس من نهاية القطار ودخل إلى مكتب مدير المحطة، ثم سارا معاً إلى خيم الجنود وتكلما مع الضابط المسؤول. تمّ استدعاء الجنود وطلب من القرويين المتواجدين حول المحطة العودة إلى مانوماجرا. وأُرسل رجل على درّاجة نارية إلى تشوندونغر. بعد ساعة برز المفتش بصحبته حوالي خمسين شرطياً. وفي الحال حضر بعدهم السيد هوكوم تشاند في سيارته الأمريكية.

خلق وصول قطار الأشباح في وضح النهار بلبلة في مانوماجرا ـ وقف الناس على أسطحة المنازل كي يروا ما الذي يجري في المحطة ـ كل ما استطاعوا رؤيته كان السطح الأسود للقطار يمتد من إحدى نهايتي الرصيف إلى الأخرى. لقد حجب بناء المحطة والدرابزين القطار عن النظر. وأحياناً كان يخرج جندي أو شرطي من المحطة ويعود ثانية.

عند العصر، تجمع الرجال في مجموعات صغيرة وراحوا يناقشون موضوع القطار. اندمجت المجموعات مع بعضها تحت شجرة التين ثم ذهب الجميع إلى الغوردوارا. تجمعت النسوة، اللائي كن قد ذهبن من باب إلى باب يتبادلن الأقاويل، في بيت اللامباردار وانتظرن عودة الرجال ليخبروهن ما علموا بشأن القطار.

هكذا كانت الأمور تجري دائماً في مانوماجرا حين يحدث شيء ذو شأن. تذهب النساء إلى بيت رأس القرية ويذهب الرجال إلى المعبد. لم يكن ثمة قائد معترف عليه في القرية. رأس القرية، بانتا سينج، لم يكن في الواقع سوى جابي الأتاوة (لامباردار). هذا المنصب كان في عائلته لأجيال عديدة. لم يكن لديه أراضٍ أكثر من الآخرين ولم يكن رأساً بأي معنى آخر. لم يكن متفاخراً. كان فلاحاً نشيطاً متواضعاً كبقية أبناء القرية، ولكنه حاز مكانة رسمية على اعتبار أن الموظفين الحكوميين والشرطة يتعاملون

معه. لم يكن أحد يناديه باسمه، فقد كان (لامباردار) كأبيه وجدّه وجدّ جدّه من قبله.

الوحيدان من الرجال اللذان يدلوان بآرائهما في اجتماعات القرية كانا: الإمام بكش، ملّا الجامع، والباي ميت سينج. الامام بكش كان حائكاً. والحائكون يشكلون تقليدياً موضوعاً للتنكيت في البنجاب حيث يعتبرونهم مخنّثون وجبناء. عرق من الرجال الذين تركب لهم زوجاتهم قروناً دائماً، بإقامتهن علاقات مع رجال آخرين. ولكن سنّ وتُقى الإمام بكش جعلاه محترماً. وبعد سلسلة من المآسي في أسرته صار موضوعاً للشفقة ومن ثم للحب. البنجابيون يحبّون الانسان الذي يستطيعون أن يشفقوا عليه. ماتت زوجته وابنه الوحيد بفارق أيام معدودة بينهما. وعيناه، السيئتان أصلاً، ساءتا فجأة ولم يعد قادراً على العمل على أنواله. فتحوَّل إلى متسول وابنته نوران طفلة تعتني به. ابتدأ يعيش في المسجد ويعلم أولاد المسلمين القرآن. وكان يكتب آيات من القرآن للقرويين يلبسونها كتعويذات أو يبتلعها المريض كدواء. وكان يعتاش مع ابنته على عطايا من الدقيق والخضار والطعام والملابس المستعملة. لديه كنز مذهل من الحكايات والأمثال التي كان الفلاحون يتوقون لسماعها. له مظهرٌ يفرض الاحترام. رجل طويل نحيل رأسه خالٍ سوى من خطٍ من الشعر الأبيض يلتف حول الرأس من الأذن إلى الأذن، وله لحية بيضاء حريرية مشذبة بأناقة، يصبغها أحياناً بالحنّة فتغدو بلونٍ غامق بين البرتقالي والأحمر. قامته منتصبة بالرغم من سنيه الستين. كل هذا أعطى لحضوره كرامةً وهالةً من العصمة. كان أهل القرية يعرفونه ليس على أنه الإمام بكش أو الملّا بل على أنه (تشا تشا) أو العمّ.

لم يكن ميت سينج يثير نفس الاحترام والحب. كان مجرد فلاح اتّخذ من الدين مهرباً له من العمل. لديه قطعة أرض صغيرة أجرّها وهي إضافةً إلى اعطيات المعبد تؤمن له حياةً مريحة. ليس عنده زوجة ولا أولاد.

لم يتعلم في الكتب المقدسة وليس لديه قدرة على المحادثة ـ حتى مظهره كان ضدّه فهو قصير وسمين ومشعر. له من العمر ما للإمام بكش لكن لم يكن للحيته شيئ من صفاء لحية الامام بكش. كانت سوداء فيها خطوط رمادية. كما أنه لم يكن أنيقاً. فهو لايرتدي عمامته إلا عندما يقرأ الكتاب المقدس، سوى ذلك فإنه يمضي وشعره الطويل مربوط برباط رخو يمسكه مشط خشبي صغير ونصف شعره تقريباً يتبعثر على قفا رقبته. نادراً ما يلبس ثوباً. لباسه الوحيد سروال قصير وسخ دائماً. غير أن ميت سينج رجل سلام. لم يسمم الحسد يوماً حبّه للإمام بكش. كان يشعر فقط أن من واجبه تجاه طائفته أن يقول شيئاً ما عندما يقدم الإمام بكش أية اقتراحات. دائماً يكون لحديثهما تيار خفي من التنافس الودّي.

جوٌّ من السوداوية أحاط بالاجتماع في الغوردوارا. لم يكن لدى الناس ما يقولونه، والذين تكلموا منهم تكلموا ببطء كالأنبياء.

افتتح الإمام بكش النقاش (ليرحمنا الله. إننا نعيش في أوقاتٍ عصيبة).

ـ أجل، أيام عصيبة. تنهّد البعض بكآبة.

ـ أجل، تشاتشا. إنه الكاليوغ. العصر الأسود. أضاف ميت سينج. كان ثمة صمت طويل. تململ الناس بقلق وهم جالسون على أقفيتهم.

تثاءب البعض قائلين استرحامات عالية للإله وهم يغلقون أفواههم:

ـ يا الله. واه غورو. واه غورو.

ـ (لامباردارا)، ابتدأ الإمام بكش مرّة ثانية (يجب أن تعلم ما الذي يجري. لماذا لايرسل النائب صاحب وراءك؟).

ـ كيف لي أن أعرف، تشاتشا؟ حين يرسل إليّ سأذهب. إنه أيضاً في المحطة ولايسمحون لأحد بالاقتراب.

اندفع شابٌ ريفي بصوتٍ مرتفعٍ مرحٍ.

ـ إننا لن نموت الآن وسوف نعرف ماذا يجري قريباً. إنه قطار بعد كل شيء. قد يكون محملاً بكنوز حكومية أو بأسلحة ولذلك فهم يحرسونه. ألم تسمعوا أن العديد من القطارات قد تعرض للنهب؟

ـ اخرس. وبّخه أبوه الملتحي غاضباً، عندما يوجد الكبار ما الحاجة لكلامك.

ـ أنا فقط....

ـ فهمنا! قال الأب بصرامة. ولبعض الوقت لم يتفوّه أحد بكلمة.

ـ لقد سمعت، قال الإمام بكش بهدوء وهو يسرّح لحيته بأصابعه، أنه وقعت حوادث عديدة للقطارات.

كلمة «حوادث» أثارت شعوراً قلقاً لدى المستمعين.

ـ أجل، سمعنا عن العديد من الحوادث. وافق ميت سينج بعد حين.

ـ إننا فقط نطلب من الله الرحمة. قال الإمام بكش مغلقاً الموضوع الذي افتتحه هو نفسه.

أضاف ميت سينج دون أن يقصد أن ينافس الإمام بكش في الاسترحام إلى الإله (واه غورو، واه غورو).

جلسوا في صمت تقطعه التثاؤبات وهمهمات (يا الله، إي واه غورو) بعض الناس الذين على هامش الاجتماع تمددوا على الأرض وناموا.

على حين غرّة، ظهر شرطي في باب الغوردوارا. نهض اللامباردار وثلاثة إلى أربعة من القرويين. أفاق النيام. وأولئك الذين كانوا ينوسون بين النوم واليقظة جلسوا في انبهار متعجّبين (ما الأمر؟ ماذا هناك؟) ثم بسرعة لفّوا عمائمهم حول رؤوسهم.

ـ من هو لامباردار القرية؟

تقدم بانتا سينج إلى الباب. أخذه الشرطي جانباً وهمس له شيئاً ما. وحين استدار بانتا سينج ليعود قال الشرطي بصوت مرتفع:

ـ بسرعة، خلال نصف ساعة. هناك شاحنتان عسكريتان تنتظران بجوار المحطة. سأكون هناك.

مضى الشرطي مسرعاً.

تجمع القرويون حول بانتا سينج. امتلاكه للسرّ أعطاه نفحةً من الأهمية وامتلك صوته نبرة سلطوية.

ـ ليجمع كل شخص ما لديه من خشب في بيته وكل زيت الكاز الذي يستطيع الاستغناء عنه وليحضره إلى الشاحنتين اللتين بجوار المحطة. سيدفعون لكم.

انتظر القرويون أن يخبرهم السبب لكنه أمرهم بالابتعاد على نحو فظ.

ـ هل أنتم طرشان؟ ألم تسمعوا؟ أم تريدون البوليس أن يجلدكم على أقفيتكم قبل أن تتحركوا؟ هيّا بسرعة.

تفرق الناس في دروب القرية متهامسين. وذهب اللامباردار إلى منزله.

بعد دقائق قليلة ابتدأ القرويون يجتمعون خارج القرية بجانب المحطّة ومعهم رزم من الخشب وزجاجات الكاز. كان ثمة شاحنتان كبيرتان بلون أخضر وَخْليّ تقفان متجاورتين وقبالة حائط طيني كان صفٌ من صفائح البترول الفارغة وفي الحراسة جندي سيخي يحمل بندقية (ستين) وكان سيخي آخر، ضابط، له لحية ملفوفة بأناقة في شبكة شعرية، يجلس على خلفية إحدى الشاحنتين وقدماه متدليتان يراقب تكديس الخشب في الشاحنة الأخرى ويومئ برأسه ردّاً على تحيات القرويين. وقف اللامباردار إلى جواره يسجّل أسماء القرويين والكميات التي ساهموا بها. بعد أن رموا

رزم الخشب التي أحضروها على الشاحنة وأفرغوا زجاجات الكاز بصفائح البترول تجمع القرويون على مسافة احترام من الضابط.

وضع الإمام بكش الخشب الذي كان قد حمله على رأسه في الشاحنة وسلّم زجاجة الكاز للامباردار ثم أعاد ربط عمامته وحيًّا الضابط بصوت مرتفع:

ـ السلام عليكم سردار صاحب.

ـ أشاح الضابط بوجهه.

بادر الإمام بكش ثانيةً.

ـ كل شيء على ما يرام. أليس كذلك سردار صاحب؟

استدار الضابط فجأةً وردّ بنزق: (هيّا، ألا تراني مشغولاً؟)، حليماً، انضمّ الإمام بكش إلى القرويين وهو لايزال يسوّي عمامته. بعد تحميل الشاحنتين أخبر الضابط اللامباردار أن يأتي إلى المعسكر صباح اليوم التالي لاستلام النقود. رعدت الشاحنتان متجهتين صوب المحطة.

أحاط قرويون متلهفون بيانتا سينج الذي شعر أنه مسؤول بشكل ما عن الإساءة التي لحقت بالإمام بكش. كان القرويون ساخطين عليه.

ـ أوه لامباردارا لماذا لاتخبرنا شيئاً ما؟ ما هذا السرّ العظيم الذي تحمله؟ أنت تعتقد على ما يبدو أنك أصبحت شخصاً بالغ الأهمية ولم تعد بحاجة للكلام معنا. قال ميت سينج بغضب.

ـ كلا يا باي، كلا لو كنت أعلم، فلماذا لا أخبركم؟ إنكم تتكلمون كالأولاد. كيف يمكنني أن أتجادل مع الجنود والشرطة. إنهم لم يخبروني شيئاً. ألم ترَ كيف تكلم غرمول الخنزير ذاك مع تشاتشا؟ الاحترام الذاتي بين يدي الإنسان. لماذا أجلب الإساءة إلى نفسي بأن أخلع عمامتي؟

بلباقة اعترف الإمام بكش بالتلميح.

ـ لامباردار محق. إذا نبح الشخص الذي تتكلم إليه فمن الأفضل أن تحافظ على هدوئك. لنذهب جميعاً إلى بيوتنا. يمكنكم رؤية ما يجري من فوق أسطحتكم.

تفرق القرويون إلى سطوح منازلهم من حيث أمكن رؤية الشاحنتين في المعسكر قرب المحطة. انطلقت الشاحنتان مرة أخرى واتجهتا شرقاً على طول سكّة الحديد إلى أن تجاوزتا الإشارة ثم انعطفتا إلى اليسار بحدة وارتجّتا عبر سكة القطار. انعطفتا أيضاً إلى اليسار وعادتا على طول السكة نحو المحطة وغابتا خلف القطار.

وقف القرويون على أسطحة منازلهم طوال ما بعد الظهر يتبادلون الصراخ كلٌّ يسأل الآخر إذا كان قد رأى شيئاً. وقد نسوا في غمرة إثارتهم أن يعدّوا وجبة الظهر. الأمهات قدمن إلى أولادهن البقايا البائتة من اليوم الماضي. لم يتسنَّ لهن الوقت لإشعال مواقدهن. نسي الرجال الماشية، لم يعلفوها ولم يحلبوها مع اقتراب المساء. فقط حين صارت الشمس تحت أقواس الجسر أدرك الجميع أنهم سهوا عن شؤونهم اليومية. سرعان ما سيحل الظلام ويطالب الأولاد بالطعام ولكن مع ذلك كانت عيون النساء معلّقة على المحطة يراقبن. خارت البقرات والجواميس في الزرائب ولكن مع ذلك ظل الرجال ينظرون جهة المحطة. كل شخص كان يتوقع حدوث شيء ما.

غاصت الشمس وراء الجسر مضيئةً الغيمات التي ظهرت في السماء بتدرّجات من اللون الخمري والنحاسي والبرتقالي. ثم انصهرت ظلال رمادية في التوهج الوردي حين ترك المساء مكانه للغسق وغاص الغسق في الظلمة. صارت المحطة حائطاً أسود. نزل الرجال والنساء إلى أفنية منازلهم تعبين وداعين الآخرين للنزول أيضاً. لم يريدوا أن يرى الآخرون شيئاً دونهم.

ظهر الأفق الشمالي بعد أن كان قد تحول إلى رمادي مزرق، برتقالياً

من جديد وتحول البرتقالي إلى نحاسي ثم إلى خمري مضيء. تواثبت ألسنة حمراء من اللهب إلى السماء السوداء. وابتدأت تهبّ على القرية نسمة لطيفة كان لها رائحة الكيموسين المحروق ثم الخشب المحروق وبعدئذ رائحة لاذعة خفيفة للحم بشري محترق.

خيم على القرية صمت القبور. لم يسأل أحدٌ أحداً عمَّ تكون هذه الرائحة، كلهم عرفوا. كانوا يعلمون بالأمر طوال الوقت فقد كان الجواب مُتضمَّناً في حقيقة أن القطار قد جاء من الباكستان.

في المساء، لأول مرة في ذاكرة مانوماجرا لم ترتفع الصرخة المدوية للإمام بكش إلى السماء معلنةً مجد الله.

* * *

ألقت أحداث النهار بظلالها الكئيبة على بيت الاستجمام. السيد هوكوم تشاند ترك البيت منذ الصباح. حين جاء حاجبه من المحطة عند الظهر كي يأخذ سندويشات مع ترمس الشاي أخبر الكنّاس والحمال بقصة القطار. في المساء شاهد الخدم وعائلاتهم ألسنة لهب تشبّ عالياً فوق خط الشجر. ألقت النار ضوءاً مرجانياً كئيباً على الجدران الخارجية للبنغل.

لقد أخذ عمل النهار الكثير من هوكوم تشاند. لم يكن تعبه جسدياً. لقد ولّدت فيه رؤية هذا العدد من الموتى خدراً بارداً في البداية وفي غضون ساعتين ماتت مشاعره جميعاً. صار يراقب جثث النساء والرجال والأطفال تسحب دون أن يشعر بكبير اكتراث كما لو كانت صناديق من البطانيات. ولكن مع حلول المساء ابتدأ يشعر بالبؤس والأسى على نفسه. بدا منهكاً ومضنى حين ترجل من السيارة. كان الحمال والكناس وعائلتاهما على السطح يراقبون ألسنة اللهيب. اضطر هوكوم تشاند أن ينتظرهم كي يأتوا ويفتحوا له الأبواب. شعر أنه مُهمَل ومنقبض. استلقى على سريره متجاهلاً مجاملات الخدم. أحدهم فكّ له سيور الحذاء ونزعه من قدميه وشرع يدلكهما. آخر أحْضَر دلاءً من الماء وملأ له حوض الحمام.

نهض الحاكم على نحو مباغت، حتى أوشك أن يركل الخادم ودخل غرفة الحمام.

شعر بشيء من الانتعاش بعد أن استحم وبدّل ملابسه. كانت نسمة البنكه باردة مهدئة. استلقى من جديد ويداه على عينيه. ابتدأت مشاهد النهار تعود داخل الحجرتين المظلمتين لعينيه في تعاقب بانورامي. حاول أن يسحقها ضاغطاً بأصابعه على عينيه. لم يكن أمامه من جرّاء ذلك إلّا أن جعل الصور تغدو أكثر اسوداداً واحمراراً ومن ثم تعود. رجلٌ يحمل أحشاءه وفي عينيه تعبير يقول (انظروا ماذا وجدت!) نساء وأطفال يربضون في زاوية، عيونهم متّسعة من الرعب ولاتزال أفواههم فاغرة كما لو أن استغاثاتهم خرست لحظتئذٍ فقط. بعضهم ليس على جسده خدشٌ واحد. ثمة أجساد محشورة في النهاية القصوى من المقطورة ينظرون في رعب إلى النوافذ الفارغة التي لابد أن الرصاص أو الرماح أو الحراب قد جاءت منها. المراحيض مليئة بجثث شباب شقّوا طريقهم إليها بقوة عضلاتهم ظانين أنها أكثر أمناً. ثم الرائحة المغثية للحم البشري المنتن والبراز والبول. مجرد التذكر يدفع هوكوم تشاند إلى التقيؤ. الصورة الأكثر إثارة هي صورة فلاح عجوز بلحية بيضاء طويلة، لم يكن يبدو أنه ميتٌ على الإطلاق. كان يجلس محشوراً بين لفافات الفرش على الرف العلوي المخصّص للبضائع غارقاً في التفكير وهو ينظر إلى المشهد تحته. خطٌّ قرمزي ناعم من الدم المتجمد يمتد بين أذنه ولحيته. هزَّه هوكوم تشاند من كتفه قائلاً: (بابا، بابا) ظاناً أنه حيّ. كان حيّاً. امتدت يده على نحو غريب وأمسكت بالقدم اليمنى للحاكم. العرق البارد غطّى كامل جسد هوكوم تشاند. حاول أن يصرخ لكنه لم يستطع أكثر من أن يفتح فمه. ابتدأت اليد ترتفع ببطء من كاحله إلى ربلة ساقه ومنها إلى الركبة قابضةً على الساق في طريقها. حاول هوكوم تشاند أن يصرخ ثانية. علق صوته في حنجرته وظلت اليد ترتقي.

وحين لامست الجزء اللحمي من فخذه ارتخت قبضته. ابتدأ هوكوم تشاند يئن ثم بجهد أخير خرج من الكابوس بصرخة معذّبة. تجلّس في سريره وفي عينيه نظرة رعب.

كان الخادم يقف إلى جواره مرعوباً بالمثل.

ـ اعتقدت أن الصاحب مرهق ويرغب في تدليك قدميه.

لم يقوَ هوكوم تشاند على الكلام، مسح العرق عن جبينه وغاص مجدداً في الوسادة وهو يلفظ (هاي رام، هاي رام) الفورة العصبية طهرته من الخوف. أحس أنه ضعيف وأحمق وبعد بعض الوقت شعر بالطمأنينة.

ـ أحضر لي بعض الويسكي.

أحضر الخادم صينية عليها ويسكي وصودا وكأس. ملأ هوكوم تشاند ربع الكأس بالسائل الذي له لون العسل وأكملها الخادم بالصودا. شرب الحاكم نصف الكأس في جرعة واحدة واستلقى. انسكب الكحول في جهازه فأحيا أعصابه المنهكة. مرةً أخرى ابتدأ الخادم يكبس له قدميه. رفع الحاكم عينيه إلى السقف وهو يشعر بالاسترخاء وبشيء من التعب اللذيذ. ابتدأ الكنّاس يشعل القناديل في البيت. وضع مصباحاً على الطاولة المجاورة لسرير هوكوم تشاند. حول بلّورة القنديل رفرفت فراشة وطارت بخط حلزوني نحو السقف. اندفعت الوزغات نحوها من الجدار. لامست الفراشة السقف بعيداً عن متناول الوزغات وعادت إلى القنديل بخطٍ حلزوني. راحت الوزغات تراقبها بعيون سوداء مشعّة. مرّة أخرى طارت الفراشة إلى الأعلى ثم إلى الأسفل ثانية. أدرك هوكوم تشاند أنها إذا حطت على السقف لثانية واحدة فإن إحدى الوزغات ستجعلها ترفرف بين فكّيها التمساحيين الصغيرين. ربما كان ذلك قدرها. إنه قدر كل إنسان. أكان في المستشفى أو في القطار أو بين فكوك الزواحف، لافرق. قد يموت المرء حتى وهو في سريره وحيداً ولايكتشف الآخرون ذلك حتى تنتشر من حوله

رائحة النتن وتنغل الديدان في محجري عينيه، وتمشي الوزغات على وجهه بيطونها اللزجة الباردة، مسح هوكوم تشاند وجهه بيديه. كيف يمكن للمرء أن يهرب من أفكاره! جرع بقية الويسكي وصبَّ لنفسه كأساً أخرى.

دائماً كان الموت هاجس هوكوم تشاند. في طفولته رأى خالته تموت بعد أن وضعت طفلاً ميتاً. تسمم جسمها بكامله. انتابتها الهلوسات عدّة أيام وراحت تلوح بذراعيها مذعورةً تريد أن تطرد شبح الموت الذي كان ينتصب عند قائمة سريرها. ماتت وهي تصرخ مرعوبةً، تحدّق وتشير إلى الحائط. لم يغادر هذا المشهد ذهن هوكوم تشاند. وفيما بعد، في شبابه، صارع ضد الخوف من الموت بأن صار يقضي ساعات طويلة في محرقة الموتى قرب الجامعة. راقب كيف يأتون بالشباب أو العجائز على نقّالات بسيطة من الخيزران، يندبون عليهم. ثم يحرقونهم. تركت زيارات المحرقة عنده شعوراً بالاطمئنان. فقد تغلّب على الرعب المباشر من الموت ولكن فكرة الانحلال النهائي كانت حاضرة دائماً في ذهنه. وقد جعلته هذه الفكرة لطيفاً وخيّراً ومتسامحاً. حتى أنها جعلته مَرِحاً في وقت الشدّة. لقد تلقّى صدمة فقدانه أولاده بلا مبالاةٍ باردة. وتعامل بأناةٍ ودون تذمّر مع زوجة أميّة وغير جذّابة. كل ذلك جاء من قناعة لديه، أن الحقيقة المطلقة الوحيدة هي الموت، وما بقي ـ حب، طموح، كبرياء، قيم من كل الأنواع ـ يجب تناوله مع قبضة من الملح. وقد فعل ذلك بضمير نقي. صحيح أنه قبل هدايا وساند أصدقاءه في مِحَنهم، لكنه لم يكن فاسداً. أحياناً كان يشارك في الحفلات التي تحتوي على غناء ورقص ـ وأحياناً جنس ـ لكنه لم يكن بلا أخلاق. ما غاية كل شيء في النهاية؟ ذلك كان جوهر فلسفة الحياة عند هوكوم تشاند، وقد عاش بيُسر.

غير أن قطاراً مليئاً بالموتى كان شيئاً باهظاً للغاية حتى على جبرية هوكوم تشاند. لم يستطع أن يقيس مجزرةً بمعتقدٍ فلسفي في حتمية الموت.

لقد أربكه ذلك وأخافه بعنفه وجسامته. عادت إليه بكل تأثيرها المرعب صورة خالته وهي تعضّ لسانها والدم ينزف من فمها وعيناها تحدقان في الفراغ. لم تفلح الويسكي في إبعاد هذه الصورة.

أضاءت الأنوار الأمامية للسيارة الغرفة ثم تركتها أكثر عتمةً من ذي قبل. المرجّح أن السيارة وضعت في الكراج. لامست صورة الليل القادم وعي هوكوم تشاند. سوف ينسحب الخدم إلى مساكنهم وينامون تحيط بهم زوجاتهم وأولادهم بحميمية ويُترك هو وحيداً في البنغل بحجراته الفارغة المسكونة بأشباح من بنات عقله. لا! لا! يجب أن يحضر الخدم ليناموا في مكان ما قريب منه. ربما على الشرفة؟ أم أنهم سيشكّون أنه خائف؟ سيخبرهم أن السلطات قد تطلبه في أي وقت من الليل ويجب أن يكون الخدم تحت يديه. سيكون هذا مخرجاً لايلفت الانتباه.

ـ بايرا.

ـ صاحب. دخل الخادم عبر باب الشاش السلكي.

ـ أين وضعت سريري الليلة؟

ـ لم أضع سرير الصاحب بعد. السماء غائمة وقد تمطر. هل يرغب هوزور بالنوم على الشرفة؟

ـ لا، سأنام في غرفتي. يمكن للصبي أن يحرّك البنكه ساعة أو ساعتين حتى تبرد. أخبر الخدم أن يناموا على الشرفة. قد أحتاجهم لمهمة طارئة الليلة. أضاف دون أن يرفع عينيه إلى الرجل.

ـ حاضر، صاحب. سأخبرهم حالاً قبل أن يذهبوا إلى أسرّتهم. هل أحضر عشاء الصاحب؟

نسي هوكوم تشاند أمر العشاء.

ـ لا. لا أريد أن أتعشى. فقط أخبر الخدم أن يضعوا أسرّتهم على الشرفة وأخبر السائق أن يكون معهم أيضاً. وفي حال لم تتسع لهم الشرفة أخبر السائق أن ينام في الغرفة المجاورة.

خرج الخادم. شعر هوكوم تشاند بالارتياح. لقد أنقذ ماء وجهه. فسوف ينام بسلام بعد أن صار كل هؤلاء الناس حوله. أصغى إلى الأصوات المُطَمئِنَة للنشاط البشري ـ الخدم يتجادلون حول الأمكنة على الشرفة. الأسرّة توضع خارج باب غرفته مباشرةً. مصباحٌ يُضاء في الغرفة المجاورة. والأثاث يزاح لتوسيع مكان الأسرّة.

أضاءت الأنوار الأمامية للسيارة الغرفةَ مرةً أخرى. توقفت السيارة خارج الشرفة وسمع هوكوم تشاند أصوات رجال ونساء ثم خشخشة أجراس. جلس في سريره ونظر عبر باب الشاش السلكي. لقد كانت فرقة الموسيقيين، العجوز والصبيّة العاهرة. كان قد نسي أمرهم.

ـ بايراه

ـ هوزور

ـ قل للسائق أن يعيد الموسيقيين والعجوز... و... ودعْ الخدم ينامون في مساكنهم. إذا احتجت إليهم سأرسل في طلبهم.

أحس هوكوم تشاند بقليل من الغباء إذ ترك نفسه يضبط متلبساً هكذا. لاشك أن الخدم سيضحكون من سلوكه. لكنه لم يكترث. سكب لنفسه كأساً أخرى من الويسكي.

ابتدأ الخدم بالانتقال عن الشرفة قبل أن يأتي الخادم ويتكلم إليهم. أزيل القنديل من الغرفة المجاورة. شغل السائق محرك السيارة من جديد. أضاء الأنوار الأمامية ثم أطفأها. لم تشأ العجوز أن تدخل السيارة ودخلت في مجادلة مع الخادم. ارتفع صوتها أعلى وأعلى حتى تجاوز حدود المجادلة وبات يخاطب الحاكم داخل غرفته.

ـ لتدم حكومتك إلى الأبد. ليخطّ قلمك أرقام الآلاف ومئات الآلاف لِ...

فقد هوكوم تشاند هدوء أعصابه فصرخ (اغربي! عليك أن تدفعي ديني عن اليوم الآخر. اغربي! أبعدها أيها الخادم!).

خفت صوت المرأة ودُفعت إلى السيارة بسرعة. خرجت السيارة مخلفةً ضوءاً أصفر وامضاً وحيداً، ضوء قنديل الكاز الذي بجوار سرير هوكوم تشاند، نهض وأخذ القنديل والطاولة ووضعهما في الزاوية المجاورة للباب. دارت الفراشة حول بلورة القنديل ضاربةً الجدار على كل جانب. ومن السقف زحفت الوزغات نازلةً إلى الجدار المجاور للقنديل. ما أن حطّت الفراشة على الحائط حتى زحفت إحدى الوزغات خلسةً من ورائها وانقضّت عليها وأمسكتها مرفرفةً بين فكيها. راقب هوكوم تشاند كل هذا بلا مبالاةٍ فاترة.

فتح الباب وأغلق بلطف. ودَلَف إلى الغرفة شخص صغير غامض. تلألأ البرّاق الفضّي الذي على ساري الفتاة في ضوء القنديل وأرسل مئات البقع الضوئية تلعب على الجدران والسقف. استدار هوكوم تشاند. وقفتْ الفتاة منتصبةً وراحت تحدق إليه بعينين سوداوين كبيرتين. توهجت الماسة التي في أنفها. بدت الفتاة خائفة حقاً.

ـ تعالي! قال الحاكم مفسحاً لها مكاناً إلى جواره وماداً لها يديه. اقتربت الفتاة وجلست على حافة السرير وهي تنظر بعيداً. لفَّ هوموم تشاند ذراعه حول خصرها وراح يتحسس فخذيها وبطنها ويلهو بنهديها الصغيرين غير الناضجين. جلست متيبسةً وبلا شعور. أفسح لها هوكوم تشاند مكاناً أوسع وغمغم بكسل: «تعالي استلقي بجانبي» تمدّدت الفتاة إلى جواره. دغدغ البرّاق الذي على ساريها وجهه. كانت تضع عطراً مصنوعاً من الخاس له الرائحة العذبة للأرض الجافة حين ترش عليها الماء. لأنفاسها رائحة الهيل ولصدرها رائحة العسل. اختبأ فيها كطفل وسرعان ما أخذه النوم.

* * *

المونسون ليست كلمة مرادفة لكلمة مطر. فحسب الاسم ذي الأصل العربي، المونسون تعني الفصل أو الموسم. هناك مونسون شتوي

ومونسون صيفي ولكن رياح الصيف الجنوبية الغربية الماطرة هي وحدها التي تشكل موسماً(*) (فصل الأمطار). أما المونسون الشتائي فهو ببساطة مطر في الشتاء. إنه يشبه وابلاً من المطر البارد على صباح صقيعي. يجعل المرء يقشعر من البرد ويرتجف. ومع أنه مفيد للمحاصيل غير أن الناس يصلّون من أجل أن ينتهي. ولحسن الحظ فإنه لايستمر طويلاً.

المونسون الصيفي أمر مختلف تماماً. تسبقه عدة شهور من تصاعد العطش بحيث أنه عندما تأتي المياه يسكرون بها عميقاً ويلتذّون. من نهاية شباط تبدأ الشمس تزداد حرارةً ويترك الربيع مكانه للصيف. تذوي الزهور وتحل محلها الأشجار المزهرة. في البداية تأتي الزخّات البرتقالية من لهيب الغابة، والقرمزي من الشجرة المرجانية، ثم الأبيض البكر من الشنبق. يلي ذلك الجكرندة ذات اللون البنفسجي الزاهي، والغول موهور المتوهج والشلالات الذهبية الناعمة من القوطيسوس. أيضاً تفقد الأشجار أزهارها بعد ذلك وتبدأ أوراقها بالتساقط وتمتد فروعها العارية إلى السماء ترجو الماء. ولكن ليس ثمة ماء. تشرق الشمس أبكر من ذي قبل وتلعق قطرات الندى قبل أن تتمكن الأرض المحمومة من ترطيب شفتيها. تتوهج طوال اليوم في سماء رمادية خالية من الغيوم، تجفف الآبار والجداول والبحيرات. تسفع العشب والشجيرات الشوكية إلى أن تشتعل. تنتشر النيران وتحترق الغابات الجافة كعود ثقاب.

يوماً بعد يوم، تمضي الشمس من المشرق إلى المغرب تسفع دون كلل. تتشقق الأرضُ وتفتح الشقوق أفواهها طالبةً الماء. ولكن ليس ثمة ماء. ليس ثمة سوى السديم الوامض في الهاجرة يشكل سرابات من بحيرات زئبقية. يخرج القرويون الفقراء كي يسقوا ماشيتهم العطشى فيموتون بضربة الشمس. أما الأغنياء فيضعون النظارات الشمسية ويختبئون خلف ستائر من ألياف الخوص التي يسكب عليها خدمهم الماء.

(*) هكذا في الأصل.

تجعل الشمس من النسمة حليفاً لها. فهي تسخّن الهواء إلى أن يصبح اللّو وترسله في مهمته. حتى في حر الهجير تكون مداعبات اللّو الدافئة ممتعة ولذيذة. إنها تسبب الحَصَف. وينتج عنها خدر يجعل الرأس يكبو والعينين ثقيلتين بالنعاس. وتؤدي إلى ضربةٍ تأخذ ضحيتها بلطف كما تحمل النسمةُ زَغَبةً.

ثم تأتي فترة الآمال الكاذبة. يتلاشى اللّو ويغدو الهواء ساكناً. ويبدأ حائط أسود بالتقدم من الأفق الجنوبي، تتقدمه مئات الحِداء(*) والغربان طائرةً. أيمكن أن يكون...؟ كلا، إنها عاصفة غبارية. ويبدأ مسحوق ناعم بالتساقط. كتلةٌ صلبة من الجراد تغطي الشمس جراد يلتهم كل ما تبقى على الأشجار في الحقول. عندئذٍ تصل العاصفة نفسها. تصفع الأبواب والنوافذ بهجمات غضبى فتفتحها وتصفعها بعنف إلى الأمام والخلف محطمةً ألواحها الزجاجية. وتحمل السطوح القشّية وألواح الحديد المموَّج عالياً في السماء كنتفٍ من الورق. تقتلع الأشجار من جذورها وتلقيها على الأسلاك الكهربائية. والأسلاك الكهربائية المتشابكة تصعق الناس وتشعل النيران في منازلهم. والعاصفة تحمل اللهيب إلى منازل أخرى إلى أن يكون ثمة حريق هائل. يحدث ذلك في غضون ثوان معدودة. فقبل أن تستطيع قول (تشاكرا فارتيرياغو بالاتشاي) تكون العاصفة قد انقضَّتْ. ويبدأ الغبار المعلّق في الهواء يحطّ على كتبك وأثاثك وطعامك، يدخل في عينيك وأذنيك وأنفك وحنجرتك.

يحدث هذا مراراً وتكراراً إلى أن يفقد الناس كل أمل. تراهم محبطين مغمومين ظامئين متعرّقين والحَصَبُ على أقفية رقابهم مثل ورق الزجاج. ثمة هدأةٌ أخرى. يسود صمتٌ متحجّر حار. ثم تأتي الصرخة، نداء غريب من طائر. لماذا ترك ظله البارد في الأجمات وخرج إلى

(*) الحِداء جمع حدأة.

الشمس؟ يرفع الناس أنظارهم مرهقين إلى السماء التي بلا حياة. أجل، ذاك هو مع قرينته! إنهما يشبهان بلبلين ضخمين بلونين أبيض وأسود وعُرفين متغطرسين وذيلين طويلين. أنهما وقواقين لكل منهما عرف كالفطيرة، طارا كل الطريق من أفريقيا في طليعة المونسون. أليس ثمة نسمة لطيفة تهبُّ؟ أليس لها رائحة رطبة؟ ألم يكن الدوي الذي أغرق الصرخةَ المعذَّبة للطائر هو هزيم الرعد؟ يسرع الناس إلى الأسطحة كي يروا. الجدار الأبنوسي عينُه يتقدم من جهة الشرق. يطير رف من البلشون عبر السماء التماعةُ برق تكسف ضوء النهاء. تملأ الرياحُ الأشرعةَ السوداء للغيوم التي راحت تتلاطم عبر الشمس. يسقط ظلٌّ عميق على الأرض. ثمة هدير رعد آخر. قطرات كبيرة من المطر تسقط وتجفّ في الغبار. تفوح من الأرض رائحة عبقة. التماعة برق أخرى وقصف رعد آخر كزئير نمرٍ جائع. لقد وصل! صفائح من الماء، موجةٌ إثر موجة. يرفع الناس وجوههم إلى الغيوم ويتركون غزارةَ الماء تغمرهم. أغلقت المدارس والمكاتب. جميع الأعمال توقفت. الرجال والنساء والأطفال يركضون في الشوارع بجنون ملوّحين بأذرعتهم صارخين «هوو، هوو» هوزانا(*) على معجزة المونسون.

المونسون ليس كمطرٍ عادي يأتي ويروح. حين يأتي فإنه يمكث شهرين أو أكثر. يستقبل الناس حلوله بابتهاج. تخرج المجموعات للتنزّه يفرشون الريف بقشر المنغا وبذورها. يتأرجح الأولاد والنساءعلى فروع الأشجار، ويقضون النهار بالرياضة والغناء. تفرش الطواويس ذيولها وتتبختر مع قريناتها، وتردد الغابات أصداء صرخاتها الحادة.

ولكن بعد أيام قليلة تنتهي فورة الحماس. تصبح الأرض امتداداً واسعاً من الوحل والسباخ. تمتلئ الآبار والبحيرات وتفجّر حدودها. في المدن تنسدّ المجاري وتصبح الشوارع سواقي عكرة. وفي القرى تذوب

(*) المجد لله. (م)

الجدران الطينية للمساكن في الماء وتضعف السقوف الخشبية وتهوي على الساكنين. أما الأنهار فلا تني ترتفع بثبات حالما تبدأ حرارة الصيف بإذابة الثلوج، وفجأةً تتحول إلى فيضاناتٍ حين يتبدَّد المونسون نفسه على الجبال وتغمر المياه الطرق وسكك الحديد والجسور وتنجرف البيوت المجاورة لضفاف النهر إلى البحر.

مع المونسون يتسارع إيقاع الحياة والموت. بين عشية وضحاها يبدأ العشب بالنمو وتغدو الأشجار العارية خضراء. ومن العدم تنبثق أفاع وعقارب وحُرُش. تكتسي الأرض بالديدان والضفادع والخنافس. وفي الليل ترفرف مئات الفراشات حول المصابيح، تتساقط في طعام وشراب كل شخص. تجوب الوزغات وتملأ نفسها بالحشرات إلى أن تثقل وتسقط من السقوف. وداخل البيوت طنين البعوض يثير الجنون. يرش الناس غيوماً من المبيدات الحشرية وتصبح الأرضية طبقةً من أجساد وأجنحة تتلوى. وما يكون منها في المساء التالي هو أكثر من ذي قبل، ترفرف حول مظلات المصابيح وتحترق في اللهب.

خلال المونسون يبدأ وابل المطر وينتهي دون تحذير. تطير الغيوم عابرةً وتصب مطرها على السهول كيف تشاء إلى أن تصل الهيملايا. تتسلق الجبال وهناك يعتصر البرد آخر قطرات الماء الباقية فيها. البرق والرعد لايتوقفان. كل هذا يحدث في أواخر آب أو أوائل أيلول. بعدئذٍ يخلي موسم الأمطار مكانه للخريف.

* * *

أيقظ قصف الرعد هوكوم تشاند. فتح عينيه. كان في الغرفة ضوء رمادي. لهبٌ أصفر مرهَق يومض عبر سخام بلّورة القنديل الكائن في الزاوية. حدثت التماعة برق تبعها صوت رعد آخر. هبّةٌ من نسيم بارد ورطب عبرت الغرفة. ارتعش المصباح وانطفأ. وابتدأت قطرات المطر تتساقط بقرعٍ لطيف.

مطر! أخيراً جاء المطر، قال الحاكم في نفسه. حتئذٍ كان المونسون شحيحاً تجيء الغيوم لكنها عالية وصوفية، تطوف وتمضي تاركة الأرض أكثر عطشاً من ذي قبل. أيلول شهر متأخر بالنسبة للأمطار، لكن ذلك زاد من ترحيب الناس بالمطر. رائحته عذبة وكذا صوته وصورته ولكن فوق كل شيء فعله. آه ولكن ماذا فعل؟ شعر هوكوم تشاند بالحمى. الجثث! ألف جثة محروقة تئزّ وتدخن بينما المطر يطفئ النار. مئة ياردة من الجثث المحروقة! نبقت قطرات من العرق على صدغيه. شعر بالبرودة والخوف. بحث في السرير، كانت الفتاة قد غادرت. إنه وحيد تماماً في البنغل. تناول ساعة يده من تحت الوسادة وأحاطها براحتيه. كانت العقارب المطلية بالراديوم تشع بلون أخضر كضوء الحباحب وتشير إلى السادسة والنصف. شعر بالإرتياح فهذا وقت صباحي متأخر. لابد أن السماء ملبدة بالغيوم. سمع عندئذٍ صوت سعال على الشرفة فأحسّ بالاطمئنان. تجلّس في سريره بحركة واحدة.

دوَّخ ألم بليد جبهته. أغمض عينيه وحمل رأسه بين يديه. خَفُتَ النبض. لقد شرب الكثير من الويسكي ولم يأكل شيئاً. بعد لحظات قليلة فتح عينيه وتلفّت حوله في الغرفة. رأى الفتاة. لم تُغادر. كانت نائمة على كرسي الخيزران الكبيرة وقد تغطت بساريها الأسود البرّاق. أحس هوكوم تشاند بقليل من الحماقة. قضت الفتاة يومين هنا، وها هي تنام وحيدة على كرسي. كانت ساكنة سوى من الحركة اللطيفة لصدرها. شعر أنه عجوز وقذر. كيف يمكنه القيام بأي شيء مع هذه الطفلة؟ لو عاشت ابنته لكانت في مثل سنّها. انتابته نوبة ندم. كان يعلم أن ندمه وقراراته الطيبّة يذهبها الشراب. هكذا كان الأمر دائماً. قد يشرب من جديد ويجلب الفتاة نفسها وينام معها ثم يشعر بالندم. هكذا هي الحياة، إنها تثير الكآبة.

نهض على مهل وفتح الحقيبة الصغيرة التي على الطاولة. نظر إلى نفسه في المرآة التي على باطن الغطاء. ارتشاح أصفر في زاويتي العينين.

تجعيدات عديدة تحت ذقنه غير الحليقة. إنه عجوز وبشع. مدّ لسانه كان مغلّفاً من منتصفه إلى الخلف بلون أصفر شاحب أملس. سال لعابه من رأس لسانه إلى الطاولة. شمّ رائحة أنفاسه. لاشك أن الفتاة تشمئز من هذه الرائحة! لاغرابة أنها قضت ليلتها على كرسي غير مريح. تناول زجاجة من أملاح الكبد ووضع عدة ملاعق كبيرة في الكأس. فكّ سدادة الترمس وسكب الماء في الكأس. عجّ الكأس بالفوران. حرّك الكأس إلى أن هدأ الأزيز ثم شربه بسرعة. لبعض الوقت وقف مطرقاً ويداه مرتاحتان على الطاولة.

نزلت جرعة الأملاح مقرقرة على نحو لذيذ. ارتفع انتفاخ هوائي من رأس معدته إلى حنجرته فتجشأ تجشوأً ممطوطاً مريحاً. خفت النبض وتراجع الألم إلى مؤخرة الرأس. بضعة أكواب من الشاي الساخن الثقيل سوف تعيده إلى سابق عهده. مضى إلى الحمام وصرخ إلى خادمه عبر الباب المطل على مساكن الخدم.

ـ أحضر لي ماء للحلاقة وأحضر شايي. أحضرها إلى هنا سأشربها بنفسي.

حين جاء الخادم تناول هوكوم تشاند صينية الشاي وعلبة الحلاقة ووضعها على الطاولة في غرفة النوم. صبّ لنفسه كوباً من الشاي وفرش عدّة الحلاقة. رغى ذقنه وحلقها بينما هو يرتشف الشاي. لم تستيقظ الفتاة على رنين الآنية الصينية والفضية. كانت نائمة بفم مفتوح قليلاً. بدت ميتة لولا الحركة الرتيبة الصاعدة لثدييها اللذين يحاولان عبثاً ملء صدريتها. شعرها مبعثر على كامل وجهها وبجوار ساق الكرسي يتدلى دبوّس من السيلولويد الوردي المصنوع على شكل فراشة. كان ساريها مجعداً ومدعوكاً وعلى الأرض منه قطع براقة تلمع. لم يستطع هوكوم تشاند أن يرفع عينيه عنها بينا كان يحلق ويرتشف الشاي. لم يتمكن من تحليل مشاعره إلا أنه أراد أن يعوّض لها. إذا كانت تريد الجنس فسوف ينام معها.

أقلقته الفكرة. سيتوجب عليه الاكثار من الشراب كي يمارس معها هذا الشيء.

أصوات السعال وجرّ الأقدام على الشرفة انتزعت هوكوم تشاند من أفكاره. كان سعالٌ يهدف إلى لفت الانتباه. هذا يعني أنه المفتش. أنهى هوكوم تشاند شايه وأخذ ملابسه إلى الحمام ليغيّر. بعدئذ خرج من الباب المطل على مساكن الخدم وصعد إلى الشرفة. كان المفتش يقرأ جريدة. هبّ من كرسيه واقفاً وحيًّا:

ـ هل كانت سعادتكم تمشي تحت المطر؟

ـ لا، لا. فقط مررت عبر مساكن الخدم. أنت مبكِّر. آمل أن كل شيء على ما يرام.

ـ يجب أن يشكر المرء ربه هذه الأيام على أنه حيّ. لاسلام في أي مكان. مشكلةٌ وراء مشكلة...

فجأةً خطر أمر الجثث في بال الحاكم.

ـ هل أمطرت في الليل؟ كيف هو الحال قرب المحطة؟

ـ مررت بها هذا الصباح حين ابتدأ المطر يهطل. لم يبقَ منها الكثير.

مجرد كومة من الرماد والعظام. هناك كثير من الجماجم المبعثرة هنا وهناك. لا أدري ماذا يمكننا أن نتصرف حيالها. أرسلت كلمة إلى اللامباردار ألّا يسمح لأحد بالاقتراب من الجسر أو المحطة.

ـ كم عددهم؟ هل أحصيتهم؟

ـ كلا سيدي. الضابط السيخي يقول أن هناك أكثر من ألف. أعتقد أنه حَسَب عدد الأشخاص الذين يمكن أن تستوعبهم عربة واحدة وضرب الرقم بعدد العربات. كما قال أنه من المفترض أن يكون قد قُتل أربعئمة أو خمسمئة آخرون على سطوح العربات ومواطئها وعلى المصبات. لابد أنهم سقطوا أثناء مهاجمة القطار. الدم الجاف يغطي سطح القطار بالفعل.

ـ هاري رام، هاري رام. ألف وخمسمئة انسان بريء! ماهو الكاليوغ سوى هذا؟ الظلام يغمر الأرض. هذه نقطة حدودية واحدة فقط. أفترضُ أن أشياء كهذه تجري في أماكن أخرى. والآن أظن أن شعبنا يقوم بأعمال مشابهة. كيف حال المسلمين في هذه القرى؟

ـ هذا ما جئت أبلغكم عنه. ابتدأ المسلمون في بعض القرى يهاجرون إلى معسكر اللاجئين. تمّ إخلاء /تشوندونوغر/ جزئياً. وثمة عربات جيش باكستانية عليها جنود بالوشيين وباثانيين جاهزة لنقلهم حالما تصل المعلومات. ولكن مسلمي مانوماجرا لازالوا حيث هم وقد أبلغنا اللامباردار هذا الصباح عن وصول حوالي أربعين أو خمسين لاجيء سيخي كانوا قد عبروا النهر هذا الفجر وهم الآن يقيمون في المعبد.

ـ لماذا سمحتم لهم بالتوقف؟ سأل هوكوم تشاند بحدّة. أنت تعلم الأوامر جيداً، كل اللاجئين الوافدين يجب نقلهم إلى معسكر /جولوندور/. هذا أمر خطير. قد يبدؤون القتل في مانوماجرا.

ـ كلا سيدي. الوضع لايزال حتى الآن تحت السيطرة. هؤلاء اللاجئون لم يفقدوا الكثير في الباكستان ومن الواضح أنه لم يتعرّض لهم أحد في الطريق. المسلمون في مانوماجرا أحضروا لهم الطعام إلى المعبد. إذا وصل آخرون ممّن قد نجوا من المجازر وفقدوا أقرباء لهم، عندئذٍ يكون الوضع مختلفاً. لم أفكر أن يصلنا أحد عبر النهر. عادةً يصبح النهر بعد المطر حوالي الميل، ولايكون ثمة مكان للعبور حتى تشرين الثاني أو كانون الأول. لكن هذه السنة تأخر المطر كثيراً. وهناك نقاط عديدة يمكن للناس العبور خلالها وليس لدي عدد كافٍ من الشرطة للقيام بأعمال الدورية على طول النهر.

سرّح هوكوم تشاندي نظره عبر الأرض المحيطة ببيت الاستجمام. كان المطر يهطل بثبات وابتدأت تتشكل برك في المسالك. وكانت السماء امتداداً منبسطاً من لون رمادي داكن.

ـ طبيعي، إذا استمر المطر سيرتفع النهر ولن يبقى هناك نقاط عبور كثيرة. وسيغدو بمقدورنا السيطرة على حركة اللاجئين عند الجسور.

تعزّز ايقاع المطر بصخب البرق والرعد. ورشّت الريح رذاذاً ناعماً على الشرفة.

ـ لكن يجب إخراج المسلمين من هذه المنطقة شاؤوا ذلك أم أبوا. كلما أسرعنا كلما كان أفضل.

حدث انقطاع طويل في المحادثة. كلاهما كان يحدق إلى المطر. ابتدأ هوكوم تشاند الحديث ثانية.

ـ على المرء أن ينحني أمام العاصفة. ألا ترى أعشاب البمب! تنحني أوراقها أمام النسمة أما سوقها فتنتصب متيبسةً في كبريائها المزيّنة بالريش. وحين تهب العاصفة تنكسر وتتبعثر ريشاتها البيض مع الرياح مثل الزَغَب. وأضاف بعد توقف. الرجل الحكيم يسبح مع التيار ومع ذلك يعبر.

أصغى المفتش إلى هذه التفاهات بانتباه لبق، ولم يرَ فائدتها في المشكلة الراهنة، لاحظ هوكوم تشاند التعبير الأجوف على وجه ضابط الشرطة. كان عليه أن يوضح أكثر.

ـ ماذا فعلت بشأن جريمة قتل (رام لال)؟ هل اعتقلت المزيد؟

ـ نعم سيدي. أعطانا البودماش جوغا جميع الأسماء البارحة. إنهم رجال كانوا في عصابته في وقت من الأوقات. مالي وأربعة آخرون من قرية كابورا على بعد ميلين باتجاه مجرى النهر. لكن جوغا لم يكن معهم. أرسلت مجموعة من العناصر لاعتقالهم هذا الصباح.

لم يبد الاهتمام على هوكوم تشاند. كانت عيناه ثابتتين في مكان ما بعيد.

ـ لقد أخطأنا باعتقال جوغا والرجل الآخر، تابع المفتش. أخبرتك

عن علاقة جوغا مع ابنة حائك مسلم. هذا ما ملأ عليه معظم لياليه. بعد الجريمة قام مالي بإلقاء الخلاخل في فناء منزل جوغا.

لايزال هوكوم تشاند سارحاً.

ـ إذا وافقت سعادتكم، يمكننا إطلاق سراح جوغا وإقبال بعد اعتقال مالي وجماعته.

ـ من هم مالي وجماعته، سيخ أم مسلمون؟ سأل فجأةً هوكوم تشاند.

ـ جميعهم سيخ.

عاد الحاكم ثانيةً إلى أفكاره. وبعد بعض الوقت ابتدأ يتكلم مع نفسه، «لو كانوا مسلمين لكانت الفكرة أنجح. فمعرفة ذلك إضافةً إلى وجود محرّض من الرابطة الإسلامية كان سيقنع السيخ في مانوماجرا بترك مسلميهم يرحلون.

حدث توقف طويل آخر. تكاملت الفكرة شيئاً فشيئاً في ذهن المفتش. نهض دون أن يعلّق. لم يشأ هوكوم تشاند أن يدخل أية مغامرة.

ـ اسمع، أطلق سراح مالي وجماعته دون أن تسجّل اعتقالهم في الديوان. لكن راقب تحركاتهم. سوف نعتقلهم حين نشاء... ولا تطلق سراح البودماش أو الشاب الآخر. فقد نحتاجهما.

حيّا المفتش.

ـ انتظر، لم أنته بعد. رفع هوكوم تشاند يده. بعد أن تقوم بالضروري. أرسل كلمة إلى مدير معسكر اللاجئين المسلمين اطلب منه أن يرسل شاحنات لاخلاء مسلمي مانوماجرا.

حيّا المفتش من جديد. لقد أدرك الشرف الذي منحه إياه هوكوم تشاند بأن عهد إليه بتنفيذ خطة معقدة ودقيقة. ارتدى مشمعَهُ.

ـ ماكان يجب أن أدعك تذهب تحت هذا المطر لكن الأمر خطير ولايحتمل أي تأجيل. قال هوكوم تشاند ولايزال مطرقاً.

ـ أعلم سيدي. حيّا المفتش مرّة أخرى. سأتصرف في الحال.

ركب دراجته الهوائية وانطلق من البنغل على الطريق الموحل.

* * *

كان هوكوم تشاند جالساً على الشرفة يحدّق بنظرةٍ فارغة إلى المطر وهو ينسكب صفائح صفائح. لم تكن مسألة الخطأ والصواب في أوامره تثقل كثيراً عليه. فهو حاكم وليس مبشّراً. كان عليه أن يجد حلولاً للمشاكل التي تنشأ يوماً بيوم. ولاشيء يدعوه إلى أن يقيس حلوله بمقياس مطلق لامعلوم. ليس ثمة الكثير من: «ينبغي» في حياته، ثمة الكثير: من «يوجد». إنه يأخذ الحياة كما هي. لايريد إعادة صياغتها ولا التمرد عليها. هناك عمليات في التاريخ يساهم فيها البشر شاؤوا أم أبوا. إنه يؤمن بأن الجهد الواعي للفرد يجب أن ينصرف إلى الغايات المباشرة مثل إنقاذ الحياة حين تكون عرضة للخطر والحفاظ على التكوين الاجتماعي والالتزام بمقتضيات الأعراف. وكان هدفه المباشر هو إنقاذ حياة المسلمين. ولسوف يفعل ذلك بكل السبل المتاحة له. إضافة إلى أنه لم يُقدم حتى الآن على أي فعل وحشي. الرجلان اللذان اعتقلا بناءً على تفويض موقع منه، كانا سيعتقلان على كل حال. أحدهما محرّض والآخر شخصية فاسدة ومن الضروري اعتقالهما في الأوقات العصيبة. وإذا استطاع أن يحقق فائدة كبيرة من خلل صغير فسيكون من الخطأ تسمية ذلك خطأً. شعر بالراحة. فقط لو تُنفّذ خطته بكفاءة! فقط لو يستطيع هو شخصياً إدارة التفاصيل فلن تحدث إذن أية هفوة! غالباً ما لايفهمه مرؤوسوه ويضعونه في مواقف صعبة.

من داخل البنغل جاء صوت إغلاق وفتح باب الحمام. نهض هوكوم تشاند ونادى الخادم كي يحضر الفطور.

جلستْ الفتاة على حافة السرير وذقنها بين يديها. وقفت وغطّت رأسها بالنهاية الحرة من الساري. حين جلس هوكوم تشاند على الكرسي جلست هي ثانيةً على السرير وعيناها ثابتتان على الأرض. ساد صمت مربك. بعد بعض الوقت تمكّن هوكوم تشاند من شجاعته، نظّف حنجرته وقال:

ـ لابد أنك جائعة. لقد أرسلت بطلب الشاي.

نظرت الفتاة إليه بعينيها الكبيرتين.

ـ أريد أن أذهب إلى البيت.

ـ تناولي شيئاً ما وسأجعل السائق يوصلك إلى البيت. أين تعيشين؟

ـ في /تشوندونوغر/ حيث يوجد مخفر شرطة المفتش صاحب.

بعد توقف طويل آخر، نظّف هوكوم تشاند حنجرته مجدداً.

ـ ما اسمك؟

ـ حسنا. حسنا بيجوم.

ـ حسنا. وأنت حسناء(*). أحسنت أمك في اختيار اسمك. هل تلك العجوز هي أمك؟

ابتسمت الفتاة لأول مرة. لم يجاملها أحد من قبل. الآن الحكومة نفسها تقول أنها جميلة وتهتم بعائلتها.

ـ كلا يا سيدي. إنها جدّتي. توفيت أمي بعد ولادتي مباشرة.

ـ كم عمرك؟

ـ لا أعرف. ستة عشر أو سبعة عشر أو ربما ثمانية عشر. لم أكن أعرف القراءة والكتابة حين ولدت فلم أستطع تدوين تاريخ ميلادي.

(*) هكذا في الأصل.

ابتسمت على نكتتها الصغيرة. الحاكم ابتسم أيضاً. أحضر الخادم صينية عليها شاي وتُوسْت وبيض.

نهضت الفتاة لترتب أكواب الشاي ودهنت قطعة من التوست بالزبدة، وضعتها على صحفة ووضعت الصحفة على الصينية أمام هوكوم تشاند.

ـ لن آكل شيئاً. لقد تناولت شايي.

تظاهرت الفتاة بالانزعاج.

ـ إذا أنت لم تأكل، إذن أنا أيضاً لن آكل. قالت ذلك بغنج.

وضعت من يدها السكين التي كانت تمسح بها الزبدة على التوست وجلست على السرير.

سُرَّ الحاكم «لا، لاتغضبي مني» قال. مشى إليها ووضع ذراعيه حول كتفيها «يجب أن تأكلي، فأنت لم تأكلي شيئاً البارحة».

تلوّت الفتاة بين ذراعيه «إذا أكلت أنت سآكل وإذا لم تأكل لن آكل أيضاً».

ـ لابأس، إذا كنت تصرّين. ساعدها في النهوض وذراعه حول خصرها وأجلسها بجواره إلى الطاولة «سنأكل كلانا. تعالي اجلسي معي».

تجاوزت الفتاة انزعاجها وجلست في حضنه. وضعت قطعة توست عليها طبقة سميكة من الزبدة في فمه وضحكت عندما قال «كفى، كفى» من خلال فمه الممتلئ، ومسحت الزبدة عن شاربيه.

ـ كم من الوقت لك في هذه المهنة؟

ـ ماهذا السؤال السخيف! منذ ولادتي! أمي كانت مغنّية وأمها كانت مغنية وهكذا بقدر ما نعلم...

ـ أنا لا أقصد الغناء. أقصد الأشياء الأخرى. شرح هوكوم تشاند وأبعد نظره.

ـ ماذا تعني بالأشياء الأخرى؟ سألت الفتاة بغطرسة. نحن لانتجوّل ونقوم بالأشياء الأخرى مقابل النقود. أنا مغنية وأرقص. لا أظن أنك تعرف ماذا يعني الرقص والغناء. أنت لاتعرف إلا الأشياء الأخرى. زجاجة ويسكي والأشياء الأخرى. هذا كل مايهمك!

نظّف هوكوم تشاند حنجرته بسعلة عصبية «أنا... أنا لم أفعل شيئاً».

ضحكتْ الفتاة وضغطت يدها على وجه الحاكم «الحاكم المسكين صاحب، نواياك سيئة، ولكنك كنت متعباً. كنت تشخر مثل قاطرة سكة الحديد. شخرت الفتاة محاولةً تقليده. وضحكت بصوت عالٍ.

راح هوكوم تشاند يتحسس شعر الفتاة، لو عاشت ابنته لكانت الآن في السادسة عشرة أو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. غير أنه لم يشعر بالذنب، فقط بشعورٍ غامض من الامتلاء. لم يشأ أن ينام مع الفتاة أو يمارس الجنس معها أو حتى أن يقبلها على شفتيها ويتحسس جسدها. لقد أراد ببساطة أن تنام في حضنه ورأسها مرتاح على صدره.

ـ ها أنت تعود ثانية مع أفكارك العميقة. قالت الفتاة وحكّت رأسه باصبعها. سكبت كوباً من الشاي ثم صبته في الصحفة «اشرب قليلاً من الشاي. ستوقفك عن التفكير» دفعت إليه بالصحفة المليئة بالشاي.

ـ لا، لا. شربت شايي. اشربيه أنت.

ـ لابأس، أنا سأتناول الشاي وأنت تتناول أفكارك. وابتدأت ترتشف شايها بصوت مسموع.

ـ (حسنا) أَحبُّ تكرار الاسم (حسنا) قال ثانية.

ـ نعم. لكن حسنا هو اسمي فقط. لماذا لاتقول شيئاً ما.

أخذ هوكوم تشاند الصحفة الفارغة من يدها ووضعها على الطاولة. شدّها إليه وضغط رأسها على رأسه وغلغل أصابعه في شعرها.

ـ هل أنت مسلمة؟

ـ نعم، أنا مسلمة. ماذا يمكن أن تكون حسنا بيجوم غير ذلك؟ سيخياً ملتحياً؟!

ـ ظننت أنه تم إخلاء تشوندونوغر من المسلمين. كيف بقيتِ أنت؟

ـ ذهب الكثيرون لكن المفتش صاحب أخبرنا أن باستطاعتنا البقاء إلى أن يخبرنا بأن نذهب. المغنّون ليسوا هندوس ولامسلمين بتلك الطريقة. كل الطوائف يأتون ليستمعوا إليّ.

ـ هل هناك مسلمون آخرون في تشوندونوغر؟

ـ (آ.. آ.. أجل) تلعثمت (يمكنك أن تقول أنهم مسلمون أو هندوس أو أي شيء. ذكور أو إناث. مجموعة الهيجرا (المخنّثين) لا زالوا هناك. أحمرّتْ خجلاً.

وضع هوكوم تشاند يده على عينيها.

ـ المسكينة حسنا خجلانة. أعدك أنني لن أضحك. أنت لست هندوسية ولا مسلمة ولكن ليس كما يكون الهيجرا لا هندوسياً. ولا مسلماً.

ـ لاتسخر مني!

ـ لن أسخر منك. قال ورفع يده عن عينيها. كانت لاتزال خجلانة. أخبريني لماذا أبقوا على الهيجرا.

ـ سأقول لك إذا وعدتني ألّا تضحك مني.

ـ أعدك.

امتلأت الفتاة حيوية.

ـ ولد طفل عند أحد الرجال المقيمين في منطقة هندوسية ذهب الهيجرا كي يغنّوا هناك دون أن يفكروا بالمشاكل الطائفية. أمسكهم

الهندوس والسيخ ـ أنا لا أحب السيخ ـ وأرادوا أن يقتلوهم لأنهم مسلمون. وتوقفت عن الكلام على نحو مدروس.

ـ وماذا حدث؟ سأل هوكوم تشاند متشوقاً.

ضحكت الفتاة وصفّقت بيديها على طريقة الهيجرا شادّةً أصابعها ومباعدةً ما بينها (ابتدأوا يضربون على طبولهم ويغنون بأصواتهم الذكورية الخشنة. وداروا بسرعة إلى أن طارت تنانيرهم في الهواء. عندئذٍ توقفوا وسألوا قادة الرعاع. الآن وقد رأيتمونا أخبرونا، هل نحن مسلمون أم هندوس؟ وانفجر الجمهور كله بالضحك. ضحك الجميع باستثناء السيخ.

وها هو هوكوم تشاند يضحك أيضاً.

ـ ليس هذا كل شيء. جاء السيخ ومعهم كيرباناتهم وهددوهم قائلين «سندعكم هذه المرة، لكن يجب أن تخرجوا من تشوندونوغر وإلا قتلناكم. مرة ثانية صفّق أحد أفراد الهيجرا بيديه ومرّر اصبعه في لحية واحدٍ من السيخ وسأل: لماذا؟ نحن ندعوكم جميعاً أن تصبحوا مثلنا وتكفّوا عن إنجاب الأطفال. حتى السيخ ابتدؤوا يضحكون.

ـ قصة حلوة. قال هوكوم تشاند. ولكن يجب أن تكونوا حذرين خلال هذا الاضطراب الجاري. الزموا منازلكم بضعة أيام.

ـ أنا لست خائفة. لدينا الكثير الكثير من المعارف ثم لدي حاكم كبير قوي يحميني. طالما هو موجود لايستطيع أحد أن يلمس شعره واحدة من رأسي.

ظل هوكوم تشاند يسرّح شعر الفتاة بأصابعه دون أن يقول شيئاً. رفعت الفتاة عينيها إليه مبتسمة بخبث (هل تريدني أن أذهب إلى الباكستان؟).

شدّها إليه فاعتراه شعور بالحمى (حسنا)، نظّف حنجرته مرة ثانية (حسنا)، لم تخرج الكلمات من فمه.

ـ حسنا، حسنا، حسنا، أنا لست صمّاء. لماذا لاتقول شيئاً ما؟

ـ ستبقين هنا الليلة أليس كذلك؟ لاتودين الذهاب الآن؟

ـ أهذا كل ما أردت قوله؟ إذا لم تعطني سيارتك فلن أستطيع الذهاب خمسة أميال بالقطار. ولكن إذا جعلتني أغنّي أو أقضي ليلة أخرى هنا فستضطر أن تعطيني حزمة كبيرة من النقود.

شعر هوكوم تشاند بالارتياح.

ـ ما النقود؟ قال بتغزل زائف. أنا مستعد أن أقدم لك حياتي.

* * *

على مدى أسبوع ترك إقبال وحيداً في زنزانته. لا أصحاب معه سوى كومات الصحف والمجلّات. الزنزانة معتمة ولم يضعوا له قنديلاً. لم يكن أمامه إلا أن يستلقي في الحرّ الخانق مصغياً إلى أصوات الليل. أصوات شخير، طلقات نارية عارضة، ثم المزيد من الشخير. حين ابتدأ المطر صار مخفر الشرطة أكثر وحشةً من أي وقت فات. لم يكن ثمة ما يُرى سوى هطول المطر المتواصل، أو أحياناً عبور شرطي يركض بين غرفة التبليغ والثكنة. ولم يكن ثمة ما يُسمع سوى صوت المطر الرتيب أو قصف رعدٍ عارض ثم المزيد من المطر. لم يكن يرى جوغا الذي يشغل الزنزانة المجاورة إلا قليلاً. في المساءين الأولين أخرجوا جوغا من الزنزانة وأعادوه بعد ساعة. لم يدرِ إقبال ماذا فعلوا له. لم يسأل كما أن جوغا لم يقل شيئاً. لكن ردوده المازحة مع الشرطة صارت أكثر ابتذالاً وأقل تحفّظاً من قبل.

ذات صباح وصلت مجموعة من خمسة أشخاص مكبّلين إلى المخفر. حالما رآهم جوغا ثار غضبه وراح يشتمهم. شكا هؤلاء ورفضوا أن يغادروا شرفة غرفة التبليغ. تساءل إقبال من يكون هؤلاء المساجين الجدد. بدا له، من نتف الأحاديث التي تناهت إلى سمعه، أن كل إنسان في حالة هيجان

وقتل ونهب. وحتى في تشوندونوغر، على بعد ياردات قليلة من المخفر، كانت عمليات القتل جارية.

رأى إقبال الوهج الوردي للنار وسمع صراخ البشر ولكن الشرطة لم تعتقل أحداً. لاشك أن هؤلاء المساجين غير عاديين. بينما كان يحاول فهم من يكون هؤلاء الوافدون انفتحت زنزانته ودخل جوغا بصحبة شرطي. كان مزاج جوغا رائقاً.

ـ (سات سري أكال. بابوجي)، قال: (سأكون خادم قدميك سأتعلم شيئاً ما).

ـ (إقبال صاحب) أضاف الشرطي وهو يغلق الزنزانة (علِّم هذا البودماش كيف يمضي في الطريق الضيق المستقيم).

ـ (حلّ عنا) قال جوغا (بابوجي يعتقد أنك أنت والحكومة جعلتموني بودماش. أليس كذلك بابوجي؟)

لم يجب إقبال وضع قدميه على الكرسي الإضافي وراح يحدّق إلى كومة الصحف. أخذ جوغا قدمي إقبال عن الكرسي وراح يكبسهما بيديه الضخمتين.

ـ بابوجي، أخيراً استيقظت قسمتي. سأخدمك إذا علمتني بعض الانكليزية. فقط بعض الجمل بحيث أستطيع أن أقوم بقليل من «جيت ميت»

ـ من سيشغل الزنزانة المجاورة؟

تابع جوغا يكبس قدميْ وساقيْ إقبال.

ـ لا أدري. أجاب بتردد. يقولون أنهم اعتقلوا قاتلي رام لال.

ـ ظننت أنهم اعتقلوك بسبب الجريمة، قال إقبال.

ـ (أنا، أيضاً) ابتسم إقبال كاشفاً عن صف من الأسنان المتساوية المرصّعة بنقاط ذهبية (دائماً يعتقلونني إذا حدث أي شيء في /مانوماجرا/ كما ترى أنا بودماش.

ـ ألم تقتل رام لال؟

توقف جوغا عن التكبيس. أمسك أذنيه بيديه وأخرج لسانه.

ـ «توبة، توبة! أقتل بانيان قريتي؟ بابوجي، من يقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً؟ إضافةً إلى أن رام لال أعطاني النقود كي أدفع أتعاب المحامين حين كان أبي في السجن. لن أسلك سلوك أبناء الزنا».

ـ أفترضُ أنهم سيفرجون عنك الآن.

ـ الشرطة ملوك البلد. سيفرجون عني حين يروق لهم ذلك. وإذا رغبوا الاحتفاظ بي فإنهم سيدبرون لي قضية حيازة رمح دون ترخيص أو الخروج من القرية دون إذن... أو أي شيء.

ـ لكنك كنت خارج القرية تلك الليلة، أليس كذلك؟

جلس جوغا على قفاه ووضع قدمي إقبال في حرجه وابتدأ يدلك له أخمصاه.

ـ (كنت خارج القرية) أجاب بغمزةٍ خبيثة من عينيه (ولكني لم أكن أَقتل، كنت أُقتَلْ).

فهم إقبال التعبير. لم يشأ أن يشجع جوغا على القيام بالمزيد من الإفشاءات، ولكن بعد أن انفتح الموضوع، ما من قوة يمكنها كبح جوغا. ابتدأ يكبس قدمي إقبال بهمّة أكبر.

ـ عشتُ عدة سنوات في أوروبا؟ سأل جوغا خافضاً صوته.

ـ أجل، عدة سنوات. أجاب إقبال محاولاً بلا جدوى تجنّب ما لايمكن تجنّبه.

ـ إذن بابوجي، لابد أنك نمتَ مع عددٍ من الأجنبيات، صحيح؟ سأل جوغا خافضاً صوته أكثر.

شعر إقبال بانزعاج. من غير الممكن أن تبعد الهنود عن موضوع الجنس طويلاً. إنه هاجس أدمغتهم. يظهر في فنّهم وأدبهم ودينهم. تراه على لوحات الإعلان في المدن. إعلانات عن المنشطات الجنسية وعلاجات الآثار المرضية للعادة السرية. تراه في المحاكم والأسواق حيث يقوم باعة جوالون بتجارة مزدهرة لبيع زيت مصنوع من جلود السحالي الرملية يعيد الحياة للآلة المتعبة ويزيد من حجم القضيب. وتقرؤه في الاعلانات عن مشعوذين يدّعون قدرتهم على معالجة العقم وامتلاكهم أدوية تحرّض الأرحام على إنتاج الذكور. تسمع عن الجنس طوال الوقت. ما من شعب يستخدم الشتم السفاحي بالعفوية التي يستخدمه فيها الهنود. عبارات مثل سالا، أخو الزوجة (أرغب في النوم مع أختك) وسوسرا، الحمو (أرغب في النوم مع ابنتك) هي تعابير تودّد يستخدمها المرء مع أصدقائه وأقاربه كما هي تعابير غضب تهدف إلى إهانة أعداء المرء. وسرعان ما يتحول الحديث في أي موضوع ـ سياسة، فلسفة، رياضة، إلى حديث عن الجنس، الحديث الذي يستمتع فيه كل شخص مع الكثير من الضحك الصاخب واللطمات.

ـ نعم، فعلتُ مع كثيرات. قال إقبال بلا مبالاة.

ـ واه، واه! صرخ جوغا بحماس وحيوية وهو يعصر قدمي إقبال. واه، بابوجي، عظيم. لابد أنك استمتعت كثيراً كثيراً، الأجنبيات مثل حوريات الجنة، بيض وناعمات مثل الحرير. اللواتي عندنا كلهن جاموسات سود.

ـ لافرق بين النساء. في الحقيقة البيض من النساء لسن مثيرات جداً. هل أنت متزوج؟

ـ لا، بابوجي. من يعطي ابنته لبودماش؟ عليّ أن أنال لذّتي حيث أستطيع.

ـ وهل نلت منها الكثير؟

ـ أحياناً.. عندما أذهب إلى /فيروزبور/ من أجل المحاكمة وأستطيع أن أوفّر نقوداً من المحامين والكتّاب أقضي وقتاً رائعاً. أعقد صفقة على ليلة كاملة. يعتقد النسوة أن ذلك يعني كما مع بقية الرجال، مرتين أو ثلاثة بالكثير. فتل شاربيه. ولكن عندما يغادرهن جوغا سينج فإنهن يصرخن «هاي، هاي» ويلمسن آذانهن ويقلن «توبة، توبة» ويرجونني باسم الإله أن أتركهن وأستعيد كل نقودي.

علم إقبال أن جوغا يكذب. معظم الشباب يتكلمون هكذا.

ـ عندما تتزوج، ستجد أن زوجتك تعادلك. قال إقبال. سوف تمسك أذنيك وتقول «توبة، توبة».

ـ لايوجد متعة في الزواج، بابوجي. أين هو وقت أو مكان المتعة؟

في الصيف ينام الجميع في الخارج، في العراء وكل ما يمكنك فعله هو أن تتسلل لبعض الوقت وتدبّر فعلتك قبل أن يفتقدك أقاربك. وفي الشتاء ينام الرجال والنساء منفصلين. عليك أن تدّعي أنك ذاهبٌ لتلبّي نداء الطبيعة في نفس الليلة والوقت.

ـ يبدو أنك تعرف الكثير عن هذا الأمر. مع أنك لست متزوجاً؟

ضحك جوغا.

ـ أنا لا أترك عيني مغمضتين. ثم حتى لو أنني غير متزوج، إلا أنني أقوم بعمل الرجل المتزوج.

ـ أنت أيضاً تلبي نداءات الطبيعة بالاتفاق؟

ضحك جوغا بصوت أعلى.

ـ أجل بابوجي، أجل هذا ما أوصلني إلى هذه الزنزانة. لكنني أقول لنفسي: لو لم أخرج تلك الليلة لما توفرت لي الفرصة الطيبة بلقائك،

بابوجي. ولما توفرت لي فرصة تعلم الانكليزية منك. علّمني بعض الـ «جيت ميت» مثل صباح الخير. هل يمكن بابوجي صاحب؟

ـ ماذا ستفعل بالانكليزية؟ سأل إقبال، الأسياد رحلوا يجب أن تتعلم لغتك الأم.

ـ لم يبدُ على جوغا أنه سُرَّ بالاقتراح. بالنسبة له، التعليم كان يعني معرفة الانكليزية. الموظفون وكتاب الرسائل الذين يكتبون بالأوردية أو الغورموخية يمكن اعتبارهم غير أميين لكنهم ليسوا متعلمين.

ـ أستطيع تعلم ذلك من أي شخص. وعدني الباي ميت سينج أن يعلمني الغورموخي، لكن يبدو أني لن أبدأ. بابوجي، إلى أي صف قرأت أنت؟ لابد أنك أخذت العاشر؟

ـ العاشر هو امتحان مغادرة المدرسة.

ـ نعم أخذت العاشر. في الواقع أني أخذت السادس عشر.

ـ السادس عشر! واه، واه! لم أقابل أحداً فعل ذلك بحياتي. في قريتنا الوحيد الذي أخذ الرابع هو رام لال. والآن مات. والوحيد الذي يقرأ في القرية هو ميت سينج. في القرى المجاورة ليس لديهم حتى باي. المفتش صاحب أخذ السابع والنائب صاحب أخذ العاشر. السادس عشر! لابد أن لديك عقلاً كبيراً.

ارتبك إقبال من هذا الإطراء المسرف.

ـ هل تستطيع أن تقرأ أو تكتب أي شيء؟ سأل إقبال.

ـ أنا؟ كلا. علمني ابن عمي شعراً قليلاً، تعلمه في المدرسة نصفه انكليزي. ونصفه هندوسي:

حمامة ـ كابوتور، وودان ـ تطير

انظر ـ ديخو، يوسمان ـ سماء

هل تعرف هذا؟

ـ لا. ألم يعلمك الأبجدية؟

ـ الـ أ.ب.ت؟ لم يكن يعرفها. كان يعرف بمقدار

أ.ب.ت أين كنت؟

مات إدوار ذهبتُ للحِداد.

لابد أنك تعرف هذه.

ـ لا. لا أعرف هذه أيضاً.

ـ طيب. قل لي شيئاً بالانكليزية.

تكرّم عليه إقبال. علّمه كيف يقول (صباح الخير) و«طابت ليلتك» ولكن إقبال ضاق ذرعاً عندما أراد جوغا أن يعرف بالانكليزية بعض الوظائف الحيوية في الحياة. عندئذ جلبوا السجناء الخمسة الجدد إلى الزنزانة المجاورة.

تلاشى المزاج الجذل لجوغا بالسرعة التي جاء بها.

حوالي الساعة الحادية عشرة ارتدّ المطر إلى رذاذ. أصبح النهار أضوأ. رفع المفتش ناظريه عن سواقته. انقشعت على مدى مسافةٍ منه الغيوم كاشفةً عن سماء بلون أزرق عميق انحدر عمود من ضوء الشمس عبر المطر. طافت أشعته الزعفرانية على الحقول المخضلّة. وامتد قوس قزح في السماء مؤطراً ضاحية تشوندونوغر بقوسٍ متعدد الألوان.

أسرع المفتش في سواقته. أراد أن يبلغ المخفر قبل أن يدوّن رئيس الدورية اعتقال مالي فمن غير الملائم أن تمزق أوراقاً من مفكرة المخفر عندئذٍ ستواجه مقداراً هائلاً من الأسئلة من محامٍ لاعلاقة له بالأمر. كان المساعد رجلاً مجرّباً. ولكن بعد اعتقال جوغا وإقبال اهتزت ثقة المفتش به على نحو ما. لايمكن الوثوق به عندما يتعلق الأمر بشيء خارج الروتين هل

يعرف أين يحجز المساجين؟ إنه فلاح مملوء رهبةً من الطبقة الوسطى المتعلمة. لن يجرؤ على إزعاج إقبال (لقد وضع في زنزانته سريراً وطاولة وكرسياً). وإذا وضع مالي وجوغا في الزنزانة الأُخرى معاً فسيناقشان موضوع الجريمة ويتفقان على تبادل المساعدة.

حين وصل المفتش إلى المخفر، نهض شرطيان كانا جالسين على مقعد في الشرفة، لاستقباله. أخذ أحدهما الدراجة الهوائية منه وساعده الآخر في خلع مشمعه مهمهماً شيئاً ما حول الخروج تحت المطر.

ـ الواجب. قال المفتش متبجّحاً. الواجب. المطر لاشيء. حتى إذا كان هناك هزّة أرضية. الواجب أولاً؟ هل عاد رئيس الدورية؟

ـ نعم سيدي. جلب عصابة مالي منذ دقائق قليلة وذهب إلى بيته ليتناول الشاي.

ـ هل دوّن شيئاً في المفكرة اليومية؟

ـ كلا سيدي، قال إنه سينتظر قدومك ليفعل ذلك.

اطمأن المفتش. دخل غرفة التبليغ. علّق عمامته على مشجب وجلس على كرسي. سجلات من كل الأنواع كانت مكدسة على الطاولة. أحدها كبير بصفحاتٍ صفراء مقسمة إلى أعمدة كان مفتوحاً أمامه. ألقى نظرة على المادة الأخيرة. كانت مكتوبة بيده تتعلق بمغادرته البنغل في وقت مبكر من ذاك الصباح.

ـ «جيد» قال بصوت مرتفع وهو يفرك يديه. لطم فخذيه ومرّر يديه عبر جبهته وخلال شعره (صحيح» قال بصوت مرتفع مخاطباً نفسه «صحيح».

أحضر له شرطي كأساً من الشاي وهو لايكف عن تحريكها بالملعقة.

ـ لابد أن ملابسك رطبة. قال وهو يضع الكأس على الطاولة ويودّعها بتحريكة عنيفة أخيرة.

التقطها المفتش دون أن ينظر إلى الشرطي.

ـ هل حجزتم عصابة مالي في زنزانة واحدة مع جوغا؟

ـ توبة! توبة! صرخ الشرطي رافعاً يديه إلى مستوى كتفيه. يا سيدي لو فعلنا ذلك لحصلت جريمة قتل في مخفر الشرطة. ليتك كنت هنا عندما أحضرنا عصابة مالي. ما أن رآه جوغا حتى طار صوابه. لم أسمع بحياتي مثل هذه الشتائم. الأم والأخت والابنة.. لم يترك له ستراً هزّ القضبان حتى طقطقت. ظننا أنَّ الباب سيُخلع. لم يكن من الممكن وضعهما في زنزانة واحدة. كما أن مالي لم يكن ليدخل الزنزانة إلا كما يمكن لخروف أن يدخل قفص أسد.

فُرجت أسارير المفتش «ألم يردّ مالي على الشتائم؟».

ـ كلا سيدي. الحقيقة أنه كان خائفاً وظلّ يقول أنه لاعلاقة له بجريمة مانوماجرا. صرخ جوغا في وجهه قائلاً أنه رآه بعينيه وأنه سيسوّي حسابه معهم جميعاً ومع أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم حالما يخرج. قال مالي أنه لم يعد يخشى جوغا طالما أن كل ما يستطيع جوغا عمله الآن هو أن ينام مع صاحبته، ابنة الحائك. ليتك بالفعل رأيت جوغا لحظتها! تصرف كحيوان. احمرت عيناه، وضع يده على فمه وزعق. ضرب صدره، هزّ قضبان الحديد، وأقسم أنه سيمزق مالي قطعة قطعة. لم أر بحياتي ثورة غضب كتلك. لم يكن ممكناً أن نغامر، لذلك وضعنا مالي في غرفة التبليغ إلى أن هدأ مزاج جوغا. عندئذٍ نقلناه إلى زنزانة البابو ووضعنا مالي ورجاله في زنزانة جوغا.

ـ لابد أنها كانت ملاسنة حلوة. قال المفتش مع تكشيرة. سوف نشهد المزيد. أنا ذاهب لأطلق سراح مالي ورجاله.

بدا الذهول على الشرطي. وقبل أن يتمكن من توجيه أي سؤال صرفه المفتش بتلويحة مهيبة من يده.

ـ هذه سياسة، فاهم؟ سوف تتعلم حين تقضي في الخدمة الوقت الذي قضيته أنا. اذهب وانظر إذا كان المساعد تناول شايه. قل له أن الأمر مهم.

بعد قليل وصل المساعد وهو يتجشأ بقَنَاعة، وعلى وجهه تعبير الرضا الذاتي لشخصٍ جاهز لتأكيد أي إطراء لكفاءته. تجاهل المفتش ابتسامة التواضع التي لبسها المساعد وسأله أن يغلق الباب ويجلس. تحول تعبير المساعد من الرضا إلى القلق. أغلق الباب ووقف على الجانب الآخر من الطاولة.

ـ نعم سيدي، ما الأوامر؟

ـ اجلس، اجلس. قال المفتش وكان صوته بارداً. لاداعي للعجلة.

جلس المساعد.

أدار المفتش النهاية الحادة لقلم رصاص في أذنه وتفحّص الصملاخ البني الذي علق عليها. أخرج سيجارة من جيبه ونقر رأسها على علبة الكبريت عدة مرات قبل أن يشعلها. مصّها بصوت مسموع. خرج الدخان من منخريه وارتدّ عن الطاولة ثم انتشر في الغرفة.

ـ مساعد صاحب. قال أخيراً وهو يزيل نثرة دخان عن لسانه.

مساعد صاحب، هناك أشياء كثيرة يجب أن نقوم بها اليوم، وأريدك أن تقوم بها أنت شخصياً.

ـ حاضر سيدي. أجاب المساعد بوقار.

ـ أولاً، اصحب مالي ورجاله إلى مانوماجرا وأطلق سراحهم بحيث يرى القرويون أنك تطلق سراحهم. قرب المعبد، ربما. ثم استَفْسِرْ عَرَضاً من القرويين إذا كان أي منهم قد رأى سلطان أو أي شخص من أفراد عصابته. لاداعي لأن تقول لماذا، فقط استفسر.

ـ ولكن سيدي سلطان هاجر مع جماعته إلى الباكستان. الجميع يعرف هذا.

وضع المفتش نهاية قلم الرصاص في أذنه مرة أخرى وفرك الصملاخ على الطاولة. سحب سحبتين من السيجارة ومطّ شفتيه إلى الأمام هذه المرّة وأرسل نفثات من الدخان ارتدت عن السجلّ إلى وجه المساعد.

ـ أنا لا أعرف أن سلطان ذهب إلى الباكستان. على كل حال، سلطان غادر بعد الجريمة في مانوماجرا. لاضير أن تسأل القرويين متى سافر. هل هناك ضير؟

أضاء وجه المساعد.

ـ مفهوم سيدي. هل هناك أوامر أخرى؟

ـ نعم. اسْتَفْسِرْ من القرويين عما يعلمونه عن التحريض الذي جاء من أجله عضو الرابطة الإسلامية، إقبال، حين كان في مانوماجرا.

عادت الحيرة إلى وجه المساعد.

ـ سيدي، اسم البابوجي هو إقبال سينج. إنه سيخي كان يعيش في انكلترا وشعره مقصوص.

ثبّت المفتشُ المساعدَ بنظرةٍ وابتسم:

ـ هناك إقبالات كثر. أنا أتكلم عن محمد إقبال وأنت تفكر بإقبال سينج. محمد إقبال يمكن أن يكون عضواً في الرابطة الإسلامية.

ـ مفهوم سيدي. كرر المساعد، لكنه لم يفهم في الحقيقة. أَمِل أن يفهم الخطة في سياق التنفيذ. سأنفّذ أوامرك.

ـ بقي شيء واحد فقط. أضاف المفتش ناهضاً عن الطاولة. جهّز شرطياً كي يأخذ رسالة مني إلى مدير معسكر اللاجئين المسلمين وذكّرني

أيضاً كي أرسل عدداً من الشرطة إلى مانوماجرا عندما يأتي شباب الجيش الباكستاني لإخلاء القرويين المسلمين.

أدرك المساعد أن المفتش قال هذا ليساعده في فهم الخطة. احتفظ بكلام المفتش في الذاكرة. حيّا مرة أخرى وطقطق بكعبيه «حاضر سيدي» قال وخرج.

لبس المفتش عمامته ووقف بجانب الباب ينظر إلى فناء المخفر. غسل المطر نبات علّيق حائط سكة الحديد المقابل له وكانت أوراقه تلمع تحت الشمس. في مهاجع الشرطة على الجانب الأيسر ثمة صفوف من الأسرّة والبطانيات ملفوفة عليها برتابة. الزنزانتان قبالة المهاجع، وهما في الواقع غرفتان عاديتان. الحائط الأمامي لهما من قضبان حديدية بدلاً من الآجر. يمكن للمرء أن يرى كل شيء داخلهما حيثما كان في الفناء. في الزنزانة القريبة يجلس إقبال على كرسي وقدماه على السرير يقرأ في مجلّة، وعلى الأرض عدد من الصحف المبعثرة، وكان جوغوت سينج جالساً يمسك القضبان الحديدية بيديه يحدّق بكسل إلى مقرّ الشرطة. في الزنزانة الأخرى كان مالي وصحبه منبطحين على الأرض يتحادثون. هبّوا واقفين حين دخل المساعد وثلاثة عناصر مسلحون يحملون الأصفاد. لم يكترث جوغوت سينج بدخول الشرطة إلى الزنزانة المجاورة. ظنَّ أنهم سيأخذون مالي إلى جلسة الاستماع في المحكمة.

ثورة جوغوت وغضبه هزَّتْ سينج مالي. كان خائفاً منه وتمنّى لو يعقد الصلح وفق شروط جوغوت سينج مهما كانت، من أن يبقى خائفاً من عنفه، ذلك أن جوغوت سينج كان الرجل الأعنف في المنطقة. ولكن شتائم جوغوت سينج أغلقت الطريق على الصلح. مالي زعيم عصابة وقد شعر بعد الإهانات التي وجهها له جوغوت سينج أن عليه فعل شيء ما ليستعيد هيبته في عيون رجاله. فكر بعدة أشياء بذيئة كان يمكن أن يقولها لو علم أن جوغوت سينج سيرد على عرض الصداقة بالشتم. شعر بالإهانة

والغضب. لو تتاح له الفرصة فسوف يردّ على جوغوت سينج بشتيمة. القضبان الحديدية تفصل بينهما كما أن هناك شرطة مسلحين على كل حال.

كبّل العناصر مالي وصحبه وربطوا الأصفاد بسلسلة طويلة إلى حزام أحد الشرطة. قادهم المساعد خارجاً. في المؤخرة سار شرطيان مسلحان. حين خرجوا من الزنزانة رفع جوغا عينيه إلى مالي ثم أشاح بوجهه عنه.

ـ أنت تنسى الأصدقاء القدامى، قال مالي بودّ كاذب. أنت لاتنظر إلينا ونحن نتشوق لرؤيتك.

ضحك صحبه «اتركه، اتركه»

ظل جوغا جالساً وعيناه معلقتين علىالأرض.

ـ ما الذي يغضبك إلى هذا الحد، يا عزيزي؟ لماذا أنت حزين هكذا؟ هل يعذّب روحك حبُّ إحداهن؟

ـ «هيا تحركوا» صاح العناصر وهم لايرغبون منهم أن يتحركوا فقد كانوا مستمتعين بالمشهد.

ـ لماذا؟ ألا نستطيع أن نقول (سات سري أكال) لصديقنا القديم؟

سات سري أكال، سردار جوغوت سينج. هل تريد منّا أن ننقل لك أية رسالة؟ رسالة غرام مثلاً؟ إلى ابنة الحائك؟

ظلّ جوغا محدّقاً عبر القضبان كما لو أنه لم يسمع. امتقع وجهه وغضب وغار الدم من وجهه. شدّت يداه على قضبان الحديد.

التفت مالي إلى رفاقه المبتسمين «يبدو أن سردار جوغوت سينج قلق اليوم ولن يردّ على (سات سري أكال). نحن لانبالي. سنقول له مرة أخرى (سات سري أكال).

ضمّ ما لي يديه المكبلتين وانحنى قريباً من جوغوت سينج وابتدأ بصوتٍ مرتفع «سات سري...».

انطلقت يدا جوغوت خلال القضبان وأمسكتا ما لي من شعره البارز تحت عمامته من القفا. سقطت عمامة مالي. زعق جوغا على نحوٍ إجرامي وبحركةٍ واحدة شدّ رأس مالي وحطّمه على القضبان. هزّه كما يهزّ كلبٌ قطعة قماش بالية من جانب إلى جانب، إلى الأمام والخلف، محطماً رأسه مراراً على القضبان. كل حركة مصحوبة بشتيمة: هذه لاغتصاب أمك، وهذه لأختك، وهذه لابنتك. وهذه لامك مرة ثانية. وهذه.. وهذه...

نهض إقبال الذي كان حتئذٍ يراقب ما يجري عن كرسيه، وقف في إحدى الزوايا وراح يصرخ بالشرطة (لماذا لاتفعلون شيئاً ما؟ ألا ترون أنه سيقتل الرجل؟).

ابتدأ عناصر الشرطة بالصراخ. حاول أحدهم أن يضرب وجه جوغا بعقب بندقيته لكن جوغا تفادى الضربة. امتلأ رأس مالي دماً وكدمات. وابتدأ ينتحب. ركض المفتش إلى الزنزانة وصار يضرب يدي جوغا بمخِصرته بكل ما أوتي من قوة. ولكن جوغا لم يُفْلِته. سحب المفتش مسدسه وسدده إلى جوغا «دعه أيها الخنزير، أو أطلق النار».

أمسك جوغا رأس مالي بكلتا يديه وبصق في وجهه. ودفعه عنه بشتيمة. سقط مالي متكوماً وشعره مبعثر على وجهه وكتفيه. ساعده رفاقه في الوقوف ومسحوا الدم والبصاق عن وجهه بعمامته. بكى مثل طفل وهو يشتم بلا انقطاع (لتموت أمك... يا ابن الخنزير... سأسوّي حسابي معك) اقتيد مالي وصحبه بعيداً. وظل يسمع بكاء مالي إلى أن ابتعد كثيراً عن المخفر.

غاص جوغا مجدداً في السكينة التي كان فيها قبل أن يفقد أعصابه. تفحّص آثار عصي المفتش على ظاهر يده. في حينٍ واصل إقبال صراخه وهو لم يزل مثاراً. التفت جوغا إليه بغضب (سكّر فمك، بابو ماذا فعلت لك حتى لاتكفّ عن الكلام).

لم يتكلم جوغا بخشونة معه من قبل. وهذا ما أخاف إقبال أكثر.

مفتش صاحب، بعد أن فرغت الزنزانة الأخرى ألا يمكن نقلي إليها؟ طالب إقبال.

ابتسم المفتش باحتقار «بالتأكيد، سيد إقبال. سوف نقوم بكل ما من شأنه إراحتك. طاولات، كراسي، وربما مروحة كهربائية»؟

* * *

مانوماجرا

حين تبينّ أن القطار كان مليئاً بالجثث نزل صمت ثقيل مُغمّ على القرية. أترس الناس أبوابهم. بقي كثيرون منهم ساهرين طوال الليل يتحادثون همساً. كل امرئٍ شعر أن يدَ جارِه عليه وفكر في البحث عن أصدقاء وحلفاء. لم يلاحظوا أن الغيوم أخفت النجوم ولم يشمّوا النسمة الرطبة الباردة. حين استيقظوا في الصباح ورأوا المطر انصرفت أفكارهم الأولى إلى القطار والجثث المحترقة. كل القرية كانت على الأسطحة تتجه بأنظارها إلى المحطة.

اختفى القطار بالغموض الذي ظهر فيه. كانت المحطة مهجورة، وكانت خيم الجنود مشبعة بالماء ولها مظهر يثير الكآبة. لم يكن ثمة نار ولادخان. في الحقيقة، لم يكن ثمة علامة حياة ـ أو موت. ظل الناس يراقبون، فقد يأتي قطار آخر بالمزيد من الجثث!

مع حلول العصر انسحبت الغيوم جهة الغرب. كان المطر قد غسل الجو فصفا وصار بمقدور المرء أن يرى لأميالٍ من حوله. غامر القرويون بالخروج من منازلهم ليروا إذا كان هناك من يعرف أكثر مما يعرفون. ثم عادوا إلى أسطحة منازلهم. مع أن المطر توقف، لم يبد أحد على رصيف المحطة أو في سقيفة المسافرين أو في الخيم العسكرية. صفٌّ من النسور يجثم على شرفة بناء المحطة وثمة حِداء تحلّق فوق المكان.

شوهد المساعد ومجموعة من عناصر الشرطة مع السجناء على بُعدٍ

من القرية. صاح الناس بعضهم إلى البعض بالنبأ. استدعي اللامباردار. حين وصل المساعد مع فريقه كان ثمة حشد لابأس به من الناس المتجمعين تحت شجرة التين قرب المعبد.

فكّ المساعد قيود السجناء على مرأى من القرويين. جعلهم يبصمون على قطع من الورق وأخبرهم أن يراجعوا المخفر مرتين كل أسبوع. نظر القرويون بارتياب وتجهّم. كانوا يعلمون أن البودماش جوغا وذاك الغريب ليس لهما أية علاقة بالجريمة. كانوا واثقين أيضاً أن الشرطة قد فعلت خيراً باعتقال مالي وعصابته. قد لاتكون العصابة كلها متورطة في الجريمة، قد يكون البعض منهم بريء. ولكن من غير الممكن أن يكونوا جميعاً أبرياء. ثم لماذا يفرجون عنهم في مانوماجرا حيث ارتكبوا الجريمة وليس في قراهم. لابد أن رجال الشرطة واثقون تماماً من براءتهم وإلا لما قاموا بمخاطرة كهذه.

انفرد المساعد باللامباردار وتحادثا لبعض الوقت. عاد اللامباردار وخاطب القرويين قائلاً: «الخفير صاحب يريد أن يعرف إذا كان أحد منكم قد رأى أو سمع أي شيء عن البودماش سلطان أو أي من أفراد عصابته».

روى الأخبار عدد من القرويين. من المعروف أنه رحل إلى الباكستان مع عصابته. فهم مسلمون جميعاً ومسلمو قريتهم تم إخلاؤهم.

ـ أكان ذلك قبل أم بعد مقتل (لالا)؟ استفسر المساعد وقد وصل إلى جوار اللامباردار.

ـ «بعد» أجابت عدة أصوات مثل الكورس. حلّ انقطاعٌ طويل. راح القرويون يتبادلون النظرات بشيء من الحيرة. هم الفاعلون؟ وقبل أن يتمكنوا من توجيه أي سؤال إلى الشرطة، بادر المساعد بالكلام مجدداً:

ـ هل رأى أحد منكم أو تكلم إلى بابو مسلم شاب يدعى محمد إقبال عضو في الرابطة الإسلامية؟

أجفل اللامباردار. لم يكن يدري أن إقبال مسلم. وتذكر بغموض أن

ميت سينج والامام بكش كانا يناديانه إقبال سينج. نظر في الحشد بحثاً عن الإمام بكش لكنه لم يعثر عليه. ابتدأ عدد من القرويين يخبرون المساعد أنهم شاهدوا إقبال يذهب إلى الحقول ويتسكع حول سكة الحديد وقرب الجسر.

ـ هل لاحظتم أي شيء مشبوه حوله؟

ـ مشبوه؟ آ... آ...

ـ هل لاحظتم أي شيء مشبوه حول الرجل؟

ـ هل لاحظتم؟

لم يكن أحدٌ متأكداً. لايمكن أن يكون المرء متأكداً حيال شخص متعلم. فالمتعلمون خبثاء جميعاً ومشبوهون. مؤكد أن ميت سينج هو الشخص الذي يفترض أن يرد على الأسئلة المتعلقة بالبابو، بعض حاجيات البابو لاتزال معه في الغوردوارا.

دُفع ميت سينج إلى المقدمة.

صرف المساعد النظر عن ميت سينج وتوجه ثانيةً إلى المجموعة التي كانت تجيبه: «سأتكلم مع الباي فيما بعد»، قال: «هل يمكن لأحد منكم أن يقول ما إذا كان هذا الرجل قد وصل القرية قبل الجريمة أم بعدها»؟

كانت هذه صدمة أخرى. ما شأن بابو مديني بعملية سلب أو قتل؟ قد لايكون للأمر علاقة بالنقود بعد كل شيء! لا أحد يمتلك الثقة تماماً. أنهم لايثقون بشيء. صرف المساعد الحشد مع «إذا كان لدى أيٍ منكم معلومات مؤكدة حول مقتل المرابي أو حول سلطان أو حول محمد إقبال فليبلغ المخفر في الحال».

تفتت الجمع إلى مجموعات صغيرة، يتكلمون ويعبّرون بأيديهم في حيوية. ذهب ميت سينج إلى المساعد الذي كان يهيئ شرطته للعودة.

ـ خفير صاحب، الشاب الذي اعتقلتموه ذاك اليوم ليس مسلماً. إنه سيخي. إقبال سينج.

لم يعره المساعد أدنى اكتراث. كان مشغولاً يكتب شيئاً ما على قطعة ورق صفراء. انتظر ميت سينج بصبر.

ـ خفير صاحب. ابتدأ من جديد حين كان المساعد يطوي الورقة. لكن هذا لم ينظر إليه حتى، استدعى شرطياً وسلّمه الورقة قائلاً:

ـ خذ دراجة هوائية أو عربة وأوصل هذه الرسالة إلى مدير الوحدة العسكرية الباكستانية. أخبره أيضاً بنفسك أنك جئت من مانوماجرا وأن الوضع فيها خطير. يجب أن يرسل شاحناته وجنوده لإجلاء المسلمين بأسرع مايمكن. حالاً.

ـ حاضر سيدي. أجاب الشرطي مطقطقاً بعقبيه.

ـ خفير صاحب. توسّل ميت سينج.

ـ خفير صاحب، خفير صاحب. كرر المساعد. أكلت أذني بخفير صاحب هذه، ماذا تريد؟

ـ إقبال سينج سيخي.

ـ هل فتحت سحّاب بنطلونه لترى أكان سيخياً أم مسلماً؟ أنت باي بسيط في معبد. اذهب وصلِّ.

أخذ المساعد مكانه على رأس الشرطة الواقفين في صف مزدوج.

ـ انتباه! إلى اليسار سر! خطوة سريعة.

عاد ميت سينج إلى المعبد دون أن يجيب على الاستفسارات اللهفى للقرويين.

* * *

شقت زيارة المساعد مانوماجرا إلى نصفين تماماً كما تقطع السكين قالب الزبدة.

جلس المسلمون في منازلهم غارقين في تفكير كئيب. الاشاعات عن الفظاعات التي ارتكبها السيخ ضد المسلمين في (باتيالا) و(أمبالا) و(كابورتالا) هذه الاشاعات التي كانوا يسمعونها من قبل دون أن يكترثوا بها، عادت إلى أذهانهم. سمعوا عن نساء فاضلات نزعت عنهن ملابسهن وأُجبرن على السير عاريات في شوارع مزدحمة ثم اغتُصبن في الساحات. كثيرات هن اللواتي قتلن أنفسهن كي يتخلصّن ممن سيكونون مغتصبيهن. سمعوا عن مساجد دُنّست بذبح الخنازير فيها، وعن نسخ من القرآن الشريف مزقتها أيدي الكافرين. وعلى نحوٍ مباغتٍ تماماً أصبح كل سيخي في مانوماجرا غريباً وشرّير السريرة. وبدت لحيته وشعره الطويل همجيين. وبدا كيربانه مرفوعاً على المسلمين. لأول مرة عنى لهم اسم الباكستان شيئاً ما.

ـ ملاذ أمان حيث لاوجود للسيخ.

كان السيخ غاضبين متجهّمين: «لاتثق بمسلم»، قالوا. الغورو الأخير حذّرهم أن المسلم لاذمّة له. لقد كان محقاً. طوال تاريخ الفترة الإسلامية في الهند، الأبناء يسجنون آباءهم أو يقتلونهم، والأخوة يعمون أخوتهم ليفوزوا بالعرش. وماذا فعلوا بالسيخ؟ أعدموا اثنين من الغورو، واغتالوا آخر وذبحوا أطفاله. مئات الآلاف واجهوا حكم السيف لا لأي جريمة ارتكبوها سوى أنهم رفضوا اعتناق الإسلام. دُنّست معابدهم بذبح الماشية، ومُزّق الغرانت نتفاً نتفاً. كما أن المسلمين ليسوا ممن يحترمون النساء أبداً. فقد نقل اللاجئون السيخ أخبار نساء رمين أنفسهن في الآباء وحرقن أنفسهن مفضلات الموت على الوقوع في أيدي المسلمين. واللاتي لم ينتحرن منهن سيّروهن عاريات في الشوارع واغتصبوهن على الملأ ثم قتلوهن. وها الآن في مانوماجرا تم إحراق ملء قطارٍ من السيخ المذبوحين بأيدي المسلمين.

السيخ والهندوس يفرّون من منازلهم في الباكستان ولابد أن يجدوا ملجأ لهم في مانوماجرا. ثم هناك جريمة قتل (رام لال). لم يعرف القاتل ولكن الجميع يعلمون أن (رام لال) هندوسي وأن سلطان وعصابته مسلمون هربوا إلى الباكستان. ثم هناك شخصٌ غريب دون عمامة أو لحية يتسكع في القرية. إنها أسباب كافية لأن تغضب من شخصٍ ما، وهكذا قرروا أن يغضبوا من المسلمين. المسلمون أنكروا الجميل على نحوٍ دنيء. المنطق بالنسبة للسيخ ليس بذي شأن كبير. حين يثورون، لايبقى مكان للمنطق البتّة.

لقد كانت ليلة ذات غمّ. النسمة التي جرفت الغيم بعيداً أعادته مرة أخرى. بدايةً جاء الغيم على هيئة جدائل صوفية بيضاء. مسحها القمر عن وجهه. ثم جاءت أمواجاً هائلة، محت ضوء القمر وأحالت السماء إلى لون رمادي بليد. صارع القمر ليشق طريقه عبرها ومن حين إلى حين كانت تلمع قطعٌ من السهل كأنها الفضة. بعدئذٍ، جاءت الغيوم بتشكيلات سوداء مشؤومة وامتدت عبر السماء. ثم انهمر المطر دون أن يسبقه برق أو رعد.

تجمع عدد من الفلاحين السيخ في بيت اللامباردار. جلسوا متحلّقين حول قنديل. البعض على الأسرّة والبعض الآخر على الأرض. كان ميت سينج بينهم. لم يتفوّه أحد بكلمة لوقت طويل اللهم سوى تكرار.

ـ الإله يعاقبنا على آثامنا.

ـ أجل. الإله يعاقبنا على آثامنا.

ـ في الباكستان ظلم(*) كثير.

ـ هذا لأن الإله يريد أن يعاقبنا على آثامنا. من يزرع الشر يحصد الشر.

(*) هكذا في الأصل.

ثم تكلم أحد الشباب «ماذا فعلنا كي نلقى كل هذا؟ حتى الآن كنا ننظر إلى المسلمين على أنهم اخوتنا وأخواتنا. لماذا يرسلون رجلاً منهم كي يتجسس علينا؟».

ـ تقصد إقبال؟ قال ميت سينج. تحادثت معه طويلاً، إنه يضع سواراً حديدياً في معصمه ككل السيخ وأخبرني أن أمه طلبت منه ذلك ففعل. إنه سيخي حليق. كما أنه لايدخن. ثم انه جاء القرية بعد يوم من مقتل المرابي.

ـ باي، أنت طيب القلب. أجاب الشاب نفسه. هل يؤذي المسلم أن يضع سواراً حديدياً في معصمه وأن يمتنع عن التدخين يوماً، خصوصاً إذا كان لديه عمل مهم يقوم به؟

ـ قد أكون بسيطاً. اعترض ميت سينج بحرارة. لكني أعرف كما يعرف الجميع أن لاعلاقة للبابو بالجريمة، لو كانت له علاقة لما ظهر في القرية بعدها. هذا شيء يفهمه أي أحمق.

شعر الشاب بقليل من الارتباك.

ـ أضف إلى ذلك تابع ميت سينج بثقة أكبر، انهم اعتقلوا مالي بسبب الجريمة...

ـ ما أدراك أنهم اعتقلوا مالي بسبب الجريمة؟ قاطعة الشاب بلهجة انتصار.

ـ فعلاً، كيف لك أن تعرف ما تعرفه الشرطة؟ الشرطة أفرجت عن مالي. هل عرفتهم يفرجون عن القاتلين دون محاكمة وتبرئة. سأل آخرون

ـ باي، أنت دائماً تتكلم بلا عقل.

ـ أَخّهْ، إذا كان العقل كله معكم، قولوا لي من الذي رمى الخلاخيل في بيت جوغا؟

ـ ما أدرانا؟ أجاب كورس من الأصوات.

ـ أنا سأقول لكم. إنه مالي، عدو جوغا. كلكم تعلمون أنهما انفصلا. من يجرؤ على أن يهين جوغا إلاه؟

لم يردّ أحد على السؤال. تابع ميت سينج بنفَسٍ هجومي كي يُفْهِم فكرته (وكل هذا الكلام عن سلطان، سلطان! ما علاقة سلطان بالجريمة؟).

ـ صحيح بايجي، قد تكون على حق. قال شاب آخر. لكن رام لال مات فلماذا ننشغل بأمره؟ الشرطة ستهتم بذلك. دعوا جوغا ومالي وسلطان يصفّون حساباتهم فيما بينهم. أما بخصوص البابو فيمكنه أن ينام مع أمه، ليس هذا ما يهمنا. مشكلتنا هي ماذا سنفعل مع هؤلاء الخنازير الذي يعيشون بيننا؟ منذ أجيال يأكلون ملحنا وانظروا ماذا فعلوا! عاملناهم كإخوة لنا فتصرفوا كالأفاعي.

ارتفعت حرارة الاجتماع بغتةً. تكلم ميت سينج بغضب.

ـ ماذا فعلوا لكم؟ هل طردوكم من أراضيكم أو احتلوا منازلكم؟ هل أغووا نساءكم؟ قولوا لي ماذا فعلوا؟

ـ اسأل اللاجئين ماذا فعلوا لهم. أجاب الشاب المشاكس الذي ابتدأ المجادلة. هل تقصد أنهم يكذبون عندما يقولون أن الغوردوارا أحرقت وذُبح الناس؟

ـ أنا كنت أتكلم عن مانوماجرا فقط، ماذا فعل أهل قريتنا؟

ـ إنهم مسلمون.

هزّ ميت سينج كتفيه استهتاراً.

أحس اللامباردار أن تسوية الجدال تقع على عاتقه:

ـ حدث ماكان يجب أن يحدث. قال بحكمة. علينا أن نقرر ماذا يتعين علينا أن نفعل الآن. هؤلاء اللاجئون الذين نزلوا في المعبد قد يقدمون على شيء ما يسيء إلى اسم القرية.

الإشارة إلى (شيء ما) غيّرت مزاج الاجتماع. كيف يمكن للغرباء أن يقدموا على شيء ما بحق أهل قريتهم؟ ها هي عقبةٌ أخرى في وجه المنطق. ولاء المجموعة فوق العقل. الشاب الذي أشار إلى المسلمين كخنازير تكلم بغطرسة:

ـ ليجرؤ إنسان على رفع اصبعه ضد أهل قريتنا!

وبخّه اللامباردار.

ـ أنت رجل طائش. ساعةً تقول أنك تريد قتل المسلمين وساعةً تقول أنك تريد قتل اللاجئين. نحن نتحدث بشيء وحضرتك تجر الحديث إلى شيء آخر.

ـ طيب، طيب لامباردار. ردّ الشاب. طالما أنك ذكي إلى هذا الحد تكلم بشيء ما.

ـ اسمعوا أيها الأخوة. قال اللامباردار خافضاً صوته. هذا وقت يجب أن لانفقد فيه أعصابنا. لا أحد هنا يريد قتل أحد. لكن من يعلم نوايا الناس الآخرين؟ عندنا اليوم أربعون أو خمسون لاجيء وهم بفضل الغورو جماعة مسالمون يقتصرون على الكلام. غداً قد يصلنا آخرون فقدوا أمهاتهم أو أخواتهم. هل سنقول لهم لاتدخلوا هذه القرية؟ وإذا دخلوها فهل ندعهم يشفون غليلهم من أبناء قريتنا؟

ـ إن كلامك يساوي مئة ألف روبيه. قال عجوز. يجب أن نفكر في الأمر.

فكر الفلاحون في مشكلتهم. لايمكنهم أن يرفضوا حماية اللاجئين الضيافة ليست تسلية، إنها واجب مقدس خصوصاً تجاه المشردين. هل بمقدورهم الطلب من مسلمي قريتهم الرحيل؟ بكل تأكيد لا. الوفاء لابن القرية يحتل صدارة الاعتبارات الأخرى. رغم الكلمات التي استخدموها لن يجرؤ أحد أن يقترح طرد المسلمين. حتى في اجتماع سيخي خالص، تحوّل مزاج الجماعة من الغضب إلى الحيرة.

بعد بعض الوقت تكلم اللامباردار.

ـ جرى إخلاء القرى المجاورة من كل مسلميها إلى معسكر لاجئين قرب تشوندونوغر، بعضهم هاجر إلى الباكستان وأُرْسِلَ بعضهم إلى معسكر أكبر في جولوندور.

ـ نعم. أضاف آخر. الأسبوع الماضي أُخليت كابوراو جوجوماتا. مانوماجرا هي المكان الوحيد الباقي الذي لايزال فيه مسلمون. ما أودّ معرفته هو كيف طلب هؤلاء الناس من أبناء قراهم أن يرحلوا. نحن لانستطيع قول هذا الشيء لأهل قريتنا إلّا كما نستطيع أن نطلب من أبنائنا أن يخرجوا من منازلنا. هل يوجد هنا أحدٌ يستطيع أن يقول للمسلمين «يجب أن ترحلوا عن مانوماجرا يا أخوتي؟».

قبل أن يتمكن أحد من الإجابة دخل قروي آخر ووقف على العتبة.التفت صوبه الجميع لكنهم لم يتبيّنوه تماماً في ضوء القنديل الباهت.

ـ من أنت؟ سأل اللامباردار مظللاً عينيه من القنديل. تفضل.

دخل الإمام بكش، تبعه رجلان من المسلمين أيضاً.

ـ سلام، إمام بكش. سلام خاير دينا. سلام، سلام.

ـ سات سري أكال، لامباردار. سات سري أكال. أجاب المسلمون أفسحوا لهم مكاناً. الجميع انتظر الإمام بكش أن يبدأ. سرح الإمام بكش لحيته بأصابعه.

ـ إه، أيها الأخوة. ماهو قراركم بشأننا؟ سأل بهدوء.

خيّم صمت حرج. كل الأنظار توجهت إلى اللامباردار.

ـ لماذا تسألنا. هذه قريتكم بقدر ماهي قريتنا. أجاب اللامباردار.

ـ سمعتم ما يقال! أخليت جميع القرى المجاورة. لم يبق سوى قريتنا. إذا كانت رغبتكم أن نرحل، سنرحل.

ابتدأ ميت سينج يستنشق الهواء بصوت مسموع. شعر أن غيره يجب أن يتكلم، فقد تكلم هو ما يكفي. ثم انه مجرد رجل دين يعيش على عطايا القرويين. تكلم أحد الشباب.

ـ عم إمام بكش، الأمر كالتالي: طالما نحن هنا لن يجرؤ أحدٌ أن يمسّ شعرة منكم. بعد أن نموت تستطيعون أن تتدبروا أموركم.

ـ نعم. أضاف آخر بحرارة. نموت قبلكم. إذا رفع إنسان حاجبيه عليكم فسوف نغتصب أمه.

ـ أمه وأخته وابنته. أضاف آخرون.

مسح الإمام بكش دمعة عن عينيه وتمخط في طرف ثوبه.

ـ ماذا لنا في الباكستان؟ ولدنا هنا. أجدادنا ولدوا هنا. عشنا بينكم مثل الأخوة.

لم يستطع الامام بكش أن يتابع، غلبه البكاء. احتضنه ميت سينج وأخذ ينشج. شرع عدد من الحضور بالبكاء دون صوت سوى صوت التمخُّط.

تكلم اللامباردار:

ـ أجل، أنتم اخوتنا. بقدر ما يعتمد الأمر علينا، يمكنكم أن تعيشوا هنا كما تشاؤون أنتم وأولادكم وأحفادكم. إذا تكلم أحد بخشونة معكم أو مع أولادكم أو زوجاتكم ستجدوننا وأولادنا وزوجاتنا دون أن تمس شعرة في رؤوسكم. ولكن، تشا تشا، نحن قلائل والغرباء يأتون من الباكستان بالآلاف. من سيكون مسؤولاً إذا ما أقدموا على فعل شيء؟

ـ صحيح. وافق الآخرون. عندما يعتمد الأمر علينا فلن يصيبكم مكروه. ولكن، ماذا عن هؤلاء اللاجئين؟

ـ سمعت أن هناك قرى حاصرها الرعاع بالآلاف وجميعهم مسلحون بالبنادق والرماح. لم يكن من إمكانية للمقاومة.

ـ إننا لانخاف من الرعاع، أجاب آخر بسرعة. فليأتوا! لسوف نوسعهم ضرباً بحيث لايجرؤون بعد ذلك أن ينظروا إلى مانوماجرا مرة أخرى.

لم يكترث أحدٌ بهذا المتحدي. كان تحديه فارغاً إلى حدّ أن أحداً لم يتعامل معه بجدية. تمخط الإمام بكش ثانيةً.

ـ بماذا تنصحوننا إذن يا إخوان؟ قال والعاطفة تخنقه.

ـ عمي. قال اللامباردار بصوت ثقيل: يصعب عليّ أن أقول. ولكن نظراً للوضع الحالي، أنصح بأن تذهبوا إلى معسكر اللاجئين حتى ينتهي الاضطراب أقفلوا أبوابكم على ممتلكاتكم. ونحن سنعتني بماشيتكم إلى أن تعودوا.

خلقت نصيحة اللامباردار سكوناً متوتراً. حبس القرويون أنفاسهم خوف أن يُسمعوا. اللامباردار نفسه شعر بضرورة أن يقول أي شيء كي يبدّد أثر كلماته. شرع من جديد.

ـ حتى البارحة كان بإمكاننا أن نساعدكم في عبور النهر في حال حدوث أية اضطرابات. الآن بعد يومين من المطر ارتفع النهر ولايمكن العبور إلا بالقطارات والجسور وأنتم تعلمون ماذا يحدث هناك! إن حرصي على سلامتكم هو ما دفعني إلى نصحكم باللجوء إلى المعسكر لبضعة أيام، ثم يمكنكم أن تعودوا، بقدر ما يعتمد الأمر علينا. كرّر بحرارة. إذا قررتم البقاء فأنتم على الرحب والسعة، سندافع عنكم بأرواحنا.

لم يكن لدى أحد من شك في أهمية كلام اللامباردار. جلسوا مطرقين إلى أن نهض الإمام بكش.

ـ لابأس، قال بوقار. إذا كان لابد من الرحيل فمن الأفضل أن نبدأ

بحزم فرشنا وممتلكاتنا. سيستغرق منا الأمر أكثر من ليلة كي نغادر بيوتاً ظل آباؤنا وأجدادنا يؤسسونها مئات السنين.

أحس اللامباردار بشعور قوي بالذنب وغلبته العاطفة. نهض واحتضن الإمام بكش وأخذ يبكي بصوت مسموع. تحاضن السيخ والمسلمون وبكوا كالأطفال. بلطف، حرر الإمام بكش نفسه من معانقة اللامباردار (لاداعي للبكاء) قال بين الشهقات (هذا منوال الدنيا..)

ليس بلا نهاية يغني البلبل

في ظلال العريشة العطرة

ليس بلا نهاية يدوم الربيع

ولاتفتُّح الزهور

ليس بلا نهاية يعمّ السرور

على أيام النعيم تهجم الشمس

والصداقات لاتدوم إلى الأبد

لايعرفون حياةً، لاتعرف هذا

ـ لايعرفون حياة، لاتعرف هذا. كرر الآخرون مع تنهدات، صحيح يا عمي إمام بكش، هكذا هي الحياة.

غادر الامام بكش وصاحباه الاجتماع باكين.

* * *

قبل أن يدور الامام بكش على بيوت المسلمين، ذهب إلى بيته الملاصق للمسجد. كانت نوران قد نامت. وثمة في الحائط مشكاة، وفي المشكاة كان يتقد قنديل كاز.

ـ نورو، نورو. صرخ وهو يهزها من كتفها. قومي. نورو.

فتحت البنت عينيها.

ـ ما الأمر؟

ـ قومي. احزمي الأغراض. يجب أن نرحل غداً. أعلن على نحو مسرحي.

ـ نرحل؟ إلى أين؟

ـ لا أدري... الباكستان!

تجلّست البنت في سريرها بحركة واحدة.

ـ لن أذهب إلى الباكستان. قالت بتحدّ.

تظاهر الامام بكش أنه لم يسمعها.

ـ ضعي الملابس في الصناديق وعدة المطبخ في كيس خيش. وخذي شيئاً من أجل الجاموسة. سنأخذها معنا أيضاً.

ـ لن أذهب إلى الباكستان. كررت الفتاة بقوة.

ـ قد لاترغبين أنت بالذهاب، لكنهم سيطردونك، كل المسلمين سيغادرون غداً إلى المعسكر.

ـ من سيطردنا؟ هذه قريتنا. هل ماتت الحكومة والشرطة؟

ـ لاتكوني غشيمة يا بنت. افعلي ما أقول لك. مئات الآلاف من الناس ذاهبون إلى الباكستان ومثلهم خارج منها ومن يتخلف يُقتل. عجّلي. احزمي الأغراض. يجب أن أذهب لأخبر الآخرين لكي يستعدوا.

ترك الإمام بكش الفتاة جالسة في السرير. فركت نوران وجهها بيديها وحدقت إلى الحائط. لم تدرِ ماذا تفعل. يمكنها أن تقضي الليل خارج القرية وتعود حين يكون جميع الآخرين قد ذهبوا. لكنها لاتستطيع أن تفعل ذلك وحدها، ثم الدنيا ماطرة. كان جوغا فرصتها الوحيدة. لقد

أفرجوا عن مالي، فقد يكون جوغا أيضاً في البيت. كانت تعلم أن ما تقوم به ليس صحيحاً، لكن الأمل ألحّ وأعطاها شيئاً ما تفعله.

خرجت تحت المطر. مرّت في الطرقات بعدد من الناس يحملون أكياس خيش تغطي منهم الرؤوس والأكتاف. القرية كلها مستيقظة. الأنوار الباهتة لمصابيح الزيت كانت ترى في معظم البيوت. البعض يحزم والبعض الآخر يساعده في الحزم والغالبية يكتفون بالتحدث إلى أصدقائهم. النساء يجلسن على الأرض متحاضنات ويبكين كما لو أن في كل بيت ميتاً.

هزّت نوران باب منزل جوغا. خشخش السلسال في الجانب الآخر لكن لم يأتِ أي ردّ. لاحظت في الضوء الرمادي أن الباب متروسٌ من الخارج. فكت الحلقة الحديدية ودخلت. أم جوغا لم تكن في البيت. ربما كانت في زيارة بعض صديقاتها المسلمات. لم يكن ثمة ضوء في البيت البتة. جلست نوران على سرير. لم ترغب أن تقابل أم جوغا وحيدة ولم ترغب أيضاً في العودة إلى البيت. أَمِلتْ بحدوث شيء ما، شيء يأتي بجوغا إلى البيت. جلست وانتظرت وأَمِلَتْ.

على مدى ساعة كانت نوران تراقب الظلال الرمادية للسحب تلاحق بعضها البعض. يصب المطر مدراراً ثم يغدو رذاذاً ثم ينهمر غزيراً بالتناوب. سمعت صوت وقع أقدام تختار مواقعها بحذر على الدرب الموحلة. توقفت الخطى خارج الباب أحد ما هزّ الباب.

ـ من في الداخل؟ سأل صوت عجوز.

ارتعبت نوران. لم تقوَ على الحركة.

ـ من في الداخلي؟ سأل الصوت بغضب، لماذا لاتتكلم؟

نهضت نوران وغمغمت على نحو غامض (بي بي)

دخلت العجوز بسرعة وأغلقت الباب وراءها.

ـ جوغا! جوغا هذا أنت؟ همست. هل أفرجوا عنك؟

ـ لا بي بي هذه أنا نوران بنت التشاتشا الامام بكش. أجابت الفتاة خائفة.

ـ نورو؟ ماذا جاء بك هذه الساعة؟ سألت العجوز بغضب.

ـ ألم يرجع جوغو؟

ـ ماذا تريدين من جوغو؟ ردّت العجوز بنزق. أنت التي أوصلته إلى السجن. أنت التي جعلت منه بودماش. هل يعرف أبوك أنك تذهبين إلى بيوت الغرباء في أنصاف الليالي مثل بنات الهوى؟

طفقت نوران تبكي.

ـ سوف نرحل غداً.

ـ لم يلينّ هذا من قبل العجوز.

ـ ما علاقتك بنا كي ترغبي بالقدوم إلينا؟ اذهبوا حيث تشاؤون.

رمت نوران ورقتها الأخيرة.

ـ لا أستطيع الرحيل. لقد وعدني جوغا بالزواج.

ـ اطلعي برّه، فاجرة! استهجنت العجوز. أنت ابنة حائك مسلم، تتزوجين من فلاح سيخي؟ برّه قبل أن أذهب وأبلغ والدك وكل القرية. اذهبي إلى الباكستان! اتركي ابني جوغا وشأنه.

شعرت نوران بالثقل وانعدام الحياة.

ـ لابأس بي بي سأذهب. لاتغضبي مني. حين يعود جوغا فقط أبلغيه أنني جئت لأقول (سات سري أكال). نزلت الفتاة على ركبتيها وضمت ساقي العجوز وابتدأت تجهش. بي بي سأذهب ولن أعود ثانية. لاتكوني قاسية معي وقت رحيلي.

كانت أم جوغا واقفة متيبسة لا أثر للعاطفة على وجهها. في داخلها أحست بقليل من الليونة والضعف.

ـ سأخبره.

توقفت نوران عن البكاء. تباعدت شهقاتها ولاتزال تتمسك بالعجوز. غاص رأسها أكثر فأكثر إلى أن لامس قدمي العجوز.

ـ بي بي!

ـ ماذا تريدين أن تقولي الآن؟ أحسّت العجوز مسبقاً بما ستقول الفتاة.

ـ بي بي!

ـ بي بي، بي بي، لماذا لاتقولين شيئاً؟ سألت المرأة مبعدةً نوران عنها. ما بك؟

بلعت الفتاة ريقها.

ـ بي بي، أنا أحمل ابن جوغا في أحشائي. إذا ذهبت إلى الباكستان سوف يقتلونه حين يعلمون أن أباه سيخي.

تركت العجوز رأس نوران يسقط مجدداً على قدميها. تشبثت نوران بهما بقوة وطفقت تبكي من جديد.

ـ منذ متى هذا؟

ـ اكتشفت ذلك مؤخراً. أنا في الشهر الثاني.

ساعدت أم جوغا الفتاة بالنهوض وجلستا معاً على السرير. كفّت نوران عن النشيج.

ـ لا أستطيع الاحتفاظ بك هنا. قالت العجوز أخيراً. لاتنقصني المشاكل مع الشرطة. حين ينتهي كل هذا ويخرج جوغا من السجن. سوف يذهب ويأتي بك حيثما كنتِ. هل يعرف أبوك؟.

ـ لا! إذا عرف سوف يزوجني إلى أحد ما، أو يقتلني. ابتدأت مجدداً بالبكاء.

ـ أوه! كفّي عن هذه البكبكة. أمرتها العجوز بصرامة. لماذا لم تفكري بالأمر عندما كنت تضحكين على ابني؟ قلت لك أن جوغا سيأتي بك حالما يخرج.

خنقت نوران شهقاتها.

ـ بي بي، لاتدعيه يتأخر عني.

ـ سوف يسرع إليك من نفسه. إذا لم يأتِ بك سيضطر إلى شراء زوجة وليس لدينا فلس واحد. سيحضرك إذا كان يريد الزواج منك. لاتخافي.

أملٌ غامض ملأ كيان نوران. شعرت أنها تنتمي إلى البيت وأنه ينتمي إليها، السرير الذي تجلس عليه، الجاموسة، أم جوغا، كل ذلك لها. تستطيع أن تعود حتى لو لم يجيء جوغا. تستطيع أن تخبرهم أنها متزوجة. التفكير بأبيها جاء كغيمة سوداء على قمر آمالها. سوف تنسلّ دون أن تخبره. أضاء قمرها من جديد.

ـ بي بي! إذا أتيحت الفرصة سآتي في الصباح لأقول (سات سري أكال) سات سري أكال. يجب أن أذهب لأحزم أغراضنا. احتضنت نوران العجوز بحبّ. سات سري أكال. قالت من جديد مسلوبة الأنفاس وخرجت.

جلست أم جوغا على السرير تحدق في الظلام لساعات طويلة.

* * *

قليلون من ناموا تلك الليلة في مانوماجرا. كان أبناء القرية ينتقلون من بيت إلى بيت، يتحدثون، يبكون، يؤكدون حبهم وصداقتهم، يطمئنون بعضهم البعض أن هذه الحال ستنتهي سريعاً. ستعود الحياة إلى سابق عهدها. هكذا كانوا يقولون.

عاد الإمام بكش من جولته على بيوت المسلمين قبل أن تعود نوران. أغراض البيت على حالها. كان منقبضاً أكثر مما يسمح له أن يغضب منها. هذه الحال عسيرة على الصغير كما على الكبير. لابد أنها ذهبت لرؤية بعض صديقاتها. حاصَ باحثاً عن أكياس خيش وصفائح تنكية وصناديق. بعد دقائق قليلة وصلت نوران.

ـ هل رأيت كل صاحباتك؟ دعينا ننهي ضبَّ الأغراض قبل أن ننام قال الإمام بكش.

ـ اذهب أنت للنوم. أنا سأحزم الأغراض. أغراضنا قليلة وأنت متعب بالتأكيد. أجابت.

ـ صحيح، أنا متعب قليلاً. قال وجلس على سريره، احزمي الملابس الآن وفي الصباح نحزم عدّة المطبخ بعد أن تطبخي لنا شيئاً للطريق. تمدد الإمام بكش على السرير ونام.

ليس أمام نوران الكثير من العمل. فأمتعة الفلاح البنجابي قليلة. إضافة إلى غيارات الملابس هناك اللحاف والوسادة وابريقان وعدة الطبخ وربما أيضاً صحن نحاسي أصفر وكوب أو كوبان من النحاس الأحمر. يمكن وضع هذا كله على قطعة الأثاث الوحيدة التي يملكون: السرير. وضعت نوران ملابسها وملابس أبيها في صندوق فولاذي رمادي مهترئ كان عندهما منذ أن وعت. أشعلت ناراً في الموقد لتخبز بعض التشاباتي لليوم التالي. في غضون نصف ساعة أنجزت الطبخ. شطفت الأواني ووضعتها في كيس من الخيش. ووضعت الدقيق والملح والبهارات الباقية في علب بسكويت وسجائر ووضعت هذه بدورها داخل صفيحة كاز فارغة عليها غطاء خشبي. انتهى حزم الأغراض. كل ما بقي هو أن تلفّ اللحاف والوسادة وتضع المتفرقات على السرير والسرير على الجاموسة. أما كِسْرة المرآة فيمكنها أن تحملها بيدها.

* * *

نزل المطر متقطعاً طوال الليل. في الصباح الباكر صار هطولاً منتظماً. نام القرويون الذين سهروا جُلَّ الليل، على إيقاع المطر الرتيب وأفيون النسمة الصباحية العذبة.

استيقظت القرية كلها على صفير أبواق السيارات وشخير المحركات وهي تحرث بحركة بطيئة طريقها في الرواغ والوحل. دارت القافلة حول مانوماجرا باحثة عن طريق واسع بما يكفي لمرور الشاحنات. في المقدمة سيارة جيب مزودة بمكبّر صوت، وعليها ضابطان مسلم وسيخي (وهو الذي سبق أن جاء القرية بعد قطار الأشباح). ثمة دزينة من الشاحنات وراء الجيب، إحداها مليئة بالجنود الباتانيين وأخرى بجنود من السيخ كلهم مسلحون ببنادق ستن.

توقفت القافلة خارج القرية. الجيب فقط استطاعت أن تشق طريقها فوصلت إلى مركز القرية وتوقفت قرب مصطبة تحت شجرة التين. ترجّل الضابطان. طالب الضابط السيخي القرويين أن يحضروا اللامباردار. انضمّ الجنود الباتانيين إلى الضابط المسلم الذي أرسلهم في فرق ليدوروا على البيوت ويطلبوا من المسلمين الخروج. على مدى دقائق قليلة ترددت في مانوماجرا أصداء صرخات: (ليخرج المسلمون الذاهبون إلى الباكستان حالاً. ليخرج كل المسلمين حالاً).

بدأ المسلمون يخرجون من منازلهم ببطء، يسوقون قطعانهم وعرباتهم التي تجرها الثيران المحمّلة بالأسرّة ولفافات الفرش والصناديق وصفائح الكاز وأباريق فخارية وآنية نحاسية وبقية أهل مانوماجرا خرجوا يشيّعونهم.

كان الضابطان واللامباردار آخر من خرج. تبعتهم الجيب. كانوا يتحادثون ويعبّرون بحركاتٍ من أيديهم في حيوية. معظم الحديث دار بين الضابط المسلم واللامباردار.

ـ لا أستطيع أن أنقل كل هذه الأمتعة مع عربات الثيران والأسرّة

والقدور والمقالي... هذه القافلة ليست إلى الباكستان. نحن سنوصلهم فقط إلى معسكر اللاجئين في /تشوندونوغر/ ومن هناك بالقطار إلى لاهور. يمكنهم أن يأخذوا معهم فقط ملابسهم وفرشهم ونقودهم ومجوهراتهم. قل لهم أن يتركوا هنا ما عدا ذلك. وأنت تستطيع أن تتكفّل بها.

جاء نبأ ذهاب مسلمي مانوماجرا إلى الباكستان مفاجئاً. ظنّ اللامباردار أنهم سيذهبون إلى معسكر اللاجئين فقط لبضعة أيام يعودون بعدها.

ـ كلا، صاحب، لانستطيع قول شيء. أجاب اللامباردار. يمكننا الاعتناء بأملاكهم ليوم أو يومين ولكن بما أنهم ذاهبون إلى الباكستان فقد لايعودون إلا بعد شهور عديدة. الملكية شيء سيء. إنها تسمم العقول. لا، لن نمسّ شيئاً. نحن نتكفّل بمنازلهم فقط.

اغتاظ الضابط المسلم.

ـ لا وقت عندي للمجادلة. أنت ترى بعينيك أن ليس لدي سوى دزينة من الشاحنات. لايمكنني أن أضع فيها الجواميس وعربات الثيران.

ـ كلا، صاحب. ردّ اللامباردار بعناد. يمكنك أن تقول ما شئت ويمكنك أن تغضب منا، لكننا لن نمسّ ممتلكات اخوتنا. هل تريدنا أن نصبح أعداء؟

ـ واه، واه! لامباردار صاحب. أجاب المسلم مقهقهاً. شاباش! البارحة كنتم تريدون قتلهم واليوم تقولون أنهم اخوتكم. ربما تغيّرون رأيكم غداً.

ـ لاتهيننا بهذه السخرية، كابتن صاحب، نحن أخوة وسنبقى كذلك.

ـ لابأس، لابأس، لامباردار، أنتم إخوة. قال الضابط. ليكن ذلك. لكن أستطيع نقل كل هذه الأشياء. تشاور أنت مع الضابط وأهل القرية في الموضوع، وأنا أتكفّل بالمسلمين.

صعد الضابط المسلم إلى سيارة الجيب وخاطب الحشد. اختار كلماته بعناية.

ـ لدينا دزينة من الشاحنات فقط ويجب أن يكون كل المسلمين الذاهبين إلى الباكستان على متنها في غضون عشر دقائق. سوف تخلى قرى أخرى أيضاً. البضاعة الوحيدة المسموحة هي ما يمكنكم حمله. لاشيء أكثر. يمكنكم أن تتركوا ماشيتكم وعربات الثيران والأسرّة والخوابي وغيرها مع أصدقائكم في القرية. إذا تسنّى لنا فسوف نحضرها لكم لاحقاً. معكم عشر دقائق كي ترتبوا أموركم. بعدها ستتحرك القافلة.

ترك المسلمون عربات الثيران واحتشدوا حول سيارة الجيب. كانت أصوات احتجاجهم عالية. عاد الضابط الذي كان قد نزل من الجيب إلى المكرفون ثانية.

ـ سكوت! احذركم أن القافلة ستتحرك بعد عشر دقائق سواء كنتم فيها أم لا، هذه ليست مسؤوليتي.

كان الفلاحون السيخ يقفون جانباً. وحين سمعوا الأمر ذهبوا إلى الضابط السيخي طلباً للنصح. لم يعرهم هذا أدنى اهتمام. واصل تحديقه المزدري من فوق ياقة مشمعه المقلوبة إلى الناس والقطيع والعربات والشاحنات التي تخوض في الوحل والمطر.

ـ سردار صاحب، أليس اللامباردار على حق؟ يجب أن لايمس المرء ملكية غيره. هناك دائماً خطر سوء فهم. سأل ميت سينج.

قاس الضابط ميت سينج من فوق إلى تحت.

ـ معك حق باي جي هناك دائماً خطر سوء الفهم. لايجب أن يضع المرء يده على ملكية غيره ولا أن ينظر إلى امرأة غيره. فقط يجب أن يدع الآخرين يأخذون أملاكه وينامون مع أخواته. الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تجعلك تفهم أنت وأمثالك هي إرسالك إلى الباكستان. هل اغتصب أحدٌ

أمك أو أختك أمام عينيك؟ هل نزعت عنك ملابسك وأُرسلتَ برفسة وبصقةٍ على قفاك؟

كان كلام الضابط صفعة في وجه كل فلاح. لكن أحد الحضور ضحك بصوت مكتوم. التفت الجميع. إنه مالي وأصحابه الخمسة. ومعهم بضعة لاجئين شباب يقيمون في المعبد السيخي لا أحد منهم ينتمي إلى مانوماجرا.

ـ سيدي، أهل هذه القرية مشهورون بإحسانهم. قال مالي مبتسماً إنهم لايستطيعون العناية بأنفسهم فكيف يعتنون بالآخرين؟ لكن لاتهتم سردار صاحب نحن سنعتني بأملاك المسلمين. يمكن أن تبلغ الضابط الآخر أن يتركها معنا. وستكون في أمان إذا فَرَزتَ بعض الجنود ليحموها من نهب هؤلاء الناس.

كان ثمة اضطراب فظيع. تراكض الناس هنا وهناك صارخين بأعلى أصواتهم. وبالرغم من اللهجة الحاسمة للضابط المسلم فقد اجتمع حوله الناس يطالبونه ويحتجّون ويتقدمون بألف اقتراح واقتراح. جاء إلى زميله السيخي المحاط بأخوته في الدين وهم في حيرة من أمرهم.

ـ هل يمكنك تدبر أمر الممتلكات الباقية؟

قبل أن يتكلم السيخي انفجرت جلبة من الاحتجاجات من كل جهة. ظل السيخي مزموم الشفتين ومترفعاً.

استدار الضابط المسلم وصرخ بحدة: (اخرسوا!)

ماتت الهمهمات. تكلم ثانيةً موقّعاً كل كلمة بطعنةٍ من اصبعه.

ـ معكم عشر دقائق للصعود إلى الشاحنات مع البضائع التي تستطيعون حملها بأيديكم فقط، ومن لايكون في الشاحنات سنتركه وراءنا. هذا آخر تحذير.

سُوِّي كل شيء. قال الضابط السيخي متكلماً بالبنجابية بهدوء

رتّبتُ أن يعتني هؤلاء الناس من القرية المجاورة بالماشية والعربات والمنازل حتى ينتهي الاضطراب. سأسجّل كل الممتلكات على قائمة وأرسلها إليك.

لم يرد زميله. كانت على وجهه ابتسامة ساخرة. رمقهما السيخ والمسلمون من أهالي مانوماجرا بيأس.

لم يكن هناك وقت لترتيب أي شيء. لم يكن هناك وقت حتى لكلمة وداع. اشتغلت محركات الشاحنات. أحاط الجنود الباتانيين بالمسلمين، اصطحبوهم إلى العربات لدقيقة قصيرة أو دقيقتين، ثم إلى الشاحنات. في غمرة المطر والوحل والجنود الذين يسوقون الفلاحين موجّهين فوهات البنادق إلى ظهورهم، رأى الفلاحون بعضهم البعض قليلاً. كل ما استطاعوه هو أن يصرخوا الوداعات الأخيرة من الشاحنات. ساق الضابط المسلم سيارة الجيب ليرى أن كل شيء على ما يرام، ثم عاد ليقول وداعاً لزميله السيخي. تصافحا بطريقة آلية دون ابتسامة أو أثر من عاطفة. اتخذت الجيب مكانها في طليعة رتل الشاحنات. مرة أخرى دوّى الميكروفون معلناً الاستعداد للانطلاق. صرخ الضابط: «الباكستان!» أجابه الجنود على طريقة الكورس «إلى الأبد!». خوّضت القافلة في الوحل شاقة طريقها إلى تشوندونوغر. راقبهم السيخ حتى غابوا عن النظر. كفكفوا دموعهم وعادوا إلى بيوتهم بقلوب ثقيلة.

لم يُترَع بعد كأس أسى مانوماجرا. استدعى الضابط السيخي اللامباردار. جاء هذا ومعه كل القرويين. لم يشأ أحد أن يبقى وحيداً. شكل الجنود السيخ حلقةً حوله. أخبرهم الضابط أنه قرر تعيين مالي قيّماً على أملاك المسلمين الذين أخلوا. كل من يقف في وجهه أو وجه رجاله يعرض نفسه للرصاص.

عندئذ قامت عصابة مالي واللاجئون بفك الثيران ونهب العربات ثم ساقوا البقرات والجواميس ومضوا.

كارما

طوال ذلك الصباح، جلس الناس في بيوتهم يحدقون قانطين عبر أبوابهم المفتوحة. شاهدوا رجال مالي ينهبون منازل المسلمين. شاهدوا الجنود السيخ يروحون ويجيئون كما لو أن الأمور على طبيعتها. سمعوا خوار الماشية تحت الضرب والجرّ، خوار يثير الشفقة. سمعوا كيف وضعت السكين حداً للقوقأة الصاخبة للدجاجات والديوك. لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى الجلوس والتنهّد. صبيٌ راعٍ، كان خارج القرية يجمع الفطور عاد بالنبأ، لقد فاض النهر. لكن أحداً لم يعره انتباهاً. رغبوا في أن يطوف أكثر ويغرق مانوماجرا كلّها بمن فيها، هم ونساءهم وأطفالهم وماشيتهم شرط أن يغرق مالي وعصابته واللاجئين والجنود.

الرجال يتنهدون والمطر يهطل بصبيب ثابت ونهر سوتليج يواصل ارتفاعه. امتد على كلا الجانبين من الدعامات المركزية التي كانت تحتوي في العادة القنوات الشتوية، وضمّ البحيرات التي حول الدعامات الأخرى في مجرى عريض واحد. امتد فوق الجسر لاعقاً السدَّ الذي يفصله عن حقول مانوماجرا. غمر الجزائر الصغيرة الكثيرة التي في سرير النهر حتى لم يبق بادياً منها سوى قمم الشجيرات النامية عليها. مستعمرات طيور الغاق والخرشنة التي اعتادت أن تبيت هناك طارت فوق الضفتين ثم إلى الجسر الذي لم تعبره أية قطارات منذ عدة أيام.

بعد الظهر، دار قروي آخر على المنازل وهو يصيح «وي وي بانتا

سينج، النهر يطوف! وي داليب سينج النهر طاف. وي، اسمعوا، وصل إلى السد» اكتفى الناس بأن نظروا بعيون كئيبة تقول: «لقد سمعنا ذلك من قبل». ثم جاء رجل آخر بنفس الرسالة: «فاض النهر» ثم آخر وآخر حتى بات الجميع يقولون «هل تعلمون؟ فاض النهر».

أخيراً خرج اللامباردار ليرى بنفسه. أجل، لقد فاض النهر. لايمكن لمطر يومين أن يتسبب بذلك، لابد أن الجبال صبّت فيه بعد ذوبان الثلج، ومن المرجَّح أن بوابات قنوات جرّ المياه كانت مغلقة خوفاً من أن تنفجر ضفافها من الطوفان. وهكذا لم يبقَ سوى النهر منفذ للماء. لقد تحوَّل الجدول الكسول الودود الرمادي إلى امتداد بنّي وَحْلي عنيف مهدِّد. بقيت أعمدة الجسر صلبةً تتحدى النهر بازدراء. وحدها الأعمدة بقيت كذلك، شقت نهاياتها الحادة صفحة الماء وتركتها تفرغ ثورتها العقيمة في دوامات وتيارات دائرية. راح المطر يضرب سطح الماء مُجدِّراً إياه بكامله. لقد كان مرأى سوتليج رهيباً.

بحلول المساء كانت مانوماجرا قد نسيت مسلميها وأفعال مالي الشنيعة. وغدا النهر الموضوع الرئيسي للأحاديث. مرة أخرى انتصبت النسوة على الأسطحة ينظرن صوب الغرب. وصار الرجال يذهبون بالتناوب إلى السدّ لينقلوا تطورات حالة النهر.

خرج اللامباردار مرة أخرى لرؤية النهر قبل غروب الشمس. لقد ارتفع أكثر مما كان عليه في زيارته له بعد الظهر. فقد غرقت جزئياً بعض عناقيد البمب التي كانت من قبل فوق مستوى الماء. ارتخت سيقانها وطافت على الماء ريشاتها المخضّبة البيضاء كالثلج. لم يسبق له أن رأى سوتليج يرتفع إلى هذا المستوى خلال وقت قصير كهذا. لازالت مانوماجرا بعيدة عن النهر ويبدو السد الطيني صلباً وآمناً. مع ذلك، نظّم مراقبة مستمرة طوال الليل. أربع مجموعات. كل مجموعة من ثلاثة رجال يناوبون من غروب الشمس إلى شروقها وينقلون حالة النهر كل ساعة.

كان قرار اللامباردار دثاراً نامت القرية تحته آمنةً مطمئنة. لم ينم اللامباردار إلا قليلاً. فبعيد منتصف الليل عاد الرجال الثلاثة المناوبون يتكلمون بصوت مرتفع في حالةٍ عالية من الإثارة. لم يتمكنوا أن يتبيّنوا تحت ضوء القمر الضعيف الرمادي ما إذا كان النهر قد ارتفع أكثر، غير أنهم سمعوا أصواتاً بشرية تستغيث. جاءت الأصوات عبر الماء. قد تكون قادمة من الجانب الآخر أو من النهر نفسه. خرج اللامباردار معهم وأخذ بيله الكهربائي المصفّح بالكروم.

وقف الرجال الأربعة على السدّ وعاينوا النهر الذي بدا مثل صفحةٍ من السواد. مسح الشعاع الأبيض لبيل اللامباردار سطح النهر. لم يستطيعوا رؤية شيء سوى المياه المدوّمة. أمسكوا عن التنفس وأصاخوا السمع لكنهم لم يسمعوا شيئاً سوى ضجة سقوط المطر على الماء. ومع كل مرة يسألهم اللامباردار إذا كانوا متأكدين من أن ما سمعوه كان أصواتاً بشرية وليس عواء بنات آوى، ابتدأ الشك يساورهم وراح كل منهم يسأل الآخر:

«كانت الأصوات واضحة أليس كذلك كارنايلا؟».

ـ أوه، أجل كانت واضحة بما يكفي. هاي، هاي مثل شخص يتألم.

جلس الأربعة تحت شجرة متجمعين حول قنديل مقاوم للريح. تبلّلت حتى النهاية أكياس الخيش التي استخدموها كواقيات من المطر، وكذلك ملابسهم. بعد ساعة انقشعت الغيوم وهدأ المطر حتى صار رذاذاً ثم توقف. برز القمر من خلال الغيم فوق الأفق الغربي. شكل انعكاسه على النهر بقعةً عريضة من ورق الفضّة الوامض، تمتد من الضفة المقابلة إلى الرجال تحت الشجرة. على هذه البقعة الساطعة من ضوء القمر كان يمكن رؤية حتى المويجات الصغيرة للماء على نحو واضح.

جسمٌ أسود بيضوي ضرب دعامة الجسر وانجرف مع التيار نحو سدّ

مانوماجرا. بدا مثل طبل كبير يحمل عصيّاً على جوانبه. تأرجح إلى الأمام والخلف والجنب إلى أن أمسكه التيار ثانيةً وجاء به إلى البقعة الفضية ليس بعيداً عن مكان جلوس الرجال. إنه جسد بقرة ميتة، بطنها منفوخ مثل برميل كبير وقوائمها ممتدة إلى الأعلى ومتيبّسة. تبعها بعدئذٍ كتلٌ من قشّ السقوف وصررٌ من الملابس.

ـ يبدو كما لو أن الطوفان قد جرف قرية ما. قال المختار.

ـ هدوء! اسمعوا! قال أحد القرويين هامساً.

طاف صوت الأنين الخافت عبر المياه.

ـ هل سمعتم؟

ـ هدوء!

أمسكوا عن التنفس وراحوا يصغون.

لا، لايمكن أن يكون هذا صوت بشري. كان هناك صوت طقطقة. أصاخوا السمع مرة أخرى. بالطبع، طقطقة. إنه القطار. صار لهاثه أوضح فأوضح ثم رأوا الشكل العام للقاطرة ثم للقطار نفسه. كان بلا أضواء. حتى الضوء الأمامي للقاطرة كان مطفأ. تطايرت الشرارات من مدخنة القاطرة كالألعاب النارية. لدى وصول القطار إلى الجسر فرَّ رفٌّ من طيور الغاق بصمت باتجاه مجرى النهر وطارت طيور الخرشنة في الاتجاه المعاكس مع صرخات حادة. إنه قطار من الباكستان.

ـ لا أضواء في القطار.

ـ لم تصفر القاطرة.

ـ إنه مثل شبح.

ـ من أجل اسم الإله، لاتتكلموا هكذا. قال اللامباردار. قد يكون قطار بضائع وربما كان صوت صفير القاطرة هو الصوت الذي سمعتموه.

هذه القاطرات الأمريكية الجديدة تُعْوِل مثل شخص يُذبح.

ـ كلا، لامباردار. سمعنا الصوت منذ أكثر من ساعة، وسمعنا نفس الصوت قبل أن يظهر القطار. أجاب أحد القرويين.

ـ القطار لم يعد يحدث ضجة الآن. هل بمقدوركم سماع الصوت؟

عبر خط سكة الحديد، حيث أحرقت ألف جثة قبل بضعة أيام، أرسلَ ابن آوى عواء طويلاً حزيناً. انضمّت إليه مجموعة من بنات آوى. ارتعب الرجال.

ـ لابد أنها بنات آوى. أصواتها تشبه أصوات النائحات حين يموت شخص ما. قال اللامباردار.

ـ لا، لا. اعترض الآخر. لا، لقد كان صوتاً بشرياً واضحاً كما تتكلم معي الآن.

جلسوا واصغوا وراقبوا الأشكال الغريبة اللامتميزة تطوف على الماء. غاب القمر وبعد فترة وجيزة من السواد صار الأفق الشرقي رمادياً. عبرت أرتالٌ من الخفافيش طائرةً بلا صوت وابتدأت الغربان تنعق في وجوهها. صرخةٌ ثاقبةٌ من كويل انفجرت عبر تجمع من الأشجار. استيقظ العالم كله.

بعيداً إلى الشمال انتشرت الغيوم وارتفعت الشمس ببطء غامرةً السهل الذي خضّبه المطر ببريق برتقالي باهر. كل شيء تألق في ضوء الشمس. ازداد ارتفاع النهر، وحملت مياهه العكرة عربات وجثث الثيران المنتفخة ماتزال مكدونة إليها. الخيول تتقلب من جنب إلى جنب كما لو أنها تحكّ ظهورها. كان هناك أيضاً رجالٌ ونساء تلتصق ملابسهم على أجسادهم، وأطفالٌ ينامون على بطونهم وأذرعتهم تتشبث بالماء ومؤخراتهم الصغيرة تغطس وتطفو. سرعان ما ملأت النسور والحِداء السماء. انخفضت في طيرانها وحطت على الجثث الطافية. نقرت منها حتى انقلبت الجثث نفسها وأخافتها بأيديها التي ارتفعت متيبسّة في الهواء وغاصت في الماء مرة أخرى.

ـ لابد أن بعض القرى قد داهمها الفيضان في الليل. قال اللامباردار برزانة.

ـ من يكدن العربات والثيران في الليل؟ سأل أحدُ مصاحبيه.

ـ نعم. كلامك صحيح. ما الداعي إلى كدن الثيران؟

بدا لهم المزيد من الأشكال البشرية تقترب عبر أقواس الجسر.

اصطدمت بالعواميد، توقفت. دارت مع الدوّامات ثم جاءت متواثبة مع مجرى النهر. صعد الرجال باتجاه الجسر ليروا بعض الجثث التي انجرفت قريباً من الضفة.

وقفوا وحدّقوا.

ـ لامباردار، إنهم لم يموتوا غرقاً بل قتلاً.

فلاحٌ عجوز بلحية رمادية منبطحٌ على الماء. ذراعاه ممدودتان كما لو أنه مصلوب. فمه مفتوح على اتساع وفيه تظهر لثة بلا أسنان. على عينيه غشاوة وشعره يطوف حول رأسه مثل هالة. ثمة جرحٌ عميق على رقبته يمتد من الجنب إلى الصدر، ورأس طفل ينطح إبط العجوز. آخرون كُثُر كانوا ينحدرون مع النهر مثل جذوع أشجار مقطوعة من الجبال ومرميّة في المجرى كي تبلغ السهل. منهم من عبر خلال أقواس الجسر وتابع طريقه مسرعاً ومنهم من ارتطم بالأعمدة وانقلب وبانت جروحه إلى أن أخذه التيار ثانية. منهم بلا أطراف ومنهم ممزقةٌ بطونهم. أثداء الكثيرات مشروطة. طافوا مع مجرى النهر الذي تضيئه الشمس. يغطسون تارة ويظهرون تارة أخرى والحداء والنسور معلقة فوق رؤوسهم.

لفّ اللامباردار والقرويون أطراف عمائمهم حول وجوههم «ليرحمنا الغورو». همس أحدهم «لابد أن مجزرة قد حدثت في مكان ما. يجب أن نبلغ الشرطة».

ـ الشرطة!؟ قال رجل صغير بمرارة. ماذا سيفعلون؟ سيكتبون تقرير معلومات أولية؟

عادوا إلى مانوماجرا مرضى وبقلوب ثقيلة. لم يعرفوا ماذا يقولون للناس حين يصلون إلى القرية. ارتفع النهر أكثر؟ غرقت بعض القرى؟ هناك مجزرة في مكان ما؟ مئات الجثث تطفو على السوتليج؟ أم يكتفون بالصمت؟

حين بلغوا القرية لم يكن ثمة أحد كي يسمع ما يقولون. الجميع على أسطحة المنازل يتجهون بأنظارهم إلى المحطة، فقد وصل بعد انقطاع عدة أيام قطار إلى مانوماجرا في وضح النهار. وبما أن القاطرة تتجه نحو الشرق فلا بد أن القطار قادم من الباكستان. هذه المرة أيضاً امتلأ المكان بالجنود وعناصر الشرطة وضربوا طوقاً حول المحطة. تناقلوا أنباء الجثث التي تملأ النهر بالصياح من على أسطحة المنازل، تناقلوا أخبار التمثيل بجثث النساء والأطفال. لم يرغب أحد بمعرفة هوية القتلى، ولم يرغب أحد بالذهاب إلى النهر ليستطلع. هناك اهتمام جديد بالمحطة مع وعد برعب أسوأ من الحالة الأخيرة.

لم يرْتَبْ أحد بمحتوى القطار. كانوا متأكدين أن الجنود سوف يطلبون منهم الخشب والزيت. لم يعد لديهم زيت يوفرونه، والخشب الباقي عندهم مشبعٌ بالرطوبة. لكن الجنود لم يأتوا، بدل ذلك وصل بلدوزر من مكان ما. ابتدأ يجرّ فكه السفلي على الأرض بجوار المحطة من جانب مانوماجرا. واستمر يأكل التربة، يمضعها ثم يرميها جانباً. فعل ذلك على مدى ساعات عديدة حتى كان ثمة خندق من مستطيل بطول ١٥ ياردأ على جانبيه تلعٌ من التراب. ثم توقف للاستراحة. استدعي الجنود وعناصر الشرطة الذين كانوا يراقبون بكسل عمل البلدوزر وعادوا بسير منتظم إلى الرصيف ثم رجعوا اثنين اثنين يحملون نقالات من قماش القنب. أفرغوا النقالات في الحفرة وعادوا إلى القطار لجلب المزيد. استمر هذا طوال اليوم

حتى غروب الشمس، عندئذٍ استيقظ البلدوزر مرة أخرى، فتح فكيه وأكل التراب الذي كان قد رماه من قبل ثم تقيأه في الخندق حتى تساوى مع الأرض. بدا المكان مثل ندبة جرح. بقي جنديان لكي يحرسا الحفرة من نهب الغريرات وبنات آوى.

* * *

في المساء حضرت القرية بكاملها صلوات المساء في الغوردوارا. لم يحدث هذا الشيء من قبل سوى في أعياد ميلاد الغورو أو يوم رأس السنة في نيسان. عادةً يكون الزوّار الدائمون للمعبد من المسنين أو المسنات. لم يكن يأتي الآخرون إلى المعبد إلا لتسمية أولادهم أو للتعميد أو الزواج أو الجنازة. بعد مقتل المرابي ارتفع عدد المصلّين على نحو مطرّد، لم يرغب الناس أن يبقوا وحيدين. وبعد رحيل المسلمين اكتسبت منازلهم بأبوابها المشرعة هيئةً شبحية مخيفة. يمرّ بها القرويون سريعاً دون أن يتلفّتوا. كانت الغوردوارا هي الملاذ الوحيد الذي يذهبون إليه دون الحاجة إلى تقديم تفسيرات. الرجال يأتون بذريعة أنهم قد يحتاجونهم لسبب ما، وذريعة النساء هي أنهن يردن أن يكن مع رجالهن. والنساء يجلبن الأولاد. اكتظت القاعة الأساسية حيث يحفظ الكتاب المقدس، والغرفتان الأخريتان على الجانب، باللاجئين والقرويين. وعلى الجانب الآخر من العتبة رُتِّبت أحذيتهم في صفوف منتظمة.

قرأ ميت سينج صلاة المساء على ضوء قنديل الزيت. وراءه وقف أحد الرجال ملوحاً بمذَبَّه. بعد أن انتهت الصلاة أنشد الجميع ترنيمة، في حين طوى ميت سينج الغرانت في أقمشة حريرية مزركشة ووضعه كي يرتاح في الليل. انتصب المصلون وجمعوا أيديهم وفي المقدمة منهم وقف ميت سينج. كرر أسماء الغورو العشرة والشهداء السيخ والمعابد السيخية واستجدى بركتهم. صرخ الحشد مصدِّقاً بصوت مرتفع «واه، غورو» مع نهاية كل تضرّع. ركعوا ومسحوا جباههم على الأرض، وانتهت الشعيرة. جاء ميت سينج وانضمّ إلى الرجال.

كان جمعاً مهيباً. فقط الأولاد لعبوا وتطاردوا في أرجاء الغرفة ضاحكين متصايحين. البالغون وبّخوا الأولاد فعاد هؤلاء واحداً واحداً إلى أحضان أمهاتهم وناموا. ثم تمدد الرجال والنساء على الأرض في شتى أنحاء الغرفة.

الراجح أن أحداث اليوم لايمحوها الرقاد. بعضهم لم ينم البتة. آخرون يسرقهم النوم ثم يجفلون إذا لمستهم ساق جار أو ذراعه. حتى الذين كانوا يشخرون بانغماسٍ ظاهر، حلموا وعاشوا من جديد مشاهد اليوم. سمعوا أصوات محركات السيارات وخوار الماشية وبكاء الناس. نشجوا في نومهم وتبللت لحاهم بالدمع.

حين سمع صوت بوق سيارة ظنّ الصاحون الذي كانوا يكبون أنهم يحلمون. والذين كانوا يحلمون ظنوا أنهم سمعوا الصوت في أحلامهم، حتى أنهم قالوا في أحلامهم «نعم، نعم» جواباً على الصوت الذي لاينفك يسأل «هل متّم جميعاً؟».

زائر آخر الليل هذا كان سيارة جيب تشبه التي جاء فيها ضباط الجيش هذا الصباح. بدا أنها تعرف طريقها في القرية. مضتْ من باب إلى باب بصوت يستفسر «هل يوجد أحد هنا؟» نباح الكلاب كان الجواب الوحيد. عندئذٍ جاءت إلى المعبد وسكت محركها. وصل إلى الفناء منها رجلان وصرخا مرة أخرى «هل يوجد أحد هنا أم متّم جميعاً؟»

نهض الجميع. ابتدأ بعض الأولاد يبكون. رفع ميت سينج فتيلة القنديل وخرج مع اللامباردار إلى لقاء الزوار.

لاحظ الرجلان الاضطراب الذي أحدثاه. فتجاهلا اللامباردار وميت سينج واتجها نحو عتبة الغرفة الكبيرة نظر أحدهما داخل الغرفة إلى الحشد الحيران وسأل.

ـ هل متّم جميعاً؟

ـ ألا يوجد بينكم حي؟ أضاف الآخر.

ـ لا أحد ميت في هذه القرية، ماذا تريدان؟ ردّ اللامباردار بغضب.

قبل أن يتمكنا من الردّ انضمّ إليهما اثنان من صحبهما. جميعهم من السيخ. يرتدون بدلات خاكية ومن أكتافهم تتدلى البنادق.

ـ تبدو هذه القرية ميته تماماً. كرر أحد الغرباء بصوتٍ عالٍ مخاطباً صحبه.

ـ كان الغورو رحيماً بهذه القرية. لم يمت عندنا أحد. أجاب ميت سينج بكبرياء هادئة.

ـ جيد. إذا كانت القرية حيه إذن يجب أن تموت. يجب أن تغرق في حفنة ماء. لأنها قرية من المخصيين. قال الزائر بفظاظة ملوحاً بيده بحركة مسرحية.

خلع الغرباء أحذيتهم وولجوا القاعة الكبيرة. تبعهما اللامباردار وميت سينج. عدّل الرجال من جلساتهم وربطوا عمائمهم، ووضعت النسوة أولادهن في أحضانهن وحاولن أن يهززن لهم كي يناموا مجدداً.

أشار أحد أفراد المجموعة، ظهر أنه القائد، إلى الآخرين بالجلوس. جلس الجميع. كان له أسلوب عدائي آمر. إنه ولد في سن المراهقة. على ذقنه لحية صغيرة ملصوقة بالبريليانتين. حجمه صغير وهزيل، وكلّه على بعضه يبدو مخنثاً على نحوٍ ما. تحت الزاوية الحادة لعمامته الزرقاء الزاهية تبرز عصبة حمراء لامعة. وعلى كتفيه المتهدلين يتعلق القميص العسكري الخاكي فضفاضاً. يرتدي سام براون أسود والشريط الذي يعبر صدره محشو بالرصاص، والحزام العريض يشدّ على خصره الذي لايزال أضيق من الحزام. ثمة على أحد جانبيه حمّالة مسدس يظهر منها عقب المسدس، وعلى الجانب الآخر خنجر. بدا كما لو أن أمه قد ألبسته على طريقة الكاوبوي الأميركي.

داعب الصبي حمّالة مسدسه ومرّر أصابعه على الأنوف الفضية للرصاصات. تلفّت حوله بثقة تامة:

ـ هل هذه قرية سيخية؟ سأل بوقاحة. كان واضحاً لدى القرويين أنه من سكان المدينة المتعلمين. هكذا رجال يتكلمون دائماً بفوقية مع الفلاحين. لايقيمون اعتباراً للسن ولا للمكانة.

ـ نعم سيدي. إنها قرية سيخية طوال عمرها. كان عندنا سكان مسلمون لكنهم رحلوا. أجاب اللامباردار.

ـ أي نوع من السيخ أنتم؟ سأل الصبي محملقاً على نحو متوعّد. ثم طوّر سؤاله. فحول أم مخصيون؟

لم يدر أحد ماذا يقول. لم يعترض أحد على استخدام هذه اللغة في الغوردوارا وبحضور النساء والأطفال.

ـ هل تعلمون عدد القطارات المحمّلة بالقتلى من السيخ والهندوس التي وصلتنا حتى الآن؟ هل تدرون بالمذابح التي وقعت في راوالبندي و/ مولتان/ و/غوجرانوالا/ و/سشيخوبورا/؟ ماذا تفعلون حيال ذلك؟ تأكلون وتنامون وتسمون أنفسكم سيخاً، السيخ البواسل! النوع المحارب! أضاف رافعاً كلتا ذراعيه ليؤكد تهكمه. مسح الحضور بعينيه البرّاقتين متحدياً كل من يعارضه. أطرق الناس يشعرون بالخجل من أنفسهم على نحوٍ ما.

ـ ماذا بيدنا أن نفعل سردارجي؟ سأل اللامباردار. إذا دخلت حكومتنا الحرب مع الباكستان سوف نحارب. ماذا نستطيع أن نفعل ونحن جالسون هنا في مانوماجرا؟

ـ حكومة! سخر الولد باحتقار. هل تتوقعون من الحكومة أن تفعل كل شيء؟ حكومة مؤلفة من تجار مرابين بانيانيين جبناء! هل ينتظر مسلمو الباكستان إذناً من حكومتهم قبل أن يغتصبوا أخواتكم؟ هل يطلبون إذناً قبل أن يوقفوا القطارات ويقتلوا كل من فيها، الشيوخ والشباب والنساء

والأطفال؟ تريدون من الحكومة أن تفعل شيئاً! شيء عظيم! شاباش! برافو! وصفع حمّالة المسدس صفعة اعتداد.

ـ ولكن سردار صاحب. قال اللامباردار متلعثماً. أخبرنا ماذا بيدنا أن نفعل.

ـ هذا أفضل. أجاب الغلام. الآن نستطيع أن نتكلم. اسمعوا، اسمعوا جيداً. توقف، نظر حوله وحدّق مجدداً. تكلم ببطء مؤكداً على كل جمله، طاعناً الهواء بسبابته. مقابل كل هندوسي أو سيخي يقتل اقتلوا مسلمين اثنين. مقابل كل امرأة يختطفونها ويغتصبونها اختطفوا امرأتين. مقابل كل بيت ينهبونه انهبوا اثنين. مقابل كل قطار محمّل بالقتلى يرسلونه أرسلوا قطارين. مقابل كل قافلة سيارات يهاجمونها هاجموا قافلتين. هذا سيوقف القتل على الجانب الآخر. هذا سيُفهمهم أننا أيضاً نلعب لعبة القتل والنهب هذه.

توقف ليعاين الأثر الذي خلقه. استمع إليه الناس باستغراق وأفواه فاغرة. وحده ميت سينج لم يرفع ناظريه، نظّف حنجرته ولكنه لم يقل شيئاً.

ـ نعم، يا أخ. لماذا لاتقول شيئاً. سأله الفتى متحدياً.

ـ كنت سأقول. قال ميت سينج بتقطع. كنت سأقول. كرّر. ماذا فعل المسلمون هنا لنا كي نقتلهم انتقاماً لما يفعله المسلمون في الباكستان؟ لايحق العقاب إلا على مرتكبي الجرائم.

حملق الغلام غاضباً بميت سينج.

ـ ماذا فعل السيخ والهندوس في الباكستان لكي يذبحوا؟ ألم يكونوا أبرياء؟ هل ارتكبت النسوة جرائم يستحققن عليهاالاغتصاب؟ هل ارتكب الأطفال جرائم قتل لكي يخوزقوا أمام آبائهم؟

أُفحم ميت سينج. شاء الصبي أن يسحقه أكثر. (أجبني يا أخ! تكلم وقل ما تشاء).

ـ أنا باي عجوز، لا أستطيع أن أرفع يدي على أحد، لا لكي أقاتل في معركة ولا لكي أقتل القاتل. ما الشجاعة في أن تقتل أناساً أبرياء عزّل؟ أما عن النساء فأنت تعلم أن الغورو الأخير، غوبيند سينج جعل جزءاً من القَسَم المعمودي أن لايمسّ سيخي جسد امرأةٍ مسلمة، والإله وحده يعلم كم عانى على أيدي المسلمين! لقد قتلوا أبناءه الأربعة.

ـ علِّم هذا النوع من السيخية في مكان آخر. ردّ الصبي بازدراء ونزق. إنك وأمثالك من الناس لعنة على هذه البلاد. أنت تستشهد بالغورو عن النساء، لماذا لاتقول لنا ماذا قال عن المسلمين؟ «لاتصادق الأتراك إلا حين تموت بقية الأديان» أليس هذا كلام الغورو؟

ـ أجل. أجاب ميت سينج بحلم. ولكن لا أحد يطلب منك أن تصادقهم. ثم الغورو نفسه استخدم في جيشه رجالاً مسلمين.

ـ وقام أحدهم بطعنه أثناء نومه.

أحس ميت سينج بالقلق.

ـ أحدهم طعنه أثناء نومه. كرر الصبي.

ـ نعم... لكن هناك الأشرار وهناك...

ـ أرني مسلماً خيِّراً واحداً.

لم يستطع ميت سينج أن يجاريه في الأخذ والردّ. اكتفى بأن نظر إلى قدميه. واعتُبر صمته اعترافاً بالهزيمة.

ـ دعوه وشأنه. إنه باي عجوز. دعوه لصلواته. قالت مجموعة أصوات معاً.

هدأ المتكلم. مرة أخرى خاطب الجمع بأسلوب مغرور (تذكّروا) قال كأنه مُوحَى (تذكروا ولاتنسوا أن المسلم لايفهم سوى لغة السيف).

همهم الحشد مستحسناً.

ـ هل يوجد أحد من أحباب الغورو هنا؟ هل يوجد من يرغب أن يضحّي بحياته من أجل الطائفة السيخية؟ هل يوجد من فيه جرأة؟ قذف كل جملة مثل تحدٍ.

أحس القرويون بالتوتر. أثارتهم الخطبة وأرادوا أن يثبتوا رجولتهم. في الوقت نفسه أقلقهم حضور ميت سينج إذ شعروا أنهم يخونونه.

ـ ماذا يفترض بنا أن نفعل؟ سأل اللامباردار كئيباً.

ـ أنا سأقول لكم ماذا سنفعل. أجاب الصبي مشيراً إلى نفسه. إذا كان لديكم الجرأة لفعله. وتابع بعد وقفة. غداً سيعبر الجسر إلى باكستان قطار محمل بالمسلمين. إذا كنتم رجالاً يجب أن يحمل هذا القطار من الموتى إلى الجانب الآخر بعدد الموتى الذي تلقيتموهم.

اعترى الجميع شعور بارد لزج. سعل بعضهم بعصبية.

ـ سيكون مسلمو مانوماجرا في القطار. قال ميت سينج دون أن يرفع نظره.

ـ باي، يبدو أنك تعرف كل شيء، أليس كذلك؟ صرخ الغلام بهياج. هل أعطيتهم البطاقات أم أن ابنك بابو في سكة الحديد.؟ أنا لا أدري أي المسلمين على القطار، ولست أبالي. يكفيني أنهم مسلمون لن يعبروا هذا الجسر أحياء. إذا وافقتم معي أيها الناس يمكننا أن نتكلم، إذا كنتم مرعوبين، قولوا أنكم مرعوبون، وسنقول لكم (سات سري أكال) ونبحث عن رجال حقيقيين في مكان آخر.

تلا ذلك فترة صمت طويلة. نقر الغلام إيقاعاً على حمالة مسدسه وراح يمسح الوجوه حوله بطول أناة.

ـ «هناك حرس عسكري على الجسر» إنه صوت مالي. كان واقفاً في الخارج في العتمة. لم يكن ليجرؤ أن يعود إلى مانوماجرا وحيداً. مع ذلك ها هو يغشى الغوردوارا بوقاحة. ظهر في الباب عدد من أفراد عصابته.

ـ لاتهتم بشأن العسكر والشرطة فلن يتدخل أحد منهم. سنتدبر أمر ذلك. أجاب الغلام ناظراً إليه إلى الخلف. هل من متطوعين؟

ـ حياتي تحت تصرفك. قال مالي على نحو بطولي، فقد انتشرت قصة الضرب الذي تعرض له على يد جوغا، وكان يجب أن يعيد الاعتبار لذاته.

ـ برافو. قال المتكلم. رجل واحد على الأقل. عندما صنع الغورو السيخ طلب خمس حيوات. أولئك السيخ كانوا رجالاً خارقين. نحن نحتاج إلى أكثر من خمس بكثير. من يرغب أيضاً أن يقدّم حياته؟

خمسة من أقران مالي تخطوا العتبة. تبعهم آخرون كثر، لاجئون في معظمهم. بعض القرويين الذين بكوا منذ عهد قريب فقط على رحيل أصدقائهم المسلمين، تقدموا أيضاً كمتطوعين. في كل مرة يرفع أحد يده، يقول له الفتى «برافو» ثم يطلب منه أن ينفصل عن المجموع ويجلس جانباً. وافق أكثر من خمسين رجلاً على الانضمام للمغامرة.

ـ يكفي. قال الفتى رافعاً يده. إذا احتجت المزيد من المتطوعين سأطلب منكم. فلنصلِّ من أجل نجاح مجازفتنا.

نهض الجميع. وضعت النسوة الأولاد على الأرض وشاركن الرجال. توجه الجميع إلى السرير الصغير حيث يستلقي الغرانت ملفوفاً. ضمّوا أيديهم للصلاة التفت الفتى إلى ميت سينج.

ـ هل يمكن أن تقود الصلاة، باي جي؟ سأل بسخرية.

ـ هذه مهمتك، سردار صاحب. أجاب ميت سينج بتواضع. قُدْ أنت الصلاة.

نظف الفتى حنجرته وأغمض عينيه وابتدأ يتلو أسماء الغورو. انتهى طالباً بركات الغورو من أجل المجازفة. ركع الجميع وحكّوا جباههم على الأرض معلنين بصوت مرتفع.

باسم ناناك(*)

بالأمل الذي يغرسه الإيمان

برحمة الإله

نحن لانحمل للعالم سوى النيّة الطيبة.

مرةً أخرى انتصب الجمع وشرع ينشد:

سيسود السيخ

سيتشتت أعداؤهم.

ولن ينجو منهم إلا من يبحث عن ملاذ!

انتهت الشعيرة بصرخات النصر «سات سري أكال». جلس الجميع باستثناء الغلام القائد. لقد أكسبته الصلاة قشرةً من التواضع. ضمّ يديه واعتذر من الجمع:

ـ أخواتي واخوتي، سامحوني على إقلاقكم في هذه الساعة المتأخرة. أنت أيضاً، باي جي. وأنت لامباردار صاحب. سامحوني رجاءً على هذا الازعاج وعلى أي كلام غاضب قد أكون قلته. لكن هذا كله في سبيل الغورو. الآن سينتقل المتطوعون إلى الغرفة الأخرى ويمكن للبقية أن يرتاحوا. سات سري أكال.

ـ سات سري أكال. أجاب بعض الحضور.

أُخرجت النساء والأطفال من غرفة ميت سينج التي على جانب الفناء وأحضر إليها عدد من القناديل. نشر القائد خارطةً على أحد الأسرّة ورفع بيده قنديلاً. تحلّق المتطوعون حوله لدراسة الخارطة.

(*) ناناك، مؤسس الديانة السيخية (١٤٦٩ ـ ١٥٣٩). من الطبقة التجارية الهندية. سافر في الهند وخارجها وزار مراكز هندوسية وإسلامية باحثاً عن الحقيقة الروحية. استقر في كارتابور وجذب إليه أنصاراً كثر. تعاليمه محتواة في عدد من الأناشيد التي لاتزال موجودة في غالبيتها. (م)

ـ هل ترون جميعاً موقع الجسر والنهر كلٌّ من مكانه؟ سأل.

ـ نعم، نعم. أجابوا بحماس.

ـ هل لدى أي منكم بنادق؟

تبادلوا النظرات.

ـ لا، لا أحد يملك بندقية.

ـ لايهم. تابع القائد. سيكون لدينا ست أو سبع بنادق إضافة إلى زوج من رشاشات ستن. أحضروا سيوفكم ورماحكم ستكون أكثر فائدة من البنادق. توقف.

ـ الخطة على النحو التالي: غداً بعد غروب الشمس، حين يخيّم الظلام سوف نمدّ حبلاً عبر القنطرة الأولى للجسر على ارتفاع قدم واحدة فوق مستوى مدخنة القاطرة. حين يمر القطار تحته سوف يجرف كل الجالسين على سطح القطار. أي ما يعادل خمسمئة على الأقل.

لمعت عيون المستمعين اعجاباً. لكزوا بعضهم البعض والتفتوا، كان اللامباردار وميت سينج على الباب يستمعان. استدار الغلام غاضباً:

ـ باي جي، ما علاقتك بهذا الشيء؟ لماذا لاتذهب وتصلّي؟

استدار ميت سينج واللامباردار وابتعدا بخنوع. فاللامباردار أدرك أنه سيطرد هو أيضاً إذا ظل واقفاً.

ـ وأنت، لامباردار صاحب. كان يفترض بك أن تكون الآن في طريقك إلى المخفر كي تُبلغ. قال الغلام.

ضحك الجميع.

أسكت الغلام مستمعيه بأن رفع يده. وتابع: سينطلق القطار من تشوندونوغر بعد منتصف الليل. سيكون بلا أنوار، حتى أنوار القاطرة ستكون مطفأة. سوف نضع مراقبين على طول السكة، كل مئة ياردة

مراقب، ومع كل منهم بيل كهربائي. كل شخص يعطي الإشارة للذي يليه حالما يتجاوزه القطار. وعلى كل حال، سوف تتمكنون من سماعه. سيكون أصحاب السيوف والرماح على الجسر تماماً يتعاملوا مع الذين يسقطون عن سطح القطار. هؤلاء يجب قتلهم ورميهم في النهر. وسيكون رجال البنادق على مسافة ياردات قليلة وسوف يسدّدون على النوافذ. لايوجد أي خطر من الردّ على النيران إذ لايحمل القطار سوى دزّينة من الجنود الباكستانيين ولن يعرفوا في الظلام في أي اتجاه سيطلقون النار. ثم أنه لن يتاح لهم الوقت لتلقيم بنادقهم. وإذا أوقفوا القطار فسوف نعتني بهم ونضيف المزيد من القتلى إلى الصفعة.

بدت خطةً محكمة، ليس فيها أدنى خطر من الانتقام. كان الجميع مسرورين.

ـ تجاوزت الساعة الآن منتصف الليل. قال الغلام وهو يطوي الخارطة. يفضل أن تنالوا قسطاً من النوم جميعاً. سنذهب في الصباح إلى الجسر. ونحدد موقع كل فرد منّا ـ السيخ هم خيار الله. النصر لإلهنا!

ـ النصر لإلهنا. أجاب الآخرون.

تفرق الجمع. وجد الزوّار لهم مكاناً في الغوردوارا. وكذلك فعل مالي وعصابته. ذهب العديد من القرويين إلى منازلهم خوف أن يتورطوا في الجريمة كونهم كانوا حاضرين في المعبد حين حيكت المؤامرة. اصطحب اللامباردار اثنين من القرويين وذهب إلى المخفر في تشوندونوغر.

* * *

لابأس، مفتش صاحب، دعهم يقتلون، قال هوكوم تشاند مرهقاً. دعهم يقتلون، فقط اطلب المساعدة من المخافر الأخرى واحتفظ بسجلّ للرسائل التي ترسلها. يجب أن نتمكن من إثبات أننا فعلنا قصارى جهدنا لايقافهم.

بدا هوكوم تشاند متعباً. لقد شاخ في أسبوع حتى بات من الصعب التعرّف إليه. طال البياض في جذور شعره، كان قد حلق ذقنه بسرعة وجرح نفسه في أماكن عدة. وتدلّت ثنيات اللحم حول ذقنه مثل اللغاديد. ولايكفّ عن مسح زوايا عينيه لأنه يرى لوناً أصفر لاوجود له.

ـ ماذا بوسعي أن أفعل. شكا. بات العالم كله مجنوناً! ماذا يهم إذا قتل ألف إنسان آخر؟ سنحضر بلدوزر وندفنهم كما فعلنا مع غيرهم. وقد لانحتاج للبلدوزر حتى، إذا ما حدث الأمر على النهر هذه المرة. فقط نلقي الجثث في الماء. ما قيمة بضع مئات من أصل أربعمئة مليون على كل حال؟ الوباء يأخذ عشرة أضعاف هذا الرقم ولا أحد يكترث.

أدرك المفتش أن هذا ليس هوكوم تشاند الذي يعرفه. إنه فقط يسعى لإخراج الكآبة من جهازه. انتظر المفتش بطول أناة ثم رمى مجساً.

ـ حاضر سيدي. سأحتفظ بسجل عن كل ما يحدث وما نفعل. مساء الأمس اضطررنا إلى إخلاء تشوندونوغر. لم أستطع الاعتماد على الجيش ولا على شرطتي. أقصى ما استطعت هو أنني أبلغت المهاجمين أن وحدات من الجيش الباكستاني موجودة في المدينة خافوا، وأخرجت المسلمين في اللحظة الأخيرة عندما اكتشف المهاجمون الخديعة نهبوا وحرقوا كل بيت مسلم وقع تحت أيديهم. أعتقد أن بعضهم خطط للمجيء إلى المخفر من أجلي، ولكن رجاحة العقل سادت. وهكذا أنت ترى سيدي. كل ما نلته من المسلمين هو الشتم على أنني طردتهم من ديارهم. ومن السيخ الشتم على أنني سرقت منهم الغنيمة التي كانوا ينتظرون. والآن أعتقد أن الحكومة سوف تشتمني لسبب أو لآخر. كل ما لدي في الحقيقة هو إبهامي الكبيرة. أبرز المفتش إبهامه وابتسم.

لم يكن ذهن هوكوم تشاند على طبيعته ذاك الصباح لم يبد عليه أنه فهم كل فحوى كلام المفتش.

ـ أجل، مفتش صاحب. لن نخرج، أنت وأنا،، مما يجري سوى

بسوء السمعة. ماذا نستطيع أن نفعل؟ كل فرد الآن يطلق النار لأتفه سبب. يفرغون مخازن بنادقهم في القطارات المكتظة وقافلات السيارات وطوابير اللاجئين المشاة، إنها جحيم فظيعة. ما معنى أن تذهب إلى مكان يتطاير فيه الرصاص؟ الرصاصة لاتتوقف وتفكّر: هذا هوكوم تشاند، يجب أن لأأمسه. وليس على الرصاصة علامة تقول: مرسلة من فلان الفلاني. وحتى لو كانت تحمل اسم راميها فأي عزاء تحمله معرفة الرامي بعد أن تدخل الرصاصة الجسد؟ لا، مفتش صاحب، الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان العاقل أن يفعله في مشفى المجانين هو أن يتظاهر بالجنون أسوةً بالآخرين ويقتنص الفرصة الأولى كي يتسلق الجدران ويهرب.

كان المفتش معتاداً على هذه المواعظ وكان يعلم أنها لاتعكس تماماً الذات الحقيقية للحاكم. لكن عجز هوكوم تشاند عن التقاط التلميحات كان أمراً مدهشاً، فمن المعروف أنه لايقول إطلاقاً أي شيء على نحو صريح، بل يعتبر ذلك نوعاًمن الغباء. فنّ الدبلوماسية عنده هو أن تقول شيئاً بسيطاً بأسلوب معقّد. فمن شأن هذا أن يحميك من الوقوع في المشاكل، إذ ما من أحد يستطيع الاستناد إلى كلامك ليتهمك بقول هذا الشيء أو ذاك. وفي الوقت عينه تعطي عن المرء سمعة أنه ذكي ومحنّك. لقد كان هوكوم تشاند ماهراً في التقاط التلميحات وصنعها. هذا الصباح بدا أنه يريح ذهنه.

ـ ليتك كنت في تشوندونوغر البارحة. قال المفتش معيداً الحديث إلى المشكلة الحقيقية التي تواجهه. فلو تأخرتُ خمس دقائق فقط لما بقي مسلمٌ على قيد الحياة، أما في الواقع فلم يقْتل أحد. لقد استطعت إخراجهم جميعاً.

أكد المفتش في كلامه على «مسلم واحد» وعلى «جميعاً» وراقب ردة فعل هوكوم تشاند.

نجح. توقف هوكوم تشاند عن تدليك زوايا عينيه وسأل عرضاً. كما لو أنه يطلب معلومة ليس إلا.

ـ تقصد أنه لم تبقَ عائلة مسلمة واحدة في تشوندونوغر؟

ـ نعم سيدي. ولا عائلة واحدة.

ـ أفترض. قال هوكوم تشاند منظفاً حنجرته. أنهم سوف يعودون بعد أن تنتهي هذه الكارثة؟

ـ ربما. أجاب المفتش. لم يبقَ لهم الكثير كي يعودوا من أجله. حُرقتْ بيوتهم أو احتلت وإذا ما عاد أحدٌ فلن تكون حياتها أو حياته أغلى من أبسط صدفة في البحر.

ـ لن يدوم هذا إلى الأبد. أنت ترى كيف تتغير الأحوال لسوف يعودون في غضون أسبوع إلى تشوندونوغر ولسوف يعود السيخ والمسلمون يشربون من إبريق واحد تحرّى هوكوم تشاند نبرة الأمل الزائف في صوته وكذلك فعل المفتش.

ـ قد تكون على حق سيدي. لكن سيستغرق الأمر أكثر من أسبوع. سوف يُنقل المهاجرون من تشوندونوغر إلى الباكستان بالقطار هذه الليلة. الإله وحده يعرف كم سيبقى منهم أحياء، بعد عبور الجسر. ومن سيبقى حياً لن يرغب، على الأرجح، بالعودة إلى هنا سريعاً.

أصاب المفتش الهدف. فقد امتقع وجه هوكوم تشاند ولم يستطع التظاهر أكثر من ذلك.

ـ ما أدراك أن مسلمي تشوندونوغر سيرحلون بالقطار هذه الليلة؟ سأل.

ـ علمتُ من مدير المعسكر. هناك خوف من أن يتعرض المعسكر للهجوم. لذلك قرر أن يستغل أول قطار متوفر لترحيل اللاجئين إذا لم يُرحّلوا فقد لايبقى منهم أحد على قيد الحياة. وإذا رُحّلوا فقد ينجو بعضهم

إذا سار القطار بشيء من السرعة، فهم لايريدون حرف القطار عن السكّة، بل يريدون له أن يصل إلى الباكستان محملاً بالجثث.

أمسك هوكوم تشاند بذراعي كرسيه بتشنج.

ـ لماذا لم تُحذِّر مدير المعسكر من ذلك؟ لربما غيَّر قراره.

ـ يا راعي الفقراء. شرح المفتش بسعة صدر. لم أخبره شيئاً عن الهجوم المتوقّع على القطار لأنه إذا لم يرحّلهم فقد يُدمَّر المعسكر بكامله. هناك من عشرين إلى ثلاثين ألف من الرعاع القرويين المسلحين المتعطشين للدماء. وليس لديَّ سوى خمسين شرطياً ولن يطلق أحد منهم النار على سيخي. ولكن إذا كانت سيادتكم تستطيع التأثير على الرعاع، يمكنني أن أبلغ مدير المعسكر حول خطط نصب الكمين للقطار وأقنعه بالعدول عن ترحيلهم.

كان المفتش يضرب تحت الزنّار.

ـ لا، لا تمتم الحاكم. ما فائدة النفوذ مع رعاع مسلحين؟

لا، يجب أن نفكر.

غاص إلى الخلف في كرسيه وغطّى وجهه بيديه. وبقبضته راح يضرب جبهته ويشدّ شعرَ رأسه كما لو أنه بذلك يستطيع أن يسحب الأفكار من ذهنه.

ـ ماذا حدث لذينك الرجلين اللذين اعتقلتهما عقب جريمة قتل المرابي؟ سأل بعد بعض الوقت.

لم يفهم المفتش علاقة هذا السؤال بالموضوع.

ـ لازالا في الحجز. سيادتكم أمرت بذلك إلى أن ينتهي الاضطراب. على هذه الحالة سيتوجب الإبقاء عليهم لعدة شهور.

ـ هل بقيت أية مسلمة أو أي مسلمين شاردين رفضوا مغادرة مانوماجرا؟

ـ كلا سيدي، لم يبق أحد. الرجال والأطفال والنساء جميعهم رحلوا. أجاب المفتش وهو لايزال غير قادر على التقاط خط أفكار هوكوم تشاند.

ـ ماذا عن ابنة الحائك. التي لها علاقة مع جوغا كما أخبرتني؟ ماذا كان اسمها؟

ـ نوران.

ـ آه. نعم، نوران أين هي؟

ـ غادرت. أبوها بمثابة قائد لمسلمي مانوماجرا. أخبرني اللامباردار الكثير الكثير عنه. نوران هي وحيدته. وهي الفتاة التي يزعمون أنها تستلطف المجرم جوغا.

ـ والشخص الآخر، ألم تقل أنه عامل سياسي من نوع ما؟

ـ نعم سيدي، حزب الشعب أو ماشابه. أنا أظن أنه من الرابطة الإسلامية ويتقنّع بصفة أخرى. لقد فحصت...

ـ هل لديك أوراق رسمية فارغة من أجل الأوامر قاطعه هوكوم تشاند بنفاذ صبر.

ـ نعم سيدي. أجاب المفتش. أخرج عدة أوراق صفراء مطبوعة وسلّمها للحاكم.

مدّ هوكوم تشاند يده وانتزع قلم الحبر الناشف من جيب المفتش.

ـ ما اسما السجينين؟ سأل باسطاً الورقات على الطاولة.

ـ البودماش جوغا و...

ـ البودماش جوغا... قاطع هوكوم تشاند مسجلاً الاسم في المكان الفارغ ثم وقَّع. البودماش جوغا و...؟ سأل متناولاً ورقة أخرى.

ـ إقبال محمد أو محمد إقبال. لست متأكداً.

ـ لا إقبال محمد ولا محمد إقبال مفتش صاحب بل إقبال سينج، قال وهو يكتب بحركة مسرحية. دُهش المفتش.فمن أين للحاكم أن يعلم هل جاء ميت سينج وقابله؟

ـ سيدي. لا يجب أن تصدق أي كان. أنا فحصت...

ـ هل تصدق حقاً أن مسلماً متعلماً يجرؤ على القدوم إلى هذه المناطق في أوقات كهذه؟ هل تعتقد أن أي حزب يمتلك من الحماقة ما يجعله يرسل مسلماً لكي يعظ بالسلام قرويين سيخ متعطشين لدماء المسلمين، مفتش صاحب؟ أين خيالك؟

أُفحمَ المفتش. فمن غير المرجح فعلاً أن يغامر رجلٌ متعلم بحياته من أجل أية قضية. ثم أنه لاحظ في المعصم الأيمن لإقبال الإسوارة الفولاذية التي يلبسها السيخ جميعاً.

ـ لابد أن سيادتكم على حق. لكن ما علاقة هذا بمنع الهجوم على القطار؟

ـ سيادتي على حق فعلاً. قال هوكوم تشاند بانتصار، ولسوف تعرف السبب حالاً. فكِّر في الأمر في طريقك إلى تشوندونوغر. وحالما تصل أفرج عن كلا الرجلين وتدبّر أمر أن يتوجهوا إلى مانوماجرا في الحال وإذا اقتضى الأمر، أمِّن لهما عربه. يجب أن يكونا في القرية مساء.

أخذ المفتش الأوراق وحيّا. أسرع عائداً إلى المخفر على دراجته الهوائية وشيئاً فشيئاً تلاشت غيوم التشوش من ذهنه وغدت خطة هوكوم تشاند واضحة وشفافة مثل نهار عقب مطر غزير.

* * *

ـ سوف تلاحظان بعض التغير في مانوماجرا. أشار المفتش عرضاً وهو يخاطب الطاولة التي أمامه. على الجانب الآخر وقف إقبال وجوغا.

ـ لماذا لاتجلس بابو صاحب. قال المفتش. هذه المرة تكلم إلى إقبال مباشرة. تفضل خُذْلك كرسياً. أوه، أنت ما اسمك؟ لماذا لاتحضر كرسياً للبابو صاحب صرخ للشرطي. أعلم أنك ساخطٌ عليّ لكن الخطأ ليس خطئي أنا أنفذ واجبي وأنت، باعتبارك رجلاً متعلماً، تعرف عاقبة أن أعامل الناس معاملة تمييزية.

أحضر الشرطي كرسياً.

ـ تفضل اجلس. هل ترغب بكأس من الشاي أو أي شيء آخر قبل أن تذهب؟ ابتسم المفتش بتملق.

ـ شاكر لطفك. أفضل أن أبقى واقفاً. لقد كنت جالساً في الزنزانة طوال هذه الأيام. إذا كنت لاتمانع، أرغب في الانصراف حالما تنتهي الرسميات. أجاب إقبال دون أن يرد على ابتسامة المفتش.

ـ أنت حر أن تذهب متى وإلى حيث تشاء. لقد أرسلت بطلب عربة توصلك إلى مانوماجرا وسأرسل شرطياً مسلحاً لمرافقتك. هناك خطرٌ في أن تتجول في تشوندونوغر أو تسافر دون مرافقة.

التقط المفتش ورقة صفراء وقرأ. جوغوت سينج، ابن ألام سينج، السن: ٢٤ عاماً، الطائفة: سيخي، القرية: مانوماجرا، بودماش رقم عشرة.

ـ حاضر سيدي. قاطعه جوغا مبتسماً. كل أشكال معاملة البوليس معه سواء، فمعادلة علاقته معه السلطة بسيطة. هو في الجانب الآخر. لا أثر للرتب في الموضوع. المفتش والشرطة سواء، كلهم بشر يلبسون الخاكي ويعتقلونه دائماً ويشتمونه دائماً وأحياناً يضربونه. وبما أنهم يشتمونه ويضربونه دون غضب أو كره فهم إذن ليسوا كائنات بشرية لها أسماء بل جماعة يحسن بالمرء اجتنابها، وإذا فشل يكون ذلك من سوء الطالع.

ـ سوف نطلق سراحك، لكن يجب أن تحضر بين يدي الحاكم في الأول من تشرين الأول ١٩٤٧ في العاشرة صباحاً. ضع بصمة إبهامك هنا.

فتح المفتش علبة تنك مسطحة فيها حشوة من الشاش الأسود. أخذ إبهام جوغوت سينج بيده ومسحها على الحشوة الرطبة ثم ضغطها على الورقة.

ـ هل تسمحون لي بالذهاب؟

ـ يمكنك أن تذهب مع بابو صاحب في العربة. على كل حال، عليك أن تكون في بيتك قبل حلول الظلام. رفع ناظريه إلى جوغا وكرر ببطء سترى أن مانوماجرا قد تغيرت.

لم يظهر أحد منهما أدنى اكتراث لملاحظة المفتش حول مانوماجرا. فتح المفتش ورقة أخرى وقرأ: السيد إقبال سينج، عامل سياسي.

نظر إقبال إلى الورقة ساخراً.

ـ أليس محمد إقبال، عضو الرابطة الإسلامية؟ يبدو أنكم تفبركون الحقائق والوثائق كما يحلو لكم.

كشّر المفتش: لا أحد معصوم عن الخطأ. الخطأ بشري والغفران الهي. أضاف بالانكليزية. أنا أعترف بخطئي.

ـ هذا منتهى الكرم منك. أجاب إقبال. كنت أعتقد من قبل أن الشرطة الهندية معصومة عن الخطأ.

ـ يمكنك أن تسخر مني إن شئت. أنت لاتدرك أنك لو تجولت في المنطقة تحاضر بالناس كما كنت تنوي ووقعت بين أيدي قطيع من السيخ، فإنهم لن يصغوا إلى حججك، سيعرّونك ويجدون أكنت مختوناً أم لا. هذا هو الاختبار الوحيد الذي يخضعون له أي شخص بلا لحية وشعر طويل. ثم يقتلون. يجب أن تكون ممنوناً لي.

لم يكن لدي إقبال مزاج للحديث. ثم إن هذا الموضوع لم يرغب بمناقشته مع أحد. لقد قرف من أسلوب المفتش في التكلم عن الموضوع دون تحفظ.

ـ ستجدُ تغيراً كبيراً حلّ في مانوماجرا. حذره المفتش للمرة الثالثة. لم يبدِ أي منهما أية استجابة. وضع إقبال الكتاب الذي كان يحمله على الطاولة واستدار مبتعداً دون كلمة شكر أو وداع.

تحسس جوغا الأرض بقدميه بحثاً عن حذائه.

ـ لقد هاجر كل مسلمي مانوماجرا. قال المفتش على نحو مؤثر.

كفّ جوغا عن جرّ قدميه:

ـ إلى أين؟

ـ رحلوا البارحة إلى معسكر اللاجئين وسيذهبون هذه الليلة بالقطار إلى الباكستان.

ـ هل حدثت مشاكل في القرية، مفتش صاحب؟ ما الذي أجبرهم على الرحيل؟

ـ كانت ستحدث مشاكل لو لم يرحلوا، ولكنْ كثير من الغرباء يجوبون المنطقة مسلحين بالبنادق ويقتلون المسلمين وقد انضم إليهم مالي وجماعته. لو لم يهاجر مسلمو مانوماجرا لكان مالي قد أتى على آخر واحد فيهم. لقد استولى على كل أملاكهم: البقر، الجواميس، الثيران، الخيول الدجاج، أواني الطبخ. لقد أحسن صنعاً.

في الحال طار صواب جوغا.

ـ غرمول الخنزير ذاك الذي ينام مع أمه ويسمسر على أخته وابنته، إذا وضع قدمه في مانوماجرا سأغرس ساريتي الخيزرانية في مؤخرته!

لوى المفتش شفتيه بابتسامة ساخرة.

ـ كلامك أكبر منك سردار. فقط لأنك غدرت به وأمسكته من شعره وضربته تخال نفسك أسداً. مالي ليس امرأة تحنّي يديها وتلبس الخلاخل في أرساغها. لقد كان في مانوماجرا وأخذ كل مايريد أخذه، ولايزال هناك. ستراه حين تعود.

ـ لسوف يهرب مثل ابن آوى حين يسمع باسمي.

ـ رجال عصابته معه. ومعه غيرهم الكثير، جميعهم مسلحون بالبنادق والمسدسات. عليك أن تتصرف بعقل إذا كانت حياتك عزيزة عليك.

أومأ جوغا برأسه:

ـ صحيح مفتش صاحب. سنلتقي ثانية وعندها اسألني عن مالي.

سيطر مزاجه عليه. إذا لم أبصق في قفاه لايكون اسمي جوغوت سينج. مسح فمه بظاهر يده. إذا لم أبصق في فمه لايكون اسمي جوغوت سينج. هذه المرة بصق جوغوت في يده ومسحها على فخذه. صارت حرارته كالحمى. لولا شرطتك ذوو البدلات، لرغبت في مقابلة والد الابن الذي يجرؤ أن يرفّ جفنه أمام جوغوت سينج.

ـ لابأس، لابأس سردار جوغوت سينج. نحن نقرّ أنك رجل شجاع، على الأقل أنت تظن ذلك. ابتسم المفتش. من الأفضل لك أن تصل بيتك قبل حلول الظلام. خذ البابو صاحب معك. بابو صاحب لاداعي للخوف فأنت في حماية أشجع رجال المنطقة.

قبل أن يستطيع جوغا أن يرد على تهكم المفتش دخل شرطي وأعلن أنه قد أحضر العربة.

ـ سات سري أكال مفتش صاحب، عندما يأتي مالي باكياً كي يقدم شكوى ضدي ستصدّق أن جوغوت سينج لايقول كلاماً فارغاً.

ضحك المفتش.

ـ سات سري أكال جوغوت سينج. سات سري أكال إقبال سينج جي.

سار اقبال مبتعداً دون أن يلتفت إلى الخلف.

* * *

غادرت العربة تشوندونوغر بعد الظهر. كانت رحلة طويلة تخلو من أية أحداث تلفت النظر. هذه المرة جلس جوغا على المقعد الأمامي مع الشرطي والسائق تاركاً المقعد الخلفي كله لإقبال. لم يكن لأي منهم مزاج للتكلم. بولا، السائق، أجبره رجال الشرطة على الخدمة في وقت يعرّض نفسه للخطر فيه كل من يخرج من منزله. أخرج العربة على حصانه البني الهزيل وراح طوال الطريق يسوط ويشتم. كان الآخرون غارقين في أفكارهم الخاصة.

الريف أيضاً كان هادئاً. هناك امتدادات مائية جعلته يبدو أكثر انبساطاً من العادة. الحقول خالية من الرجال والنساء. لايوجد حتى ماشية ترعى. بدا كما لو أن القريتين اللتين مروا بهما خاليتان سوى من الكلاب. مرة أو مرتين لمحوا شخصاً ما يختفي وراء الجدار أو يسترق النظر من حول زاوية ويحمل بندقية أو رمحاً.

أدرك إقبال أن وجود جوغا والشرطي المعروفين بأنهما من السيخ هو ما نجّاه حقيقة من التوقيف والاستفسار. أراد أن يخرج من هذا المكان الذي يتوجب عليه فيه أن يثبت أنه سيخي كي ينقذ حياته. سوف يأخذ أشياءه من مانوماجرا ويأخذ أول قطار. قد لايكون ثمة قطارات. وإذا كان هناك قطارات، فهل يغامر في السفر في أحدها؟ لعن حظّه لأن له اسماً مثل إقبال، ثم لأنه... أين على الأرض سوى في الهند تتوقف حياة المرء على كونه مختوناً أم لا؟ إنه لشيء مضحك لولا أنه تراجيدي. سيتوجب عليه البقاء في مانوماجرا لبضعة أيام والمكوث قرب ميت سينج للحماية. ميت سينج بمظهره المهمل ورحلتيه كل يوم إلى الحقول للتغوّط. اشمأز من

الفكرة. فقط لو يستطيع الخروج إلى دلهي وإلى الحضارة! سيبلغ عن أمر اعتقاله. وستنشر صحيفة الحزب على الصفحة الأولى النبأ مع صورته: **مؤامرة رأسمالية انغلو ــ أمريكية لخلق الفوضى. الرفيق إقبال يُسجَن على الحدود.** ستنتهي الأمور بأن تجعل منه بطلاً.

مصير نوران كان هم جوغو الأول. لم يلتفت إلى من معه في العربة أو إلى القرى، نسي موضوع مالي. في خلفية ذهنه كان يلحّ شعور بأن نوران لازالت في مانوماجرا. لا أحد يريد رحيل الامام بكش. وحتى لو أنه رحل مع بقية المسلمين فإن نوران ستكون مختبئة في مكان ما في الحقول، أو ستكون قد أتت إلى أمه. أَمِل أن أمه لم تكن قد طردتها، لو فعلت ذلك فستلوم نفسها. سوف يخرج ولن يعود إليها وسيجلعها تقضي بقية حياتها تندم على ما فعلت.

ضاع جوغا في أفكاره، يقلق ويغضب بالتناوب. حين أبطأت العربة لتدخل في الدرب الذي يوصل إلى المعبد السيخي قفز منها دون أن تتوقف واختفى في الظلام دون أن يقول كلمة وداع.

نزل اقبال من العربة وبسط أطرافه. تشاور الشرطي والسائق همساً:

ــ هل أستطيع خدمتك بشيء بابو صاحب. سأل الشرطي.

ــ لا، لا شكراً. ماشي الحال. هذا من لطفك. لم يكن إقبال مرتاحاً لاحتمال أن يدخل وحيداً إلى الغوردوارا، لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على أن يطلب منهما أن يصحباه.

ــ بابوجي، أمامنا طريق طويلة. وحصاني يعمل منذ الصباح دون طعام أو ماء. وأنت تعرف الأحوال هذه الأيام.

ــ أجل يمكنكما العودة. شكراً. سات سري أكال.

ــ سات سري أكال.

كان فناء الغوردوارا مبقّعاً بدوائر ضوئية ألقتها القناديل ونيران المواقد

المرتجلة التي كانت النساء تطبخ عليها وجبة المساء. في القاعة الرئيسية توجد دائرة من الناس متحلّقين حول ميت سينج الذي كان يتلو صلاة المساء. كانت الغرفة التي ترك فيها اقبال أغراضه مقفلة.

خلع إقبال حذاءه وغطّى رأسه بمنديل وانضمّ إلى الجمع. أفسحوا له مكاناً. لاحظ إقبال نظرات الناس وتهامسهم حوله. معظمهم رجال مسنّون بلباس أهل المدن. واضح أنهم لاجئون.

حين انتهت الصلاة، لفّ ميت سينج الكتاب الضخم بالمخمل ووضعه كي يرتاح على سرير صغير حيث كان يستلقي مفتوحاً. تكلم مع إقبال قبل أن يبدأ أحد بتوجيه الأسئلة إليه.

ـ سات سري أكال إقبال سينج. أنا سعيد بعودتك. لابد أنك جائع. فهم إقبال أن ميت سينج تعمّد ذكر كنيته. وقد أحسّ أن ذلك خلق نوعاً من الارتياح، إذ أن مجموعة من الرجال استداروا وقالوا: سات سري أكال.

ـ سات سري أكال. أجاب إقبال ونهض كي ينضمّ إلى ميت سينج.

ـ سردار إقبال سينج. قال ميت سينج مقدماً إياه للآخرين. عامل اجتماعي، كان في انكلترا لعدة سنوات.

جمهرة من العيون المعجبة نظرت إليه، إلى إقبال «العائد من انكلترا» تكررت الـ «سات سري أكال». شعر إقبال بالحرج.

ـ أنت سيخي إقبال سينج جي؟ سأل أحدهم.

ـ نعم.

قبل أسبوعين كان سيرد على هذا السؤال بكل تأكيد (لا) أو (أنا لا دين لي) أو (الدين أمر لايهمني). الآن الوضع مختلف وعلى كل حال، الحقيقة أنه سيخي بالولادة.

ـ هل حلقت شعرك في انكلترا. سأل أحد الموجودين.

ـ كلا يا سيدي. أجاب إقبال وهو مرتبك تماماً. أنا لم أترك شعري أصلاً. أنا سيخي بلا لحية وشعر طويل.

ـ لابد أن أبويك غير تقليديين. قال ميت سينج لمساعدته.

هذا القول خفّف الشك لكنه خلّف عند إقبال ضميراً قلقاً.

تحسس ميت سينج تكة سرواله وسحب حزمة مفاتيح تتدلى من نهايتها. أخذ بيده القنديل عن الطاولة المجاورة للكتاب المقدس واتجه عبر الفناء إلى الغرفة.

ـ أقفلتُ الغرفة على حاجياتك. يمكنك أن تأخذها. سأحضر لك بعض الطعام.

ـ لا، باي جي، لاتتعب نفسك. لدي ما يكفي من الطعام. أخبرني ماذا حدث في القرية منذ أن غادرت؟ من هم كل هؤلاء الناس؟

فتح الباي الباب وأشعل قنديل الزيت في المشكاة. أفرغ إقبال حقيبة حاجياته على أحد الأسرّة. عدّة علب نحاسية مذهّبة من معجون السمك والزبدة والجبن إضافةً إلى ملاعق وشوك وسكاكين فضية وأكواب وصحف سيلوليودية.

ـ باي جي، ماذا حدث هنا؟ سأل إقبال ثانية.

ـ ماذا حدث هنا؟ اسألني ماذا لم يحدث هنا. وصلت إلى هنا قطارات مليئة بالموتى. أحرقنا قسماً ودفنا قسماً آخر. كان النهر يغصّ بالجثث. جرى إخلاء المسلمين وأقام في أماكنهم اللاجئون القادمون من باكستان. ماذا تريد أن تعرف أيضاً؟

مسح إقبال بمنديله طبقاً وطوباً من السيلولويد. وأخرج البطحة الفضيّة وهزّها. كانت ملأى.

ـ ماذا تحوي هذه العلبة؟

ـ أوه، هذه؟ دواء. تلعثم إقبال. دواء يفتح شهيتي على الطعام. أضاف مبتسماً.

ـ ثم تأخذ أقراصاً كي تهضم الطعام؟

ضحك إقبال.

ـ نعم، وأتناول أقراصاً أخرى لكي تعمل الأمعاء. قل لي، هل وقعت حوادث قتل في القرية؟

ـ لا. قال الباي بلا اكتراث. كان اكتراثه منصباً كله على مراقبة إقبال وهو ينفخ فراشه المطاطي. ولكن ستقع حوادث قتل. هل النوم مريح على هذه؟ هل كل الانكليز ينامون على مثلها؟

ـ ماذا تقصد أن حوادث قتل ستقع؟ سأل إقبال وهو يسدّ نهاية الفراش. جميع المسلمين رحلوا أليس كذلك؟

ـ نعم، لكنهم سيهاجمون القطار قرب الجسر هذه الليلة. القطار الذي ينقل مسلمي /مانوماجرا/ و/تشوندونوغر/ إلى باكستان. وسادتك أيضاً تملأ بالهواء؟

ـ نعم. من الذي سيهاجمه؟ ليس القرويون؟

ـ لاأعرفهم جميعاً. جاءنا بعض ممن يرتدون بدلات في سيارات عسكرية، معهم بنادق ومسدسات. انضم إليهم المهاجرون وانضم إليهم أيضاً مالي وعصابته وبعض القرويين. ألن تنفجر هذه إذا نام عليها شخص بدين؟ سأل ميت سينج وهو يربت على الفراش.

ـ مفهوم. قال إقبال متجاهلاً سؤال ميت سينج. الآن فهمت الخدعة. فهمت لماذا أفرجت الشرطة عن مالي. وأعتقد أن جوغا سينضمّ إليهم أيضاً. كل شيء مرتّب. تمدد إقبال على الفراش وحشر الوسادة تحت

إبطه. باي جي ألا يمكنك إيقاف ذلك؟ الجميع يسمع كلمتك. ربت ميت سينج على الفراش الهوائي ومسّده وجلس على الأرض.

ـ من يسمع إلى باي عجوز؟ هذه أوقات رديئة، إقبال سينج جي، أوقات رديئة جداً. لادين ولا إيمان. كل ما يمكن للمرء أن يفعله هو أن يقعي في زاوية آمنة حتى تنقضي العاصفة. هذه لاتكفي زوجين حديثي العهد بالزواج. أضاف وهو يلطم الفراش برفق. ثار إقبال:

ـ لايمكنك أن تترك هذا الشيء يحدث! ألا تستطيع إخبارهم أن الناس على القطار هم نفس الناس الذين كانوا يخاطبونهم: يا عمي، يا عمتي، يا أخي، يا أختي؟

تنهّد ميت سينج ومسح دمعةً بالوشاح الذي على كتفه.

ـ مافائدة قولي ذلك؟ فهم يعرفون ما يفعلون. هم يريدون القتل. وإذا نجحت العملية سوف يأتون إلى الغوردوارا لصلاة الشكر. وسوف يقدّمون أضحيات للتكفير عن آثامهم. حدثني عن نفسك، إقبال سينج جي. هل كنت بخير؟ هل عاملوك في المخفر بشكل لائق؟

ـ نعم، نعم، كنت بخير. ردّ إقبال بنزق. لماذا لاتفعل شيئاً ما؟ هذا واجب عليك!

ـ عملت كل ما بوسعي. واجبي أن أخبر الناس ماهو الصحيح وماهو الخطأ. وإذا أصرّوا على فعل الشر، أسأل الإله أن يغفر لهم. ليس بوسعي أكثر من الصلاة. الباقي يقع على كاهل الشرطة والحاكم. وكاهلك أنت.

ـ أنا؟ لماذا أنا؟ سأل إقبال ببراءة مجفولة. ماذا يمكنني أن أفعل أنا حيال ذلك؟ أنا لا أعرف هؤلاء الناس، فما الذي يجبرهم على الاصغاء إلى غريب.

ـ عندما جئت إلى هنا كنت تريد التكلم إليهم عن شيء ما، لماذا لاتخبرهم الآن؟

شعر إقبال بالتوتر.

ـ باي جي، عندما يخرج الناس حاملين البنادق والرماح لاتستطيع أن تتكلم معهم إلا بالبنادق والرماح. وإذا عجزت عن ذلك، من الأفضل لك أن تبتعد عن طريقهم.

ـ هذا ما قلته لك بالضبط. حسبت أنك بأفكارك الأوروبية تحمل علاجاً من نوع آخر. دعني أحضر لك بعض السبانخ. لقد طبختها للتو. أضاف ميت سينج وهو ينهض.

ـ لا، لا، باي جي. لدي كل ما أحتاج إليه في هذه العلب. إذا أردت أي شيء سأطلبه منك. عندي شغل بسيط قبل الطعام.

عاد ميت سينج إلى القاعة بعد أن وضع القنديل على كرسي بجانب سرير إقبال.

* * *

أعاد إقبال الصحون والشوكة والسكين والعلب إلى الحقيبة. شعر بشيء من الحمّى، نوع من الحمّى التي يشعر بها المرء عندما يكون على وشك إعلان حبه. إنه وقت إعلان شيء ما. لاينقصه سوى أنه غير واثق ماهو.

هل عليه أن يخرج ويواجه الرعاع ويقول لهم بنبراتٍ رنّانة واضحة أن ما يقومون به خطأ ـ وعيب؟ أن يمشي نحوهم ويشلّ الحشد المسلّح بعينيه دون أن يلتفت أو تطرف له عين، مثل أبطال الشاشة الذين يكبرون أكثر فأكثر كلما اقتربوا من الكاميرا. ثم يسقط بكبرياء تحت وابل من الصفعات أو على الأصح تحت وابل من الرصاص. سرت في عموده الفقري قشعريرة باردة.

لن يشهد أحد هذه التضحية الخارقة. سوف يقتلونه كما يقتلون الآخرين ليس إلا. فهو في عيونهم ليس حيادياً. سيعرّونه ويرون. مختون، إذن مسلم. وستكون النتيجة إهدار حياة بلا جدوى! ثم لأي غرض؟ جماعة من نوع دون بشري ستذبح جماعة من نوعها. إنقاص طفيف من التزايد السنوي البالغ أربعة ملايين، ليس الأمر أنك تسعى إلى إنقاذ بشر راقين من أيدي بشر شريرين. فلو أُتيح للآخرين فرصة سيقومون بالشيء نفسه. في الحقيقة، إنهم يقومون بذلك على مسافة ليست بعيدة وراء النهر. عبث. في حالة الفوضى يكون الحفاظ على الذات هو الواجب الأسمى.

حلّ إقبال سدادة البطحة وسكب مقداراً وافراً من الويسكي في كوب سيلولويدي وجرعها صرفاً.

عندما يتطاير الرصاص، ما جدوى أن تخرج رأسك وتتلقى رصاصة؟ الرصاصة حيادية، تصيب الجيد والسيء، المهم وعديم الأهمية، دون تمييز. لو أن هناك أناساً يراقبون فعل التضحية الذاتية كما على شاشة السينما فقد يكون للتضحية قيمتها: قد تحمل درساً أخلاقياً. أما عندما يكون كل ما سيحدث هو أن تظهر جثتك في الصباح التالي بين آلاف الجثث الأخرى، مثلها تماماً بشعر مقصوص وذقن حليقة... وحتى أنك مختون ـ من سيدري أنك لست أكثر من ضحية مسلمة في مجزرة؟ من سيدري أنك سيخي وقف، وهو واعٍ تماماً للعواقب، في وجه فصيل إعدام ليثبت أهمية انتصار الخير على الشر؟ والإله الذي... كلا، ليس الإله، الإله لا علاقة له بالأمر.

سكب جرعة أخرى من الويسكي. أحس أنها تشحذ عقله. أهمية التضحية، فكّر، تكمن في الهدف ولايكفي بالنسبة للهدف أن يكون الشيء جيداً بذاته: بل يجب أن يُعرف على أنه جيد. لايكفي أن يقتنع المرء في دخيلته أنه على صواب: الرضا، في هذه الحال، سيأتي بعد موت صاحبه. الأمر لايشبه أن تنال عقوبةً في المدرسة لكي تنقذ صديقاً لك. في

تلك الحال ستشعر بالرضا وستحيا كي تستمتع بتضحيتك. أما في هذه الحال فسوف تقتل ولن يكون في موتك فائدة للمجتمع: المجتمع لن يدري بك. ولا فائدة لنفسك، ستكون ميتاً. تلك الشخصية على الشاشة، تقف أمام آلاف البشر الموتورين والمعنيين: هؤلاء يكونون على استعداد لتلقي الدرس. وهذا هو مبتغى كل شيء. على الفاعل أن لايفعل إلا عندما يكون المتلقي جاهزاً للتلقي، وإلا فإن فعله مهدور.

ملأ الكأس مرة أخرى. كل شيء بات واضحاً أكثر.

إذا كنت حقاً على قناعة بأن الأشياء متعفّنة جداً اذ يُصبح واجبك الأول هو أن تدمر ـ أن تبدأ على أرض نظيفة من أدران الماضي ـ إذن كيف تضطرب أمام أعمال تدمير بسيطة. واجبك أن تتواطأ مع أولئك الذين يؤججون الحريق، لا أن تسلّط خرطوماً أخلاقياً على حريقهم. أن تخلق فوضى هائلة بحيث تغرق كل ما هو عفن، الأنانية والتعصب الديني والكذب والتملّق. تغرقه بالدم إذا اقتضت الحال.

الهند محتقنة بالكثير من الدَّجَل. خذ الدين. الدين بالنسبة للهندوسي الطائفة المغلقة وحماية البقر. وبالنسبة للمسلم، الختان واللحم المحلّل شرعاً. وبالنسبة للسيخي، اللحية الطويلة وكُره المسلمين. وبالنسبة للمسيحي، الهندوسية مع القلنسوة الهندية. وبالنسبة للبارسي(*) عبادة النار وإطعام النسور. أما الأخلاق التي من المفترض أن تكون لبّ الدستور الديني فقد أزيلت بعناية. خذ الفلسفة، التي حولها لغط كثير، إنها لاتعدو كونها تشوّشاً يرتدي قناع الصوفية. واليوغا، اليوغا خصوصاً، تلك الرائعة في جني الدولارات! قف على رأسك، اجلس متصالب الساقين ودغدغ سرّتك بأنفك، سيطر تماماً على حواسك. أوصل النساء إلى النشوة مراراً حتى يقلْن (كفى!) ويمكنك أن تقول (التالية، لطفاً!) دون أن تفتح عينيك. وكل

(*) زرادشتي متحدر من اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها في الهند. (م)

الكلام الفارغ عن التقمّص. الإنسان إلى ثور ثم إلى قرد ثم إلى صرصور ثم إلى ثمانية ملايين وأربعمئة ألف نوع من الأشياء الحية. البرهان؟ نحن لانخوض في مضيعة مبتذلة للوقت مثل البرهان! البرهان غربي، أما نحن فمن الشرق الغامض. لابرهان، فقط إيمان. لامنطق، فقط إيمان. أما الفكر الذي يُفترض أنه الشرط الضروري لأي دستور فلسفي، فنستغني عنه. نحن نرتقي إلى أعالٍ سامية على أجنحة الخيال. نحن نقوم بخدعه الحبل في كل مجالات الحياة المبدعة طالما العالم يصدق بسذاجة قدرتنا على أن نجعل الحبل يرتفع صوب السماء ونجعل طفلاً صغيراً يتسلق إلى أن يغيب عن النظر، فإن صنف الدجل الذي عندنا سيزدهر.

خذ الفن والموسيقا. ما سبب هذا الانحطاط في التصوير الهندي المعاصر وفي الموسيقا والعمارة والنحت؟ السبب هو أنها تصيخ السمع إلى ما قبل الميلاد. لاضير في ذلك شرط ألّا يتحول إلى نموذج – إلى عبءٍ مقيم، عندها فإن أشكال الفن عندنا في طريق مسدود. نفسّر غير الجذّاب بالادعاء أنه خفي. أو أننا ننفلت من كل عقال كما هو الحال في موسيقا الأفلام الهندية الحديثة. كلها تانغو ورومبا أو سامبا تعزف على غيتارات هاوايّيه وقيثارات واكورديونات وكلارينيتات. موسيقا بشعة. يجب التخلص منها كالبقية.

لم يكن واثقاً تماماً مما عناه. سكب كأساً آخر من الويسكي.

إدراك السيء متطلَّب أساسي لتأسيس الجيد. لاجدوى في أن تبني طابقاً ثانياً على بيت بجدران مهلهلة. الأفضل أن تدمّره. من الجبن والحماقة أن تتملق المعايير الاجتماعية إذا كنت لاتؤمن بها ولاتؤمن بالمجتمع الذي يحملها. شجاعتها من جبنك وجبنها من شجاعتك. المسألة كلها مسألة تسميه. يمكن للمرء أن يقول أنك تحتاج إلى شجاعة كي تكون جباناً. لغز، ولكنه قول مستخدم لاحظْ ذلك.

خذْ كأساً آخر من الويسكي. الويسكي كالماء. بلا طعم. هزّ إقبال

البطحة. سمع صوت ارتطام خفيف للسائل على جدران الوعاء. إنها لم تفرغ بعد. شكراً للإله، إنها لم تفرغ بعد.

إذا نظرت إلى الأشياء كما هي، حدّث نفسه، فليس ثمة على ما يبدو، دستور بشري أو إلهي يمكنك أن تؤسس عليه سلوكك. الباطل يظهر على الحق بمقدار ما الحق يظهر على الباطل. وأحياناً يكون فوز الباطل أكبر. ماذا يحدث في آخر المطاف، أنت لاتدري. في أحوال كهذه ماذا بوسعك سوى أن ترعى لامبالاة تامة تجاه كل القيم؟ لا شيء يهم. لاشيء مهما يكن.

أخذه النوم، الكأس السلولويدية في يده وعلى الكرسي المجاور للسرير يتّقد المصباح.

* * *

ترمّدت المواقد في فناء الغوردوارا. ومن حين إلى حين تهبُّ نسمةٌ فيتوهج الجمر. بهتت المصابيح حول الرجال والنساء والأطفال المنبطحين على أرضية القاعة الرئيسية. كان ميت سينج مستيقظاً يكنس الأرض ويرتب الفوضى.

ابتدأ شخصٌ ما يدق على الباب بقبضتيه. توقف ميت سينج عن الكناسة وسار عبر الفناء متمتماً، من هذا؟

حرَّر المزلاج. دخل جوغا الذي بدا في الظلام أضخم من أي وقت آخر. سدّ جسده الباب.

ـ أوه، جوغوت سينج جي أيّ شغل لك هنا في هذه الساعة؟ سأل ميت سينج.

ـ باي. همس. أريد كلمة الغورو. هل يمكنك أن تقرأ لي آيةً!

ـ لقد وضعت الغرانت صاحب ليرتاح في الليل. قال ميت سينج. ماذا يجعلك بحاجة إلى كلمة الغورو؟

ـ ليس هذا هو المهم. قال جوغا بنفاذ صبر ووضع يداً ثقيلة على كتف ميت سينج فقط اقرأ لي بعض السطور بسرعة. ممكن؟

قاده ميت سينج مدمدماً.

ـ لم يسبق لك أن أتيت إلى الغوردوارا من قبل. الآن تريدني أن أقرأ لك كلمة الغورو في حين الكتاب يرتاح والناس نيام. هذا غير لائق. سأقرأ لك قطعة من صلاة الصباح.

ـ لايهمني ماذا تقرأ لي. فقط أقرأ.

رفع ميت سينج فتيل أحد القناديل فلمعت بلّورته التي يعلوها السخام جلس بجوار السرير الصغير حيث يستلقي الكتاب المقدس. التقط جوغا المِذَبَّة من تحت السرير وابتدأ يلوح بها فوق رأس ميت سينج. أخرج ميت سينج كتاب صلاة صغير، وضعه على جبهته وابتدأ يقرأ الآيات من الصفحة التي فتح عليها اتفاقاً:

الذي خلق الليل والنهار

أيام الأسبوع والفصول

الذي نفخ النسمة وأجرى الماء

النيران والمناطق السفلى

خلق الأرض ـ معبد القانون

الذي خلق من المخلوقات من كل صنف

ومن الأسماء عدداً وفيراً

خلق هذا القانون

ليُحكمَ عليه حقاً بالفكر والفعل

لأن الإله حقٌ وينشر الحقيقة

هناك يزيّن المصطفون قصره

والإله نفسه يشرّف أفعالهم

هناك فُصلتْ الأفعال التي تمت وحملت ثمارها

من تلك التي لم يتم لها أن تنضج أبداً إلى فعل

سوف يحصل هذا، يانانـاك، بعد ذلك

أغلق ميت سينج كتاب الصلاة ووضعه على جبهته مرة أخرى. وابتدأ يدمدم خاتمة صلاة الصبح.

الهواء والتراب والماء

منها خلقنا

الهواء ككلمة الغورو يعطي نسمة الحياة

لوليد الأم العظيمة، الأرض

ذاك الذي، أبوه الماء

خفت صوته حتى صار همساً غير مسموع. أعاد جوغوت سينج المِذبّة، وبجبهته مسح الأرض أمام الكتاب المقدس.

ـ هل هذا صحيح؟ سأل بسذاجة.

ـ كل كلام الغورو صحيح. أجاب ميت سينج بوقار

ـ ماذا يعني؟

ـ ماشأنك أنت بماذا يعني، يكفيك أنه كلام الغورو، إذا كنت في طريقك إلى فعل شيء جيد سيساعدك الغورو وإذا كنت في طريقك إلى فعل شرير سيقف الغورو في وجهك، وإذا أصريت على فعلك سيعاقبك إلى أن تتوب، عندئذ سيغفر لك.

ـ نعم. ما شأني بالمعنى؟ لابأس باي جي. سات سري أكال.

ـ سات سري أكال.

مرة أخرى مسح جوغا جبهته على الأرض ونهض. مشى عبر الحشد النائم والتقط حذاءه. في إحدى الغرف كان ثمة ضوء. نظر جوغا إلى

داخل الغرفة، تعرّف على الرأس ذي الشعر الأشعث على الوسادة. كان إقبال نائماً والبطحة الفضيّة على صدره.

ـ سات سري أكال بابوجي. قال بصوت رقيق. لم يتلق أي ردّ. هل أنت نائم؟

ـ لاتزعجه. قاطعه ميت سينج هامساً. حالته ليست جيدة. كان يتناول دواءً لكي ينام.

ـ أخّا، باي جي. قل له أنت سات سري أكال نيابةً عني. وخرج جوغوت سينج من الغوردوارا.

* * *

«ليس كمثل الأحمق العجوز أحمق» ظلت الجملة تتردد في ذهن هوكوم تشاند. حاول إبعادها لكنها كانت تعود إليه أيضاً وأيضاً. «ليس كمثل الأحمق العجوز أحمق». لايليق برجل متزوج في الخمسينات من عمره أن يسعى وراء النساء. أن يتورط عاطفياً مع فتاة صغيرة بما يكفي لتكون ابنته، وفوق ذلك عاهرة! إنه غاية السخف. لابد أنه ابتدأ يفقد سيطرته على الأشياء وابتدأ يتحول إلى خَرِف وغبي.

تلاشى الشعور بالبهجة الذي أثارته فيه خطّته في الصباح. حلّ مكانه شعور بالقلق واللاثقة والشيخوخة. أطلق سراح البودماش والعامل الاجتماعي دون أن يعرف عنهما الكثير. ربما لم يكن لديهما من التماسك أكثر مما لديه. معروف عن بعض العمال الاجتماعيين اليساريين أنهم جسورون. هذا العامل الاجتماعي مثقف، على كل حال، من النوع الذي يصفه الناس بازدراء على أنه صنف الكرسي. فهو لايعرف على الأرجح سوى أن ينتقد الآخرين على فشلهم في أداء واجبهم. البودماش كان متهوّراً وسيء السمعة. اشترك في سرقة قطارات وتوقيف السيارات ونهب ركابها بقوة السلاح، واشترك في جرائم سلب وقتل. سعيه الدائم وراء

النقود أو الانتقام. الفرصة الوحيدة لقيامه بأي شيء هو أن يسوّي حسابه مع مالي، أما إذا هرب مالي لدى سماعه بوصول جوغا فإن هذا سيفقد اهتمامه وقد ينضم حتى إلى عصابة قتل ونهب ضحايا الكمين. فهو ليس من النوع الذي يغامر بحياته من أجل النساء. إذا قتلت نوران فسيلتقط فتاة أخرى.

لم يكن هوكوم تشاند مرتاحاً من دوره الخاص هو أيضاً. هل يكفي أن يجعل الآخرين يقومون بما يجب عليه هو القيام به؟ الحكام مسؤولون عن الحفاظ على القانون والنظام. لكنهم يحافظون على النظام حين تكون السلطة معهم وليست ضدهم. أين هي السلطة؟ ماذا يفعل الناس في دلهي؟ يلقون الخطب البارعة في الجمعية! ومكبرات الصوت تضخم ذواتهم، والنساء الأجنبيات الفاتنات في معارض الزوّار مسلوبة أنفاسهن إعجاباً (ياله من رجل عظيم هذا السيد نهرو الذي عندكم. أظن حقاً أنه أعظم رجل في العالم اليوم. وكم هو وسيم! أليس ذلك جميلاً أن تقول «منذ زمن بعيد تواعدنا مع القدر واليوم آن الأوان كي نحقق عهدنا، ليس على نحو كلي أو تام بل على نحو واقعي ملموس». أجل يا سيادة رئيس الوزراء تواعدت مع القدر. وتواعد معه الكثيرون غيرك.

فهناك زميل هوكوم تشاند، بريم سينج الذي عاد ليُحْضِر مجوهرات زوجته من لاهور. كان موعده في فندق فاليتي حيث كان من عادة السادة الأوروبيين أن يغووا زوجات بعضهم البعض وهو ملاصق لمبنى الجمعية البنجابية، حيث يتحدث البرلمانيون الباكستانيون حول الديمقراطية ويصنعون القوانين. بدَّد الوقت في شرب البيرة وتقديمها للرجال الإنكليز النازلين في الفندق. إلى جانب سياج الليغستروم كان ينتظره دزينة من الرؤوس المعتمرة الطرابيش والعمائم الباتانية. شرب الكثير من البيرة وأجبر أصدقاءه الانكليز وأعضاء الأوركسترا على ذلك. انتظر صحبه عند السياج بصبر. شرب الانكليز الكثير من البيرة والويسكي وقالوا أن بريم سينج رجل

عظيم. ولكن الوقت قد تأخر على العشاء لذلك قالوا له: طابت ليتلك سيد... لم ألتقط اسمك. أجل، طبعاً، سيد سينج. شكراً جزيلاً سيد سينج. إلى اللقاء... لطيف هذا الغريب العجوز. يستطيع أن يحتمل شرابه أيضاً. قالوا في غرفة الطعام. حتى أعضاء الأوركسترا شربوا من البيرة أكثر مما شربوه في أي وقت آخر. ماذا تريدون أن نعزف يا سيد؟ سأل منيدوزا، قائد فرقة غون. لقد تأخر الوقت ويجب أن نتوقف. لم يكن بريم سينج يعرف اسم أي مقطوعة موسيقية أوروبية. فكَّر جيداً فتذكر أن أحد الرجال الانكليز قد طلب شيئاً مثل باناناز (موز). باناناز. قال بريم سينج (لن نتناول الموز اليوم). حاضر سيدي. عزف (منيدوزا) و(دوميلو) و(روسيلفا) و(دوسارام) و(غوميز) باناناز كيفما اتفق. سار بريم سينج عبر المرجة إلى البوابة كذلك سار صحبه على طول السياج إلى البوابة. رأت الفرقة بريم سينج يغادر فتحولت إلى «ليحم الله الملك».

وهناك سانداري ابنة حاجب هوكوم تشاند. تواعدت مع القدر على طريق غوجرا نوالا. كانت متزوجة منذ أربعة أيام. الأساور الحمراء تغطي كلتا ذراعيها والحنّة لاتزال على راحتيها قرمزيةً غامقة. لم تكن قد نامت بعد مع مانسارام، ذلك لأن أقاربه لم يفارقوه لحظة واحدة. بالكاد رأت وجهه من وراء حجابها. الآن كان في طريقه معها إلى غوجرانوالا حيث يعمل أجيراً ولديه غرفة صغيرة يملكها في مجمع كورت سيشنز. لن يكون ثمة أقارب ولاشك أنه سيحاولها. لم يبدُ عليه أنه متشوق كثيراً، كان يجلس في الباص ويتكلم مع جميع المسافرين بصوت مرتفع. دائماً يتظاهر الرجال باللامبالاة. وما من أحد سيصدّق بالفعل أنها هي كانت تريده أيضاً. كيف لهم ذلك وهي تغطي وجهها بحجاب ولاتتفوه بكلمة! (لاتخلعي أية أسوارة، هذا يجلب الحظ السيء) قالت لها صديقاتها (فليكسرها هو عندما يضاجعك ويهرسك). الأساور تغطي الذراع من الرسغ إلى المرفق. تحسستها بأصابعها، كانت قاسية وسهلة التكسُّر. سيتوجب عليه القيام بالكثير من الاحتضان والوحشية ليكسرها جميعاً.

توقفت عن حلم اليقظة مع توقف الباص. على الطريق صخورٌ كبيرة. ثم أحاط بهم مئات الناس. أمروهم بالنزول من الباص جميعاً. السيخ تم تقطيعهم حتى الموت. وحليقوا الذقون أجبروا على التعرّي. أعفي عن المختونين. أما الغرل فقد ختنوهم، لم يقطعوا القلفة فقط بل قطعوا الشيء من أساسه وهي التي لم تكن في الحقيقة قد رأت مانسارام جيداً، عرضوه عليها عارياً تماماً. أمسكوه من اليدين والساقين وقام أحد الرجال بقطع قضيبه وقدمه لها. ومارس الرعاع الجنس معها. لم تضطر أن تخلع أيّاً من أساورها فقد تحطمت جميعاً وهي مستلقية على الطريق، يتركها رجل ليأخذها رجل آخر ثم آخر. لابد أن ذلك سيجلب لها الكثير من الحظ الطيـب.

قضية ساندر سينج كانت مختلفة. جنّده هوكوم تشاند في الجيش. وحسناً فعل. فقد كان سيخياً شديداً شجاعاً معه صفٌّ من الميداليات التي كسبها في المعارك في بورما وأرتيريا وإيطاليا أعطته الحكومة أرضاً في السند. وتواعد مع القدر في القطار مع زوجته وأطفاله الثلاثة. كان يوجد أكثر من خمسمئة رجل وامرأة في مقطورة مخصصة أصلاً لـ (أربعين جلوساً، اثني عشر نيام) ولايوجد سوى مرحاض صغير في الزاوية بدون أي ماء في الحوض كانت درجة الحرارة ١١٥ فرنهايت في الظل، ولكن لاوجود للظل. ولا شراب على مدى أميال. لاشيء سوى الشمس والرمال... ولاماء في كل المحطات أناسٌ يحملون الرماح على طول الدرابزين. في إحدى المحطات حُجز القطار لمدة أربعة أيام. لم يسمح لأحد بالخروج. وراح أولاد ساندر سينج يبكون طلباً للماء والطعام. وكان هذا شأن الجميع. قدم لهم ساندر سينج بوله ليشربوه. ثم جفّ بوله أيضاً وهكذا، سحب مسدسه وقتلهم جميعاً. شانغارا سينج، ٦ سنوات، بشعره الأشقر البني الطويل المربوط بقنزعة. ديبو، ٤ سنوات برموشه المجعدة. وأمرو، ٤ شهور التي ناضلت بلثّتيها مع ثديي أمها الجافين وغضّنت وجهها حتى بات مليئاً بالتجاعيد وهي تصرخ برعب. أطلق ساندر سينج النار على

زوجته أيضاً. ثم فقد السيطرة على أعصابه. وضع فوهة المسدس على صدغه لكنه لم يطلق. لامعنى لأن يقتل نفسه فقد ابتدأ القطار يتحرك. رمى جثث أولاده وزوجته وجاء إلى الهند. هو لم يحقق العهد، عائلته فقط حققته.

شعر هوكوم تشاند بالبؤس. هبط الليل. الضفادع تنادي من النهر، واليراعات تومض حول الياسمين قرب الشرفة. كان الخادم قد أحضر الويسكي ولكن هوكوم تشاند أبعدها. كان الخادم قد وضع طعام العشاء ولكن هوكوم تشاند لم يمسّه. طلب أن يبعدوا القنديل وجلس وحيداً في الظلام يحدّق في الفراغ.

لماذا ترك الفتاة تعود إلى تشوندونوغر؟ لماذا؟ سأل نفسه وهو يضرب جبهته بقبضته. لو أنها معه هنا في البنغل فلن يكترث لو تذهب بقية العالم إلى الجحيم. لكنها ليست هنا، إنها في القطار. يستطيع سماع طقطقته. انزلق في كرسيه وغطى وجهه بذراعيه وراح يبكي، ثم رفع رأسه إلى السماء. وشرع يصلي.

* * *

بزغ القمر بعد الحادية عشرة بقليل. بدا متعباً ومُبدَّداً. غمر السهل بضوء شاحب مُرهَق. كل شيء في ضوئه بدا ضبابياً. القليل من ضوء القمر كان قرب الجسر فحاجز سكة القطار العالي ألقى جداراً من الظل القاتم.

أكياس الرمل التي حمت عش الرشاشات قرب الشارة، كانت مبعثرة على جانبي سكة الحديد. وكان هيكل الشارة ينتصب مثل حارس عملاق يراقب المشهد. ثمة عينان بيضويتان كبيرتان، واحدة فوق الأخرى تشعّان بلون أحمر. وانتصبت يدا الشارة متيبستين متوازيتين. بدت الشجيرات على طول الضفة كأنها غاب. لم يكن النهر يلمع، كان مثل صفيحة من الأوردواز تظهر فيها على نحو طفيف مويجة هنا وأخرى هناك.

على مسافة مناسبة من حاجز سكة الحديد ووراء عنقود كثيف من البمب، تقف سيارة جيب ولايزال محركها يهرّ بلطف. لايوجد أحد بداخلها. كان الرجال قد انتشروا على جانبي السكة تفصل بضعة أقدام بين رجل وآخر. كانوا جالسين على أقفيتهم واضعين البنادق والرماح بين سيقانهم. وعلى القنطرة الفولاذية الأولى من الجسر قد شُدَّ حبل ثخين أفقياً فوق خط سكة الحديد على ارتفاع عشرين قدماً تقريباً من السكة.

كان الظلام عميقاً فلا يستطيع الرجل أن يتبين الآخرين. لذلك كانوا يتكلمون بصوت مرتفع. ثم نادى أحدهم.

ـ سكوت! سكوت!

أنصتوا. لم يكن هناك شيء. فقط الريح بين شجيرات القصب.

ـ اسكتوا على أي حال. جاء الأمر من القائد. إذا تكلمتم هكذا فلن تسمعوا صوت القطار في الوقت المناسب.

ابتدؤوا يتكلمون همساً.

سُمعت ضجة اهتزاز أسلاك فولاذية مع وصول إحدى الشارات تحولت العين البيضوية من أحمر إلى أخضر لامع. انقطع الهمس. نهض الرجال وأخذوا مواقعهم على مسافة عشر ياردات من السكة.

ثمة صوت قرقعة ثابت يقطّعه صوت نفث خفيض. ركض أحد الرجال إلى السكة ووضع أذنه على خط الفولاذ.

ـ ارجع يا أجدب. صرخ القائد بهمس أجش.

ـ إنه القطار. أعلن الرجل بانتصار.

ـ ارجع! كرر القائد بعنف.

توجهت كل العيون إلى الفراغ الرمادي من حيث جاء صليل القطار

ثم اتجهت إلى الحبل الوطيد كعمود من فولاذ. إذا كان القطار سريعاً فلسوف يقطع العديد من الناس كما تقطع السكين الخيار. ارتعدوا.

على مسافة بعيدة وراء المحطة، برزت نقطة ضوء. انطفأت وبرزت نقطة أخرى أقرب منها. ثم أخرى وأخرى. تقترب أكثر فأكثر مع تقدم القطار. كان الرجال ينظرون إلى الأضواء ويصغون إلى صوت القطار. لم يعد أحد ينظر إلى الجسر.

ابتدأ رجل يتسلق القنطرة الفولاذية. لم يلاحظه أحد إلا حين بلغ القمة حيث كان الحبل مشدوداً. ظنوا أنه يختبر العقدة. فقد كان يهزها بعنف. كانت العقدة متينة. حتى لو ضربتها القاطرة فقد ينقطع الحبل ولكن العقدة لن تنفك. تمدد الرجل على الحبل. قدماه قرب العقدة ويداه على منتصف الحبل. لقد كان رجلاً ضخماً.

اقترب القطار أكثر فأكثر. برز الشكل الشيطاني للقاطرة ومن مدخنتها يتطاير الشرر. غرق صوت النفث في زئير القطار نفسه. أمكنت رؤية القطار بكامله واضحاً على ضوء القمر الشاحب. من مقطورة الفحم إلى الذيل توجد قشرة صلبة من الكائنات البشرية على السطح.

لايزال الرجل متمدداً على الحبل.

وقف القائد وصرخ على نحو هيستري: «انزل يا حمار! ستُقتَل، انزل حالاً!».

استدار الرجل جهة الصوت واستلّ كيرباناً صغيراً من خصره وابتدأ يشق الحبل.

ـ من هذا؟ من هو؟...

لم يعد ثمة وقت. حوّلوا أنظارهم من الجسر إلى القطار ومن القطار إلى الجسر. كان الرجل يقطع الحبل بهمّة.

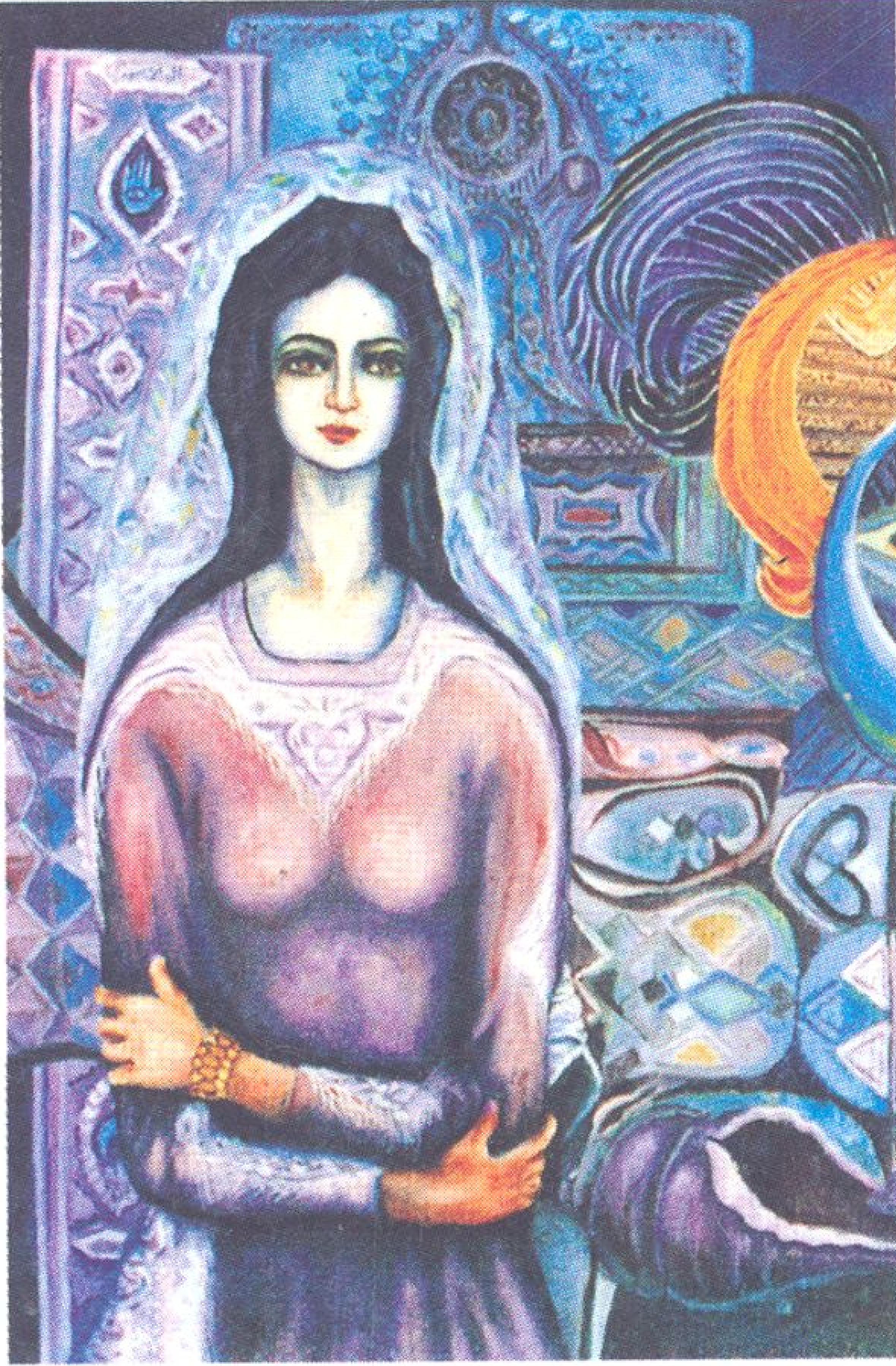
رفع القائد بندقيته إلى كتفه وأطلق النار. أصاب هدفه وانزلقت

إحدى ساقي الرجل عن الحبل وتدلت في الهواء. لاتزال الأخرى ملتفة على الحبل. كان يشق الحبل بسرعة مسعورة. باتت القاطرة على بعد ياردات قليلة منه، ترمي الجمرات عالياً في السماء مع كل نفخة من الصافرة. أحدٌ ما أطلق رصاصة أخرى. انزلق الجسد عن الحبل غير أنه تمسك به بيديه وذقنه. رفع نفسه وأمسك الحبل تحت إبطه وشرع مجدداً يقطع بيده اليمنى تقطّع الحبل إلى مزق. لم يبق منه سوى شريط قاسٍ رقيق حاول قطعه بالسكين ثم بأسنانه. كانت القاطرة على وشك الوصول إليه. ثمة وابلٌ من الرصاص. ارتعش الرجل وانهار. وانقطع الحبل من المركز مع سقوطه. مضى القطار من فوقه وتابع طريقه إلى الباكستان.

انتهت

«ان الميزات الجوهرية لهذه الرواية بصفتها عملاً ادبياً بارعاً تأسر القارئ، الحدث فيها يجرف المرء معه على طول الخط. الشخصيات مقنعة الى حدٍّ بعيد يجعلها الكاتب تمضي بروعة استثنائية على مستويين: في نسيجها اليومي المكوَّن من عواطف حبها وانتقامها، من احساسها الهائل بالانتماء الى مجتمع القرية من غطرستها وبطولتها ثم مرة أخرى على المسرح الواسع الذي ارسته العاصفة التي اندلعت على حيواتها».

(آرثرلال ممثل الهند الدائم لدى الامم المتحدة)



ربما يجد كثير من قراء هذه الرواية صعوبة في الإفلات من اسار مشهد /جوغا/ الخارج من سجنه وهو يرى أن حبيبته قد اقتُلِعَتْ من قريتها مع أباها المسن وسائر أبناء طائفتها في هذه القرية وحُشرت في القطار المُساق الى المحرقة دون أن يُسمح لها ان تنتظر ولو قليلاً لتودع حبيبها. ولسوف تخنق العبرات كثيراً ممن سيقرؤون هذه الرواية وتتملكهم المشاعر حين يصلون الى مشهد اجتماع أهل /مانوماجرا/ البلدة الصغيرة وهم يناقشون بُطلان وجريمة ان يفرض عليهم عنوةً قبول تهجير قسم منهم بسبب انتمائهم الطائفي.

كما سيجد القارئ نفسه مُحبَس الأنفاس وهو يتابع في النهاية نتيجة عمل /جوغا/ ليسترخي من بعدها مأخوذاً بجمالية المشهد وما فيه من فرح وحزن.

واذا كان في هذه الرواية قيمة تهم المؤرخ والسوسيولوجي وطلاب الدراسات الانسانية عموماً، فان فيها درساً بليغاً قد يهمنا جيداً في منطقتنا.

الناشر

دار الحصاد
سورية - دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠ - هـ/ فا: ٢١٢٦٣٢٦